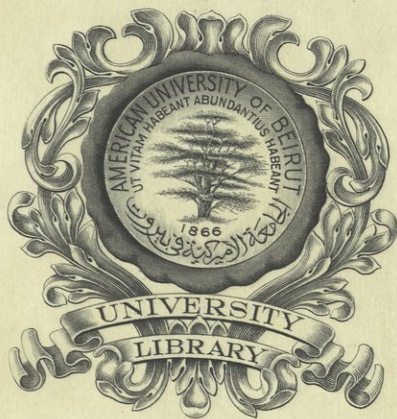
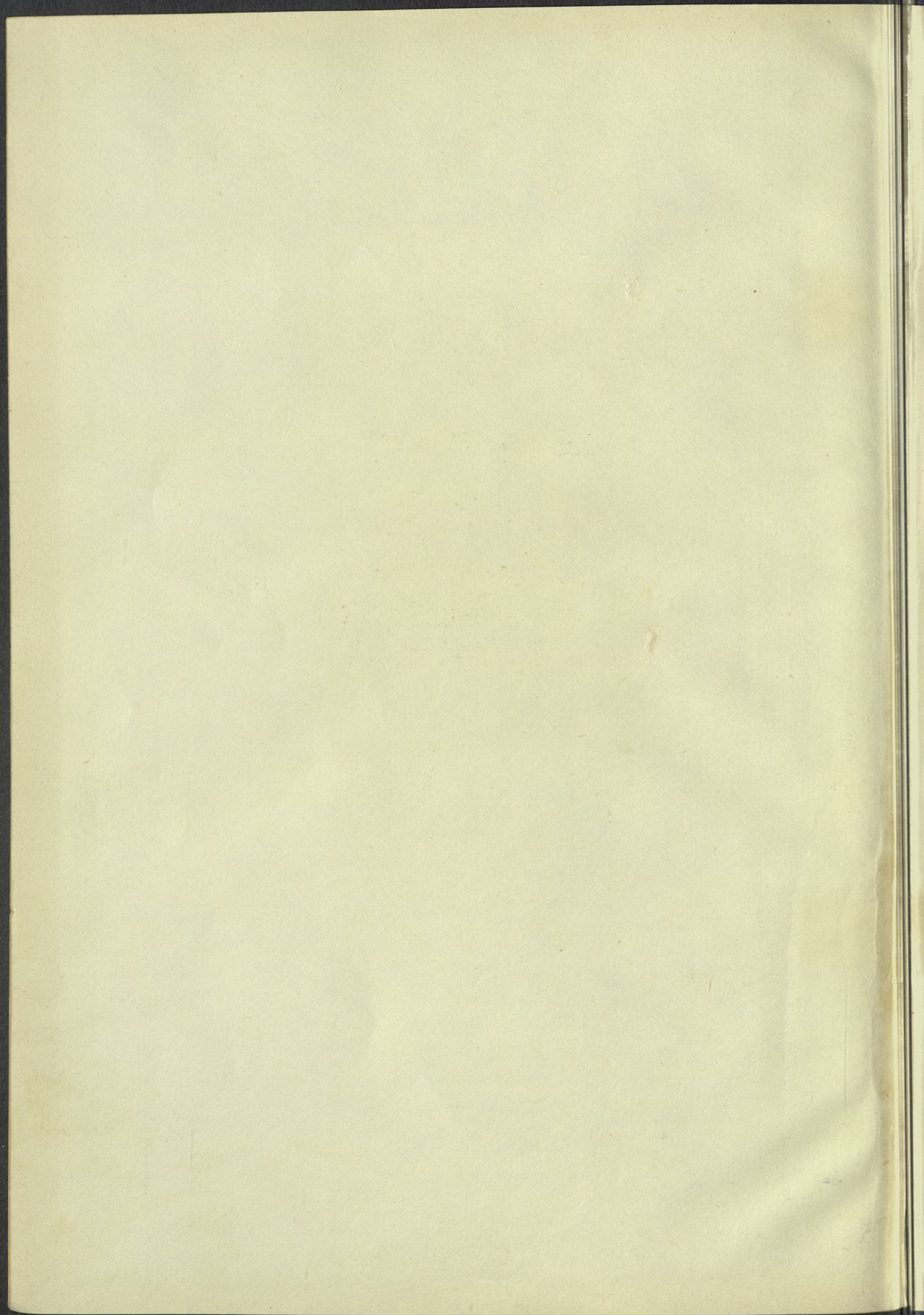
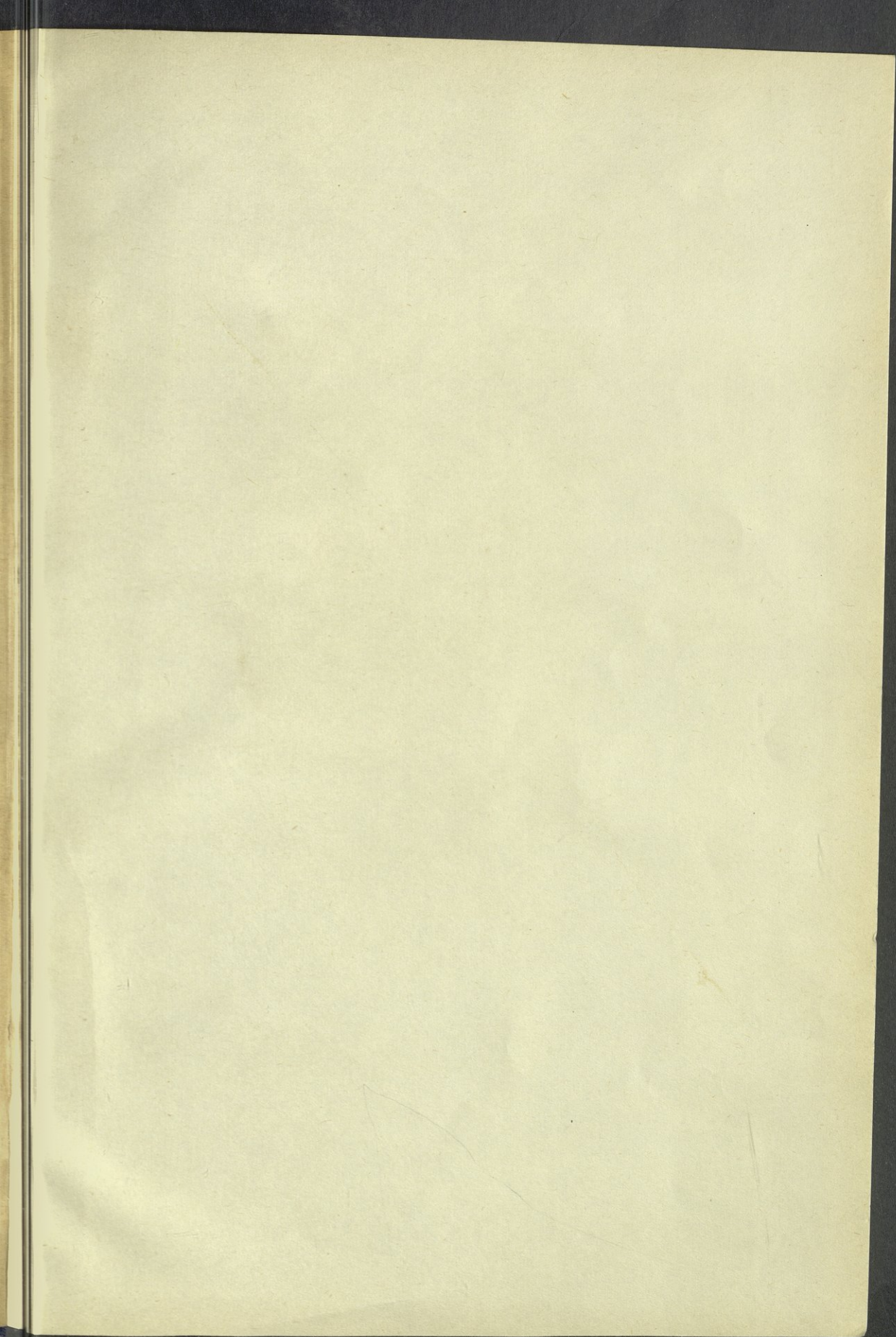


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧





808
J952a A
V.3
C.1

فن التشبيه

بلاغة - أدب - نقد

الجزء الثالث

تأليف

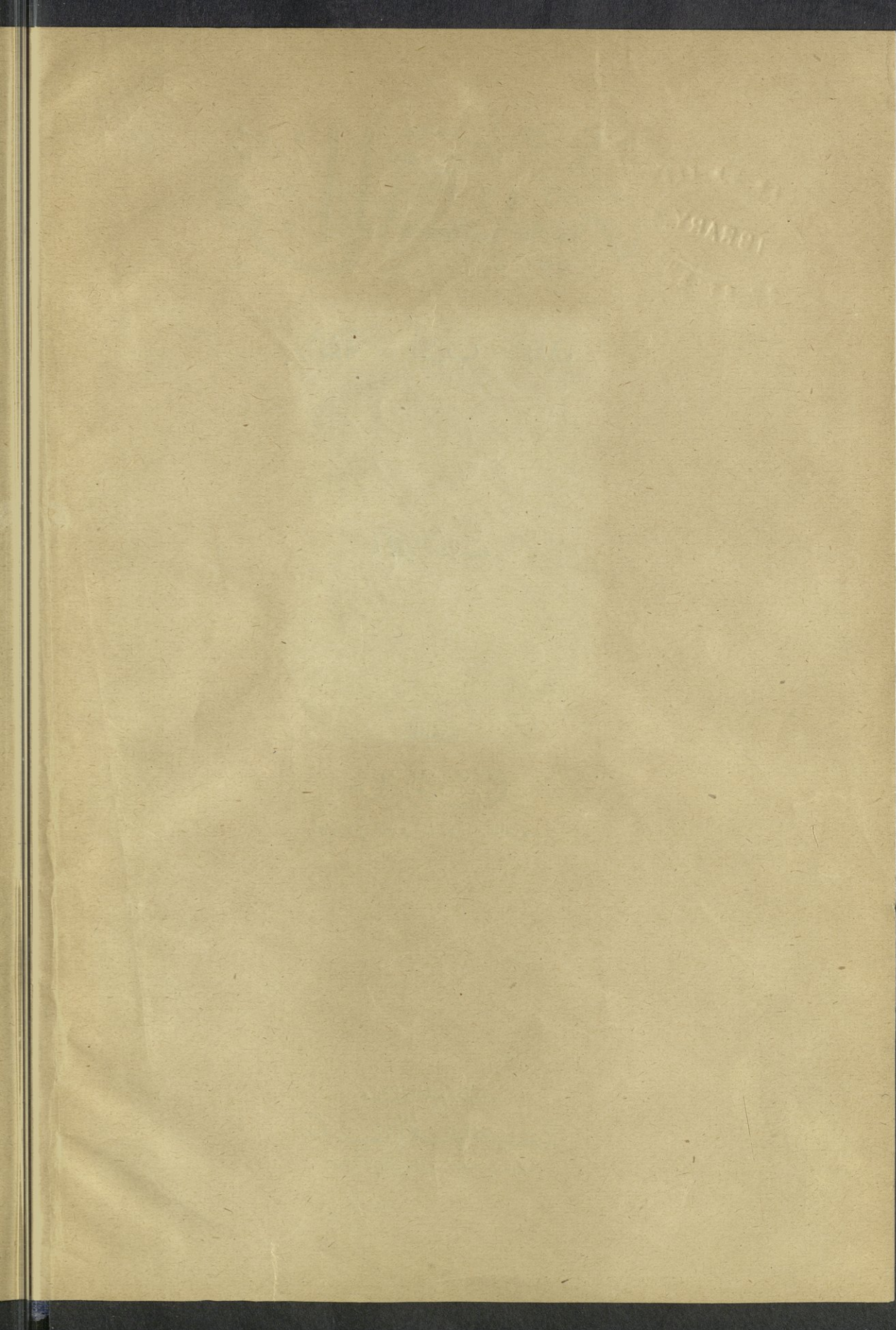
عبد الحليم الجبلي

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الزين سابقاً)



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »

(قرآن کریم)

الفصل الأول

محسنات التشبيه

هناك نكت بلاغية بعضها لا يتحقق جمال التشبيه بدونه، وبعضها - إذا توافرت له - رفعت من قيمته ، وزادته حسنا على حسنه .

ومن العسير إحصاء هذه النكت ؛ لأن ما تزداد به الأشياء ملاحظة وقوة لا يكاد يحصى .

وقد حصر البلاغة بعض أهل الأدب والكلام في عشرة أقسام ، فرد عليه الباقلاني : بأن من قدر أن البلاغة في عشرة أوجه من الكلام ، لا يعرف من البلاغة إلا القليل ، ولا يفطن منها إلا لليسير^(١) .

فمن هذه المحسنات :

١ - إذا كان الغرض من التشبيه بيان الحال أو المقدار ، فيجب أن يراعى الإتيان به محسوسا ؛ لأن المحسوس أيسر فهما وأسهل إدراكا من المعقول ؛ ولأن فيه تمثيلا للغائب المبهم غير المعتاد ، بالحاضر الواضح المعتاد ، فيتجلى حسنه بظهور معناه ، وبيان المراد منه .

وأن يراعى في وجه الشبه أن يكون معروفا ؛ لأن النفس تهش لما تعرف وتأنس به وتقبل عليه ، ولهذا يقول الله - تعالى - : في معرض الامتنان

على أهل الجنة : « كَلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا ، قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأَتُوا بِهِمْ مِثْلَهَا » .

وقد ذهب المفسرون في تعليل تشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة : أن الإنسان بالمألوف آنس ، وإلى المعهود اميل ^(١) .

ثم يجب أن يراعى في بيان المقدار خاصة — زيادة على ما تقدم — أن يكون المشبه به على مقدار المشبه في وجه الشبه بغير زيادة ولا نقص .

وكلما كان القدر المشترك أبعد من الزيادة والنقص ، كان التشبيه أدنى إلى القبول والنسليم ، وأبرأ من العيب والهجنة ؛ لأن الدقة في التحديد هنا مطلوبة ومرعية ، وعليها يتوقف كمال التشبيه وجماله وسلامته من النهايات .

٢ — إذا كان التشبيه مقلوبا ، أو إذا كان الغرض منه تقرير المشبه لدى السامع ، فيراعى أن يكون المشبه به محسوسا ، وأن يلحظ فيه أن يكون أتم نصيبا وأكمل اختصاصا بوجه الشبه المحسوس من المشبه ، ليتحقق معنى المبالغة ، وليتأكد في النفس ، وهما الثمرة المقصودة منه .

٣ — إذا كان الغرض من التشبيه بيان إمكان الوجود ، أو التحسين أو التقييح ، فيراعى أن يكون المشبه به حكما صحيحا مسئليا ، وبرهانا مقنعا مقبولا سائغا ، وأن يكون وجه الشبه فيه أظهر وأشهر ؛ ليستعان به على إزالة عناد المعارض ومكابرته ، وتمهيد خضوعه وإذعانه .

٤ — في تشبيه الاستطراف ، يراعى أن تكون الصورة أنيقة بديعة تحلب اللب وتبهر العقل ، وتبعث في النفس نشوة وأريحية ، وتثير فيها نوازع الشوق إلى استجلاء الجمال الفنى ، وتزيد في إرهاف الذوق وظمئه إلى المتعة بطرائف البيان .

وأن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن مطلقا ؛ لبعده عن متناول التصور ، أو نادر الحضور فيه عند حضور المشبه لبعده إدراك النسبة بينهما

إلا لدى الأذكياء الملمهين ؛ لأن من طبيعة النفس أن تفتتح للأمر النادر ،
تتشوّف إلى الجديد المستحدث ، وتشيح عن المكرر والمعاد .

٥ - أن يضع الأديب نصب عينيه بعامة ، صبّ الأمور المعنوية
في قوالب المحسوسات تحقيقاً لـكنهه التشبيهية ، وإبرازاً للأصل الذي قام
عليه وأنشأه من أجله ؛ وهو توضيح الشيء الخفي ، وتقريب المعنى
البعيد .

٦ - أن يكون وجه الشبه صحيحاً دقيقاً يتّنا شاملاً للطرفين ، مؤدياً إلى
الغرض من التشبيه ، كاملاً وافياً بتحصيل ما علّق عليه ، بريئاً من السوقية
والابتذال الذي يلحقه بكلام الحشوة والدهماء .

٧ - أن تراعى جهة التشبيه مراعاة تامة دقيقة ؛ فلا يحدث انحراف عن
الغاية المقصودة ، حتى لا يقود إلى الخطأ أو القبح كما سنفصله بعد ، وكما
عرضناه في الجزء الثاني .

وفي ذلك يقول ابن طباطبّا : ينبغي للشاعر أن يتأمل شعره وتنسيق
أبياته ، ويقف على حسن تجاورهما أو قبحه ، فيلائم بينهما لتنظيم معانيهما
ويتصل كلامه فيهما كقول ابن هرمة :

ولمّا وتركي ندى الأكرمين وقدّحني بكفّي زنادا شحاحا^(١)
كتاركة ييضها بالعراء وملبسة ييض أخرى جناحا^(٢)
وقول الفرزدق يهجو جريرا :

فإنك إذ تهجو تميما وترثي سرايل قيس أو سُحوق العائم^(٣)

(١) شحاحا بالفتح . لا يورى ، كناية عن استجدائه البغلاء .

(٢) كتاركة : يريد بها النعامة ؛ لأنها ربما خرجت المطعم فتركت ييضها وحصلت ييض
غيرها ، ولهذا ضرب بها المثل في الحق .

(٣) سُحوق العائم : البالية .

كسهر يق ماء بالفلاة وغره سراب أذاعته رياح السمانم

يريد أن جريرا - وهو من تميم - يهجو الفرزدق وآله بنى دارم
صفوة تميم ومناط نغرها ، ويمدح « قيس » وهم أعداء تميم جاهلية وإسلاما
طلبا لرشوته لهم بالأكسية ، فعيره بذلك ؛ لأن جريرا في الحقيقة إنما
يهجو نفسه وقومه .

وكان يجب في الشعر أن يكون بيت لابن هرمة مع بيت للفرزدق ،
وبيت للفرزدق مع بيت لابن هرمة ، فيقال :

وإني وتركي ندى الأكرمين وقد حى بكفى زنادا شحاحا
كسهر يق ماء
ويقال :

فإنك إذا تهجو تيميا وترتشى سرايل قيس أو سحقوق العمام
كتاركه يعضها بالعراء

حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعا ، وإلا كان تشبيها بعيدا ، غير واقع
موقعه الذي أريد له (١) .

وبانعام النظر في معاني الأبيات ، يظهر لنا الخطأ في الترتيب الأول ،
وصحته في الترتيب الثاني ؛ لأن من يترك استمناح الأجواد الكرماء المتحقق
بذلهم ، ويستميح الأشحاء اللئام الذين لا تندى أيديهم ، يشبه من يريق ماء
في يده ، اعتمادا على سراب غرار لا يجديه شيئا !

وكذلك من يهجو قومه ويضع منهم بذمه ، ويمدح أعداءهم ابتغاء
ما يناله من عرض حقير ، أشبه الناس بالنعامة الحقاء التي تجفو يعضها
فيعطب ويموت ! وترخم على يعض غير ما فتمنحه الحياة والبقاء .

٨ - أن يفرق بين ما به المشابهة وما به الامتياز ، فلا ينظر إلى جميع الأوصاف ، بل إلى الأوصاف الخاصة التي تكون عناصر وجه الشبه ، متجاهلا غيرها مما لا يوجد في الطرفين معا ؛ كقول ابن المعتز في وصف الخمر :
وكان كفيّه تقسّم في أفداحنا قطعاً من الشمس
وقول تاج الدولة القضاة في حسناوين ؛ إحداهما في ثوب ديباج
أحمر والأخرى في أسود :

أرى بدرين قد طلعا على غصنين في نسق
وفي ثوبين قد صبغا صبغ الخد والحدق
فتلك الشمس في شفق وهذي البدر في غسق
فلم يقصد من هذه التشبيهات غير المشاركة في الألوان دون غيرها
من الصفات .

وليس كل شيء يُشَبَّه بشيء يقع التشبيه به من جميع الجهات حتى لا يُغادر
منها شيء ، وقد يكون إنما شبه به ببعض ما فيه لا بأكمله^(١) .

وبمراعاة الشرط المتقدم يكون التشبيه جامعاً بين الاتفاق التام
والاختلاف التام ، وبالجمع بين هذين يتحقق معنى الحسن والإبداع والسحر
والخلافة .

٩ - أن يحصل بالتشبيه على الفوائد المقصودة منه ، وهي الوضوح
والمبالغة ، والاختصار ، والتأكيد .
فقول امرئ القيس :

كان قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العُنَّاب والحشف البالي
من التشبيه المقصود به إيضاح الشيء ؛ لأن مشاهدة العناب والحشف

البالي أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبة ويابسة^(٢) .

وقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
يجمع المقصودين من الظهور والمبالغة .

أما الظهور ، فلأن علم الناس بأن الليل لا بد أن يدرك النابغة أظهر من
علمهم بأن النعنان لا بد أن يدركه .

وأما المبالغة ، فإن تشبيهه بالليل الذى لا يصدّه حائل ، أعظم وأغنى
وأبلغ فى المدح .

وقول النابغة أيضاً :

متوَّج بالمعالى فوق مفرقه وفى الوغى ضيغم فى صورة القمر
يحمل معناه إلى الذهن جلياً قويا غما من طريق موجز مختصر ، لا يتأتى
بإسهابنا فى وصفه بالجمال والشجاعة .

وسر ذلك : أن الصور العقلية يسهل انتزاعها من الألفاظ الخاصة ،
ومن الأمور الجزئية والبسيطة ، أكثر من الألفاظ العامة ، والأمور
الكلية والمركبة .

فالشرط الأخير من البيت المتقدم يتضمن على قصره من المعانى
ما لا يستطيع تأديته من غير طريق الصور الخيالية إلا بتطويل وإفاضة ،
مع الخلو من المبالغة والقوة والتأثير والتقرير التى حواها هذا الكلام
الموجز القصير .

هذه القواعد التى ذكرناها قواعد رئيسية فى حسن التشبيه .

أما الأشياء التي يزيد بها حسنه فكثيرة ، منها :

١ - أن تجتمع عدة تشبيهات في بيت واحد أو ألفاظ يسيرة ، كقول

أمرى القيس المشهور :

له أبطلا ظي وساقا نعامه وإرخاء سرحان وتقريب تتفّل

فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء .

وذلك أن مخرج قوله :

له أبطلا ظي

إنما هو على أنه له أبطلان كأبطلَى الظي ، وكذا ساقان كساقى النعامه ،

وإرخاء كإرخاء السرحان ، وتقريب كتقريب التتفل (١) .

وكقول ابن الساعاتي :

ما الجوّ إلا عنبر والدّوح إلا جوهر والأرض إلا سندس

سفرت شقائقها فهم الأقحوا ن بلشما فرنا إليه النرجس

فكان ذا ثغر ، وذا خد يحا وله ، وذا أبدأ عيون تحرس

هذا رأى قدامة ، ولعله يريد من اجتماع عدة تشبيهات أن تكون

الصوره غنية بألوان مختلفه من الأخيلا ، لتكون ممتعة من جهة ، ودالة على

مهارة منشئها من جهة أخرى .

ونحن لا نستطيع أن نقر هذا الرأى في كل حال ، فكثيراً ما تكون

كثرة التشبيهات في البيت الواحد من أسباب ثقله ، وفسولة تركيبه ، وتعقيد

معناها ، وكثيراً ما يكون التشبيه الواحد مليئاً بالجمال والخصب والحيوية

بحيث لا تطاوله هذه التشبيهات المجمعة في عمق الخيال ودقة المعنى وبداعة

التصوير وبعد المسلك .

- ٢ - أن يشبه شيء بأشياء في بيت أو لفظ قصير كقول بعض النساء :
هم الربيع والسَّنام المعتمد والذروة العليا والركن الأشد
- ٣ - أن يشبه شيء في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال .
كقول امرئ القيس - يصف الدرع في حال طيها -
ومشدودة السَّك موضونة تضال في الطي كاللمبرد^(١)
ثم وصفها في حال النشر فقال :
تفيض على المرء أردانها كفيض الآتي على الجدجد^(٢)
وقول ليلي الأخيلية ترى توبة بن الحمير :
ففي كان أحيا من فتاة خريفة وأشجع من ليث بخفان خادر^(٣)
وقول العسكري :
إذا اهتز للهيجاء فهو منهـد أو اهتز للإفضال فهو غمام
وقول بعضهم :
جلوس في مجالسهم رزان وإن ضيف ألم فهم وقوف
إذا نزلوا حسبتهم بدورا وإن ركبوا فإنهم حتوف
٤ - أن يقع على صورة التشكيك - وهو نوع مما يسمى تجاهل
العارف ومزج الشك باليقين - وتعريفه : أنه إخراج ما تعرف صحته
مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً .
وقد رأيناهم ، العرب ، احتملوا الكلام حتى قربوه من فهم السامع
بالامتهارات والمجازات التي استعملوها وبالتشكيك في الشبهين .

(١) السك : المسار ، والموضونة : المنسوجة حلقتين حلقتين : أي إذا طويت صغرت ولطفت حتى تصير كاللمبرد .

(٢) الجدجد كقرقد : الأرض الصلبة القوية أي إذا نشرت فاضت على لابسها فيض الغيث القوي على الأرض الصلبة اليابسة .

(٣) خفان كشداد ، مأسدة مشهور بقوة أسودها .

وهو من ملح الشعر وطرف الكلام ، وله في النفس حلاوة وحسن موقع ، بخلاف ما للغلو والإغراق .

وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ولا يميز أحدهما من الآخر .

مثاله من المنشور ما كتبه العسكري إلى بعض أهل الأدب : سمعت بورود كتابك ، فاستفزني الفرح قبل رؤيته ، وهزّ عظمي المرح أمام مشاهدته ، فما أدري أسمع بورود كتاب ، أم ظفرت برجوع شهاب ! ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور ، أم روض بمطور ! وكلام منشور ، أم وشى منشور ! ولم أدر ما أبصرت في أثنائه : أبيات شعر ! أم عقود حر ! ولم أدر ما حملته : أغيث حلّ بوادي ظمآن ، أم غوث سيق إلى لطفان .

ومثاله من المنظوم قول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
فإن تسكن النساء مخبئات فحق لكل محصنة هداء^(١)

فقد أظهر أنه لم يعلم أنهم رجال أم نساء .

وهذا أملح من أن يقول : هم نساء وأقرب إلى التصديق .

وقول ذي الرمة :

فياظية الوعساء بين جلاجل وبين النقا أنت أم أم سالم^(٢)
فلو قال : أنت أم سالم على نفي الشك ، بل لو قال : أنت أحسن من الظية لما حلّ من القلوب محل التشكيك .

(١) الهداء : هداية العروس إلى زوجها .

(٢) الوعساء : رملة لينة ، وجلاجل بضم الجيم وفتحها وروي بالحاء : اسم موضع بعينه ، والنقا : السكيب من الرمل ، وأدخل الألف بين الهمزتين من قوله : أنت كراهية اجتماع همزتين كما دخلت بين النونتين في قولهم : أضر بنان كراهية اجتماعهما .

وقول جرير .

فإنك لو رأيت عبيد نيم وتيما قلت أيهما العبيد ؟

فلو قال : عبيدهم خير منهم لما ظنَّ به الصدق ، فاحتمال في تقريب المشابهة ؛ لأن في قربها لطافة تقع في القلوب وتدعو إلى التصديق .

وقول أبي النجم يصف عرق الخيل :

كأنه من عرق يُسر به ككسر سيف النداف لولا بلله^(١)

فإنه لو قال : إنه الكرسف لم يكن في حسن هذا ؛ لأنه يشهد بتقارب الشبهين إلى أن أوقع في الشك .

ومن ذلك قول أعرابي :

أيا شبه ليلى مالىلى مريضة وأنت صحيح إن ذا لمحال
أقول لظبي مرّ بي وهو رانع أنت أخو ليلى فقبل يقال

وقول أعرابي آخر :

أقول والنجم قد مالت مياسره إلى الغروب تأمل نظرة حار^(٢)
ألحمة من سنا برق رأى بصرى أم وجه نعم بدا لي أم سنا نار
بل وجه نعم بدا والليل معتكر فلاح من بين حجاب وأستار

وقول المتنبي :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر أريقك أم ماء الغمامة أم خمر
أذا الغصن أم ذا الدّعر أم أنت فتنة وذيا الذى قبلته البرق أم ثغر

(١) الكرسف بضم الكاف : القطن .

(٢) حار : مرخم حارث .

(٣) البرود : الشديد البرد .

وقول ابن هانيء الأندلسي :

فتسكات لحظك أم سيوف أيبك وكنوس خمر أم مراشف فيك

وقول بعضهم :

أأنت ديار الحى أيتها الربا الأنيقة م أم دار المما والنعام
وسرب ظباء الوحش هذا الذى أرى بربك أم سرب الظباء النواعم
وأدمعنا اللاتى عفك انسجامها وأبلاك أم صوب الغمام السواجم
وأيامنا فيك اللواتى تهسرت مع الوصل أم أضغاث أحلام نائم
وهذا النوع كثير فى الأشعار ، والشك هنا أحلى فى الصدور وقعا
وأدى على الأكبادة رفيفا من اليقين .

هـ — أن يكون قد وطئ له بكلام سابق ؛ كقول ابن الرومى فى وصف سوداء :

يفترّ ذاك السّواد عن يَقَق من ثغرها كاللآلىء الفِلاق
كانها والمزاح يُضحكها ليل تفرّى دجاء عن فلاق
وفضل كلام ابن الرومى عن سواه : أنه قدم فى التشبيه لمعناه مقدّمة
أيدته ، ووطأت له الآذان ، وأصغت الأفهام إلى الاستحسان ؛ وهو قوله :
يفترّ ذاك السّواد^(١)

وقول الأعشى :

وعرّيت من ملك وخير جمعه كما عُرِيت مما تُمرّ^(٢) المغازل
وقول إبراهيم الصولى :
أراك إذا أيسرت خيمت عندنا مقبلا وإن أعمرت زرت لماما

(١) الذخيرة — ١٢١ .

(٢) تمر : تفتل .

فما أنت إلا البدر إن قلّ ضوءه أغبَّ وإن كان الضياء أقاما
وقول المتنبي :

سقانا وحيانا بك الله إنما على العيس نوز والحدور كأنهم
لما جعل هؤلاء الحسان زهرا وجعل الحدور كأنهم دعا لمن بالسقيا
كما تسقى الأزهار، وفرّج عن ذلك أن جعلهن تحية يحيا بها، كما جرت العادة
أن يحيا بالزهر والريحان، وهو من المعاني الغزلة الرقيقة .

وقول أبي فراس الحمداني :

وقور وربعان الصبا يستفزّها فتأرين أحيانا كما يآرن^(١) المهر
وقول محمد الشامي :

لا يحسن الشعر إلا في محاسنه كالدر أحسن ما يبدو على الجيد
فأنت ترى في هذه الأبيات جميعها : أنه قد تقدّم التشبيه ما يدل عليه ،
حتى ليكاد يتصور في ذهنك ؛ لو ثاقفة العلاقة بين الكلام السابق واللاحق .

٦ - أن يجمع فيه بين لونين من الشعر كالنسيب والمدح مثلا .

فمن ذلك قول الأعزّاز يمدح ابن صمادح :

نقى الحبّ عن مقلتيّ الكرى كما قد نقى عن يديّ العدم
فقد قرّ حبك في خاطري كما قرّ في راحتيه الكرم
وفرّ سلوك عن فكري كما فرّ عن عرضه كل ذم
لحبي ومفخره باقيا ن لا يذهب ان بطول القدم
فأبقى لي الحبّ خال وجدّ م وأبقى له الفخر خال وعم

(١) أرن : مرح ونشط .

وقول إبراهيم بن محمد الأنصاري :

خطرت كمياذ القنا المتأطر ورنيت بالحاظ الغزال الأعفر^(١)
وأنتك بين تطاعن وتداعب في فتك قسورة وعطفة جوذر
فجمع بين الحمامة والنسيب .

وهذا اللون يسميه أهل البيان : « الافتنان » .

٧ — أن يكون لطيف الصياغة ، عذب الالفاظ ، خفيف الظل ؛ كقول
أبي سعد الخزومي :

والورد فيه كأنما أوراقه نُزعت ورُدَّ مكانهن حدود
فلم يزد على التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت
إذا قسمته إلى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست في نفسك هزة ،
ووجدت طريقة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها^(٢) .

٨ — أن يكون تشبيه حالة وجود بحالة عدم ، أو حالة عدم بحالة وجود .

فن الأول — وقد جاء كثيراً في أشعارهم — قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسيأ الزق الروى ولم أقل لخبلى كرى كرة بعد إجفال
وقول متمم بن نويرة في أخيه مالك :

وكنا كندمانى جذيمة^(٣) حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(١) جذيمة الأبرش ملك الحيرة .

(٢) الأعفر : ما يملو بياضه حمرة من الظباء .

(٣) الوساعة للقاضي الجرجاني — ١٤٧ .

وقول أشجع السلمي :

كان لم يمت حتى سواك ولم تقيم على أحد إلا عليك النوايح
وقول إبراهيم بن المهدي :

كان لم يكن كالغصن في ميمة الضحا سقاء الندى فاهتز وهو رطيب
كان لم يكن كالدر يلمع نوره بأصدافه لما تشينه ثقوب
كان لم يكن زين الفناء ومعقل م النساء إذا يوم يكون عصب
وقول أبي نواس :

تضحك الدنيا إلى ملك قام بالآثار والسنين
سنّ للناس الندى فندوا^(١) فكان المحل لم يكن
وقول ابن الأحنف :

كان لم يكن يفي وبينكم هوى ولم يك موصولا بحبلكم حبل
وإني لأستحي لكم من محدث يحدث عنكم بالملالة والمطل
وقول ابن زيدون :

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا والدر قد غضر من أجفاننا
سران في خاطر الظلاء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يُفشي
وقول ابن يحيى :

إن يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا لم يحفلوا
وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا
وهو من بارع الهجاء ، وفيه تتمثل صفاقة الوجه وصلابته أدق تمثيل ،
وكان قائله نظر إلى الحديث الشريف « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » .

(١) ندوا : أي أخصبوا .

وفيه يقول قدامة : ومن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعمّد أصدقاء الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم ، لأن الغدر ضد الوفاء ، والفجور ضد الصدق ، والبخل ضد الجود .

ثم أتى بعد ذلك بضد أجل الفضائل وهو العقل حيث قال :

وغدوا عليك مرجلين

لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمة والقسحة التي هي من عبي القوة المنيرة كما قال جالينوس في كتابه « في أخلاق النفس » (١) .

والشعر عندي لا يحتمل هذا التحليل العقلي الفلسفي ، وليس هو من مراد الشاعر العربي الذي لا يفهم هذه النظريات المعقدة ، وإنما غرضه أن يهجوهم بصفات تعبير بها العرب ، ويخزي منها الرجل الشريف .

ثم زادهم سباً مقذعاً ؛ فذكر أن هذه الصفات تندي لها جباه من لصقت بهم ، ويطأطئون لها رءوسهم خجلاً ، ويسكن هؤلاء لتجردهم من الحمية والكرامة والنخوة والأنفة ، ولنضوب وجوههم من الحياء ، وموت ضمائرهم ومشاعرهم يمرون عليك — وقد رجّلوا شعورهم إمعاناً في الصفاقة والاستهتار ولفتاً للأنظار — كأنهم لم يأتوا شيئاً منكراً على حين أنهم أتوا بأنسكرا الأشياء .

والذي ذكره قدامة ، مردّه إلى مذهبه الذي اعتنقه ؛ وهو أن المدح بالحسن والجمال ، والندم بالقبح والدماة ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة ، ويخطئ كل من يمدح بهذا ويذم بذلك ، ويستدل بإنكار عبد الملك على ابن قيس الرقيات في قوله فيه :

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وقوله له : تقول في هذا وتقول لمصعب :

إنما مصعب شهاب من الله م تجلّت عن وجهه الظلماء

وزبدة رأى قدامة أتى بها الشاعر في قوله :

وعيب الفقى فيما أتى باختياره ولا عيب فيما كان خلقاً مركباً

وقد ذكر الخفاجى أن الآمدى أنكر على قدامة مذهبه ، وقال : إنه خالف فيه مذاهب الأمم كلها عربياً وعجمياً ؛ لأن الوجه الجميل يزيد في الهيبة ويؤمن به ، ويدل على الخصال المحمودة .

فإن كان قدامة يعتقد أن ذلك ليس بفضيلة لما كان الإنسان قد خلق عليه ، فهذا حكم جميع الفضائل الإنسانية ؛ فإن الكريم قد خلق كريماً والشجاع شجاعاً والعاقل عاقلاً ، وكما لا يقدر القبيح الوجه على أن يستبدل صورة غير صورته ، كذلك لا يقدر الجاهل على أن يستفيد عقلاً فوق عقله ، ويلزم قدامة ألا يجيز المدح بشرف النفس ، وكرم الأصل ، لأن ذلك يجرى مجرى الصور ، ولا يصنع للممدوح في شيء منها ، والأمر في هذا ظاهر .

فأما إنكار عبد الملك بن مروان على ابن قيس الرقيات مدحه له بالتاج ، فإنما أنكره ، لأن التيجان من زى ملوك العجم ، ولم يكن خلفاء العرب يعرفونها ، فقال له : تمدحنى كما تمدح ملوك الأعاجم ، وتمدح مصعباً كما تمدح الخلفاء .

والأمر كما قال عبد الملك ، لأن مدح الخليفة بأنه شهاب من الله — تعالى — أبلغ من مدحه باعتدال التاج فوق مفرقه ^(١) .

وهذا الذى ذكره الآمدى صحيح ، ولو لم يكن في ذلك إلا ما جعلت عليه النفوس من الميل إلى الوجوه الحسان لكان كفى .

وبما يدل على خطأ قدامة في تهوينه من قيمة الجمال : ما جاء في الآثار من
أن الله لم يبعث رسولا قط إلا جميل الوجه ، كريم الحسب ، حسن الصوت .

وكان الرسول — صلوات الله عليه — حسن الصورة ، وقد سئل على
— كرم الله وجهه — : أ كان وجه رسول الله مثل السيف ؟ فقال : لا ،
بل مثل القمر .

وقد جاء في صفته الشريفة : كأن الشمس تجري في وجهه ، وفيه يقول
شاعره حسان :

فأجل منك لم تر قط عيني وأكل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء
وكان أبو بكر إذا رآه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام
وكان عمر إذا رآه يشهد قول زهير :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنوّر ليلة البدر
ونظرت إليه السيدة عائشة يوماً فتبسّمت ، فسأها عن ذلك ؛ فقالت :
كان أباكثير الهذلي عناك بقوله :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلّل
وكان — عليه الصلاة والسلام — يدعو إلى جمال الباطن بجمال الظاهر
كما قال جرير بن عبد الله البجلي : دأنت امرؤ قد حسّن الله خلقك
فأحسن خلقك .

كما كان يستحسن أن يكون الرسول حسن الوجه حسن الاسم ،
وفي ذلك يقول : « إذا أبردتم بريدأ^(١) فليكن حسن الوجه حسن الاسم » .

(١) أى إذا أرسلتم رسولا .

وقد ذهب بعض المفسرين في قوله - تعالى - : « يزيد في الخلق ما يشاء » ، أنه الوجه الحسن ، والصوت الحسن .

والحكمة يقولون : إن حسن الصورة أول سعادة الإنسان ؛ لأن الله - تعالى - بلطيف حكمته لم يخلق الصورة مختارة الصفات سليمة من الآفات ، إلا وأضاف إليها ما يناسبها من العقل والصفات .

وقالوا : قلما توجد صورة حسنة تدبرها نفس رديئة .

والمأمون يقول : إن الروح إذا وقع أثرها في الظاهر كانت صباحة ، وإذا وقع أثرها في الباطن كانت فصاحة .

ورحم الله شوقي إذ يقول :

والحسن من شرف الوجوه وخيرُهُ ما أوتي القواد والزعماء

وقد كان الفرس يقيمون بالوجه الحسن كما كانت العرب تتمدح بجمال الوجه ؛ قال ابن عنقاء الفزارى في مَحْمِلة الفزارى .

غلام رماه الله بالخير يافعا له سيمياء لا تشقّ على البصر^(١)
كان الثريا عاقت في جبينه وفي خده الشعرى وفي وجهه القمر
وقول البحترى :

ولما حضرنا سدة الإذن أخّرت رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من فورى إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
وكل ما اشتراطوه في ذلك ألا يُسَفّ المادح في مدحه حتى يشبهه النسيب
كقول المتنبى :

أغار من الزجاجة وهى تجرى على شفة الأمير أبى الحسين

(١) رواية المبرد في السكامل . رماه الله بالحسن ، وقد انتقده أبو رياش ، وقال لا يرويه جبالحسن إلا أعمى البصيرة ، لأن الحسن مولود . رغبة الأمل - ١ - ١٠٨ .

وقول مهيار في الصحاح أبي القاسم بن عبد الرحيم :

إذا الصحاح استقبلت غرة وجهه بدا قرنه واف وماس قضيب
أما تشبيه حالة العدم بحالة الوجود - ضد الأول - فكقول عنتره
في ناقته - وهو من التشبيه المقلوب : -

وكان رباً أو كحَيْلاً مُعْقِداً حشّ الوُقُودُ به جوانب قُمُتْ^(١)
ينباع من ذفرى غضوب جَسْرَةٍ زِيَافَةٍ مثل الفنيق المُكْدَمِ^(٢)
شبه العرق السائل من رأسها وعنقها بطلاء أو قطران ، وضع في ققم
أوقدت عليه النار حتى غلى ومال .
وعرق الإبل أسود ؛ لذلك شبهه بالطلاء والقطران ، وشبه رأسها
بالققم في الصلابة .

٩ - أن يكون من المحسوسات الناصعة حتى كأنه يرى أو يسمع أو يشم
أو يذاق ، وقد يملؤه الشاعر قوة وخصباً فيخيل إلينا أن الحياة تدب فيه
وأن له سعياً وحركة ، ولا ريب أن بعض الصور البيانية يبلغ من روعتها
وعظم حيويتها وصدق أدائها وقرقة مائها وصفاء قوالبها وشدّة إشعاعها ،
أنها تصل إلى هذه المنزلة الرفيعة .

فن التشبيهات البصرية التي تنوب عن التصوير قول بعض الشعراء :

قوس ظهرى المشيب والضعف والدمر يا صاح كله عـبر
كأننى والعصا تدبّ معى قوس لها - وهى فى يدى - وتر
وقول آخر :

وما الحب إلا شعلة قدّحت بها عيون المها باللحظ بين الجوائح

(١) الرب : الطلاء ، والكحيل : القطران ، والمعد : الغلى حتى يختر .

(٢) الذفرى : ما خلف الأذن ، والجسرة : الموثقة الخلق والزيافة المتبخرة ، والفنيق الفحل
المكرم ، والمكدم : المضوض .

وقول صاعد الأندلسي في وردة لم تتفتح ؛ حملت إلى المنصور أبي عامر
الأندلسي :

ودونك يا سيدي وردة يذكرك المسك أنفاسها
كـذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها
وفي رواية : أتتك أبا عامر .

وقول الصنوبري في وصف بحرة :

بحرة طاف بها الغلمان أبدع في صنعها الزمان
كأنها فيما حكى العيان فوارة وماؤها دخان
في بركة حصباؤها نيران إذا تبدت حزن الريحان
وسرت الجيوب والأردان

وقوله :

أرأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظهن بين المجلس
در تشقّق عن يواقيت على قضب الزبرجد فوق بسط السندس
وقول أبي عبيدة :

فباطيب ذاك القصر قصرأ ومنزلا بأفيح سهل غير وعر ولا ضنك
بغرس كأبكار الجوارى وتربة كأن ثراها ماء ورد على مسك
كان قصور القوم ينظرون نحوه إلى ملك موف على منبر الملك
وقول الناشئ :

قضب الزبرجد قد حملن شقائقها أنمارهن قراضة العيقان
وكان قطر الظلّ في أهدابه دمع مرته فواتر الأجفان^(١)
وقول المتنبي في المغيث العجلى :

أقامت في الرقاب له أياد هي الأطواق والناس الحمام

(١) مرته : عصرته .

شبه نعمه في رقاب الناس بالاطواق في رقاب الحمام ، ووجه الشبه
الملازمة .

وطوق الحمامة يضرب بها المثل لما يلزم ولا يبرح ويقم ويستديم .
وقوله في مدح سيف الدولة :
صدمتهم بخميس أنت غرته وسمهرته في وجهه غمم
شبه الجيش بالفرس ، وسيف الدولة في مقدمته بالغرة في وجهه ،
والرماح المشرعة في أيديهم بالغمم ، وهو كثرة شعر الناصية .
وقوله في الكأس :

كأن بياضها والراح فيها بياض مُحْدَق بسواد عين
وقوله :

كأن بنات نعش في دُجَاهَا خرائد سافرات في حِداد
ومن البدائع وصف قدح لابن الرومي أهدها إلى يحيى بن المنجم :
وبديع من البدائع يسبي كل عقل وَيَطْبِي^(١) كل طرف
دقّ في الحسن والملاحة حتى ما يوفّيه واصف حق وصف
كفهم الحب في الملاحة أو أشفى^(٢) م وإن كان لا يُنَاغِي بحرف
تنفذ العين منه حتى تراها أخطائه من رقة المُسْتَشْفِ
كهواء بلا هباء مشوب بضياء أَرْقِقْ بذاك وأصنف
وسط القدر لم يكبر الجرْع متوال ولم يصغّر لرشف
لا عجول على العقول جهول بل حلیم عنن في غير ضعف

(١) يطى : يدعو ويستميل .

(٢) أشفى : أصغر وأضيق ، وهذه رواية القالي في أماليه - ١ - ٢٨٣ وفي الديوان
بل أحلى .

ما رأى الناظرون قدًا وشكلا فارمًا مثله على بطن كف
فيه لوز مُعَقَرِب عَظْمَتَه حكام الغيوب أحسن عطف
مثل عطف الأصداغ في وجنات من غزال يُزْهِى بحسن وظرف
ومن التشبيهات المسموعة (١) قول يزيد بن عوف العلمي - يذكر
صوت جرع رجل قُرى اللبن :-

فعب دخالا جرعه متواتر كوقع السحاب بالطراف الممدد
فهذا المشبه إنما يشبه صوت جرع اللبن على عصب المرىء من حلق
الإنسان ، بصوت المطر على الخباء المصنوع من الآدم .
ومن جودته أن الأصوات تختلف ، وأن اختلافها إنما هو بحسب
الأجسام التي يحدث الأصوات اصطكاكها .

وليس يُدفع أن اللبن وعصب المرىء اللذين أحدث اصطكاكهما
صوت الجرع ، قريبا الشبه من الأديم الموتن والماء اللذين حدث عن
اصطكاكهما صوت المطر ؛ لأن المرىء من جنس الآدم ، واللبن من جنس
الماء فهما متشابهان .
والغرض من هذا التشبيه المبالغة .

وكذا قول الأشجعي في تشبيه حلب عنز بصوت الكير إذا نفخ :
كان أجيج الكير إرزام شخبها إذا امتاحها في محلب الحى ماتح (٢)
وقول بعضهم :

تسمع للباه كهوت المسجل بين ورديها وبين الجحفل (٣)

(١) نقد الشعر - ٦٥ - ٦٦ .

(٢) الأجيح والإرزام : الصوت ؛ والشخب : ما خرج من الضرع من اللبن والماتح
المستدر اللبن .

(٣) السجل : حمار الوحش له حشيرة يشبهون بها كثيرا ، والمسجل أيضا : المبرد ،
الجحفل : جمع جفلة بمنزلة الشفة للخيول والبغال والحمير .

وقول أبي الفضل الميداني :

شَفَّةٌ لَمَّا زَادَ فِي الْمَيِّ فِي رَشْفِ رِيْقَتِهَا شَفَاءَ سَقَامِي
قَدْ ضَمَمْنَا جَنْحَ الدَّجَى وَلِثْمَنَا صَوْتَ كَقَطْعِكَ أَرْوْصَ الْأَقْلَامِ

وقول ابن مقبل :

وَلِلْفَوَادِ وَجِيبٌ تَحْتَ أَهْرِهِ لِدَمِ الْغَلَامِ وَرَاءَ الْغَيْبِ بِالْحَجَرِ
شَبَّهَ خَفَقَانَ الْقَلْبِ الَّذِي لَا يَرَى تَحْتَ الْأَهْرِ — وَهُوَ الْعَرَقُ الْمُتَصَلِّ
بِهِ — بِصَوْتِ الْحَجَرِ الَّذِي يَرْمِي بِهِ الصَّبِي مِنْ خَلْفِ حِجَابٍ وَلَا يَرَاهُ .

وخص الغلام لأن الصبيان كثيراً ما يلعبون بالحجارة .

وقول المتنبي :

وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاتًا وَقِيَمَةً فَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَاكَةُ الْبَيْكِرُ
وَتَرَكَّكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوَلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَمَلُهُ الْعَشِيرُ

شَبَّهَهُ ، دَوِيَّ الذِّكْرِ بِالدَّوِيِّ الَّذِي يَسْمَعُهُ الْمَرْءُ حِينَمَا يَسُدُّ أُذُنَهُ بِأَنَامِلِهِ .

وقول شوقي :

حَلَوُ التَّسْلِسِ مَوْجَهُ وَخَرِيرُهُ كَأَنَامِلِ مَرَّتْ عَلَى أَوْتَارِ

وَمِنْ التَّشْبِيهَاتِ ذَوَاتُ الْحَرَكَةِ قَوْلُ بَعْضِ الْأَعْرَابِ :

حَنَقْنِي حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَاتِلٌ يَدْنُو لِصَيْدِ
قَرِيبِ الْخَطْوِ يَحْسَبُ مِنْ رَأْنِي وَلَسْتُ مَقِيدًا أَمْشِي بِقَيْدِ

وقول المجنون^(١) — وَهُوَ أَحَدُ الْمُحْسِنِينَ فِي هَذَا الْمَعْنَى — :

كَأَنَّ الْقَلْبَ قَيْلَ غَدَاةٍ يَغْدِي بِلَيْلِي الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ

(١) نسبته المسكري في ديوان المعاني إلى قيس لبي ، وفي بعض الروايات : أَنَّهُ لَنْصِيبِ .

قطاة عزّها (١) شَرَك فباتت
وقوله :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
وقول قيس لبنى :

أتبكي على لبنى وأنت تركتها
فإن تكن الدنيا بلى تَقْلَبْتِ
كأنى فى أرجوحة بين أحبيل
وقول بعض الأعراب :

الا بأبى من ليس والله نافعى
ومن كبدي تهفو إذا ذكر اسمه
وقول ابن ميادة :

أنا فؤادى فى يد ضبثت (٢) به
وقول بشار :

بروّه السرار (٣) بكل شىء
كان فؤاده كره تنزى
وقول العباس بن الأحنف :

أعيزك أن تشقى بقتلى فإننى
إذا القلب أوما أن يطير صباة
كان جناحيه إذا هاج شوقه

(١) عزّها : غلبها . (٢) الملا : الصحراء .

(٣) ضبث به : قبض عليه بكفة . (٤) السرار : النجدة خفية .

وقول أبي نواس :

كانها حين تمشي في وصائفها تخطو على البيض أو خضر القوارير
وقول مسلم بن الوليد :

كان قلبي وشاحها إذا خطرت وقلبيها فلبها في الصمت والخرس^(١)
وقول المتنبي :

يخدن^(٢) بنا في جوزه وكأننا على كرة أو أرضه معنا مسفر
وقوله :

كأنما قدما إذا انتقلت سكران من خمر طرفها ثمل
وقوله :

وكان برقاً في متون غمامة هندیته في كفه مسلولاً
وقوله يهجو ابن كعب بن لؤي :

ما زلت أعرفه قرداً بلا ذنب خلوا من البأس مملوءاً من النزق
كريشة في مهبّ الريح ساقطة لا تستقر على شيء من القلق
وقول السري الرفاء يصف دولاباً :

الماء يلعب كالأراقم موجه والسفن بالأذناب فيه عقارب
والصوت من دولاب كل متوجّج أطفال زنج للرضاع نوادب
فانظر إليه كأنه وكأنما كيزانه والماء منها ساكب
فلك يدور بأنجم جعلت له كالعقد فهي شوارق وغوارب

وقوله - يمدح الأمير الحسين الحمداني ويصف جيشه - :

إذا ماج الحديد ضحا عليه حسبت البر بجرأ ذا أطراد

(١) القلب بالضم: السوار. (٢) يخدن: يسرعن، والجوز: الوسط، والضمير للفرس :

وقول شاعر :

كأنما الليل راكب فرسا منزهما والسماح في طلبه
وقول آخر :

لدى أقحوانات يُطفن بناصر من الورد محمر الثياب نصيد
إذا الريح هزته توهمت أنها تغور هوت قصداً لبعض خدود
١ - أن يظهر فيه أن المشبه به محتاج إلى المشبه كقول المتنبي في الخصبي :

لم نفتقد بك من مزن سوى لشق ولا من البحر غير الريح والسفن
ولا من الليث إلا قبح منظره ومن سواه سوى ما ليس بالحسن
وقوله في مدح أبي سهل الأنطاكي :

يا صائد الجحفل المروء جانبه إن الليوث تصيد الناس أحيانا
وقول آخر .

حبّيته بشقائق في مجلس ورأى الرقيب فشقّ ذاك عليه
فار من خجل فأنبت خده أضعاف ما حامت يديّ إليه
وقول آخر :

مليح يفار الغصن عند اهتزازه ويخجل بدر التم عند شروقه
ففيه معنى ناقص غير خصره وما فيه شيء بارد غير ريقه
وقول آخر :

ولما رأيت البحر في الجودية ومن جوده الدر الثمين المقلّد
تساءلت من في الناس عليك الندى فقال أمير المؤمنين محمد

١١ - أن يختار له الألفاظ المعبرة المترققة بمعانيها الحية النابضة ،
والتي تتموج منها الأشعة وتوهج على لحظ العيون ، وتحف بها ظلال
ذات قيم شعورية ، تشير إلى معان أخرى ترفّ على المعاني الأصلية رفيف
الهالة على صفحة القمر .

وإنك لتلص هذا في قول المتنبي :

كان الفجر حبًّا مُستزار
يراعى من دُجنته رقبيا
كان نجومه حلى عليه
وقد حذيت قوائمه الجيوباً^(١)
كان دجاء يجذبها سهادى
فليس تغيب إلا أن يغيبا
أقارب فيه أجفاني كأنى
أعدت بها على الدهر الذنوبا

وقوله يصف بحيرة طبرية :

لولاك لم أترك البحيرة والغو
رُ دفى وماؤها شيم
والموج مثل الفحول مزبدة
تهدر فيها وما لها قَـطَم^(٢)
والطير فوق الحجاب تحسبها
فرسان بلق نخونها للجم
كانها والرياح تضربها
جيشا وغى هازم ومنهزم
كانها فى نهارها قمر
فهمى كإوىة^(٣) مطوقة
جرء عنها غشاؤها الأدم
حفّ به من جنانها ظلم

وقول ابن خفاجة :

وليل تعاطينا المدام وبيننا
حديث كما هبّ النسيم على الورد
فعاوده والكأس يعبق نفحها
وأطيب منها ما نعيم وما نبدى
ونقل^(٤) أقاح الثغر أوسوسن الشطلى
ونرجسة الأجفان أو وردة الخد

إلى أن سرت فى جسمه الكأس والسكرى

ومال بعطفه فمال على عضدى
فأقبلت أمتهدى لما بين أضلعي
من الحرّ ما بين الثنايا من البرد
وعاينته قد سُـلّ من وشى برده
فعاينت منه السيف سُـلّ من الغمد
ليان بحسن واستقامة قامه
وهزة أعطاف ورواق إفرد

(١) الجيوب بالفتح : الأرض . (٢) القطم : هياج الفحل .

(٣) الماوية : المرأة ، والأدم : الجلد .

(٤) النقل بالفتح والضم ما ينقل به على الشراب ، والطلّى : جمع طلية بالضم وهى العنق ،

شبهها بالسوسن فى بياضها .

أعاق منه الغصن في مغرس القنا وألثم وجه الشمس في مطلع السعد
فإن لم يكنها أو تكنته فإنه أخوها كما قد الشراك من الجلد
تسافر كلتا راحتي جسمه فطوراً إلى خصر وطوراً إلى نهد
فتهدط من كشحيه كفي زهامة وتصعد من نهديه أخرى إلى نجد

فهذه القطع وكثير غيرها تطالعك بصور مبهجة ، توثق بصرك . ونغم
شجي يطرب سمعك ، وعبير شذى يחדّر أعصابك ويهدد شجونك ،
ويحملك إلى أفق موشى منصور الجنبات بديع الرؤى مسكر المناظر ، تهيم
فيه مع الأوهام السارة والأحلام اللذيذة !

وهكذا تظهر قيمة الألفاظ المختارة بعناية في إبراز المعاني جياشة
بالحركة عميقة المغزى مليئة بالقوة ، كأنما تهتم أن تفيض من معارضها فيضاً
وتنسكب في أذنك .

فالصورة الكلامية التي يستخدمها الشعراء إن أجيد استخدامها كانت
أداة مفيدة في أيديهم ، فبفضلها تشخص المعاني المجردة ، وتصب في قوالب
مرئية محسوسة ، وبذلك تكتسب قوة ونصوعاً .

وما هذا التشخيص إلا واحد من مئات من طرائق التعبير وأساليبه
عند الشعراء يريدون بها ألا يقتصروا في أداء المعنى على مجرد سرده وبسطه .
بطريقة مستقيمة مباشرة ، لأنهم إن فعلوا كانوا يخاطبون العقل ومهمتهم
أن يثيروا بالفاظهم المختارة وصورهم الجيدة كل ما يمكنهم أن يثيروه
في أنفس القراء من مشاعر وذكريات .

ومن أهم هذه الطرائق التي يصطفها الشعراء في أداء المعاني : التشبيه
والاستعارة ؛ وذلك لأن الشاعر يرى بين الأشياء التي تبدو منفصلة لاعتلاقة
لأحدهما بالآخرى روابط وصلات ، فإذا ما ربط بعضها ببعض كانت له
استعارة أو تشبيهاً (١) .

١٢ - أن يعقد صلة بين الأشياء المتباعدة التي لا يقع في الظنون أن
تشابه وتماثل كالذي أنشده الشَّعْبِي :
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فانت وعَيْر في الفلاة سواء
وجعل له بعضهم عجزاً آخر فقال :

فكن حجراً من يابس الصخر جليماً
فإن الإنسان بأدىء ذي بدء لا يرى معنى لمساواة الخلق من العشق
بالحجر الوحشي أو الحجر الجليد !

ولكنَّ أرباب الغرام الذين ابتلوا به ، وفلاسفة الحب الذين درسوا
علله وأسبابه ، يرون أنه لا يصدر عن غليظ الطبع ، أغلف القلب ، كثيف
الذوق ، مطموس البصر والبصيرة ، محجوب العقل عن رؤية الجمال
واستجلاء أسرارهِ وتذوق بدائعه ، وأن العشاق في العادة موسومون بخفة
الروح ، وعذوبة النفس ، وسلامة الحاشية ، ورقة الشمائل ، ولطف الشيم ،
والارتياح المعروف ، والرحمة بالبائسين ، والعطف على المعذبين ، والنفور
من القسوة والبخل والعدوان وعبادة الماديات ، إلى غير ذلك من القيم
الإنسانية العليا التي ترفع البشر إلى درجة الملائكة المقربين !

وإلى بعض ذلك أشار مجنون ليلى في قوله :

ويرتاح للمعروف في طلب العلا لتُحمد يوماً عند ليلى شمائله
وقال البهاء زهير :

وأنى لأهوى كل من قبل عاشق ويزداد في عيني جلالاً ويشرف
يعظم من يهوى ويطلب قربه فتكثر آداب له وتظرف

ومن هنا صحَّ لهم أن يجعلوا المجرّد من الصبابة عدلاً للحجار والحجر ؛
لأنه في نظرهم حرم الشعور النليل ، والعاطفة السامية ، والقلب الكبير الخفاق
بأجل الأحاسيس وأرقها وأرفعها !

لذلك لا نعجب إذا سمعنا قول العباس بن الأحنف :
وما الناس إلا العاشقون ذور الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق
وقول أبي طالب الرقي :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى ، وفؤاد من لم يعشق
وقول بعضهم :

وما سرني أني خلّي من الهوى ولو أن لي ما بين شرق إلى غرب
وقد تكون هذه الدعاوى جامحة ، ولكنها مسلبة عند أصحابها على الأقل .
على أن الأبحاث الحديثة تسند دعواهم ؛ فقد قام بعض أساتذة جامعة
شيكاجو بأبحاث نفسية لدراسة الحب في حياة الإنسان ، وقد أجمع هؤلاء
الأساتذة على أن الحب هو ترمومتر الحياة ، فحيث يوجد الحب ، يوجد
الإحساس بالجمال ، وحيث يوجد الإحساس بالجمال يوجد النظام ، وحيث
يوجد النظام ، يوجد الحرص على الحياة .

ومعنى ذلك : أن الحياة الحب ، والحب الحياة كما قيل !
وأن من حرم نعمته كان قيناً أن يلحق بعالم العجاوات ، بل بعالم الجمادات .
وكذا قول الآخر :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

فإن النظرة العجلى العابرة لا تسوّي بين الفقير المعدم القنوع ، المحروم
من مباهج العيش ، ومتع الحياة وزينة الدنيا ، وبين ذى الجاه العريض والنفوذ
المبسوط والثراء الواسع ، ولكن إذا روينا في الأمر وأصغينا لصوت
العقل وحكمنا التجارب ، وقسنا الأشياء بمقاييس المنطق السليم والحكمة
البليغة ، بان لنا أن السعادة الحق ليست في تسنّم المناصب ، وزخرف الحكم ،
وبريق الأموال ، وسعة الضياع وأبهة القصور ، وكثرة الأثاث والرياش ،

(١) تزيين الأسواق - ١٠ . (٢) أخبار اليوم ١٩ / ٤ / ٥٢ . (٣)

وتناول الأطلعمة الفاخرة والأشربة المشعشة ، واسكنها في هدوء النفس ،
وسكينة القلب ، واطمئنان البال وراحة الضمير ، والقناعة في غير ذل
ولا ضراعة بما قسمه الله ، وابتغاء مرضاته بالعمل الصالح المرجو ثوابه
في حياة أخرى سرمدية البقاء !

وهذه الدرجة العليا من السعادة الخالية من حرقة الهم ، ولوعة الحزن
وجوى الحسد ، وشقاء التكاليف والتهالك على الخطام الزائل ، قد تجدها عند
سكان الأكواخ ولايسى الجلايب الزرق الذين يعيشون على الكفاف ،
وتفتقدها بين أرباب القصور الشم ، والحلل الحريرية ، والسيارات الغالية
والأرصدة المدخرة ، لأنهم فقدوا كنزاً أنفُس من كل ما حوته أيديهم من
ذخائر وأعلاق ، هو كنز الرضاء والقناعة ، حتى لو كان لأحدهم جبل من
ذهب لتتسبب آخر من فضة ، فهم في شقاء دائم وكبد مقيم !

وما أجمل قول الشاعر^(١) :

إذا عوفي المرء في جسمه وخوله الله قلباً قنوعاً
وألقي المطامع عن نفسه فذاك الغنى وإن مات جوعاً

ولقد صدق من قال : ما أكثر لذات الحياة ! في كل شيء وفي كل عمل
لذة ! بل إن النضال للبقاء فيض من اللذة ، والمغامرة المثيرة لا يعرّفها
الخاملون من الأغنياء ، وهم الذين يقعون بسرعة فريسة الملال والسأم^(٢)
وكقول المعري في قصيدته الخالدة :

وشبيه صوت النعي إذا قيس م بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكموا الحمامة أم غننت م على فرع غصنها المياد
فهو هنا يسوّى بين صوت البشارة الشجي المطرب ، وصوت النعي
القابض المحزن !

(١) نسب في المواهب الفتحية — ٢ — ١٩٩ إلى علي — كرم الله وجهه — .

(٢) فلسفة السعادة للدكتور محمد فتحي — ٦٧ .

وهذا أمر عجيب في الظاهر حتى لتبدو استحالة التسليم به ، ولكننا حينما
ننعم النظر في عواقب الأمور وخوائيمها ؛ فنرى الدنيا على حقيقتها دار
فناء وقرارة شقاء ، ومنزل ضنك وبؤس . وأن الحياة تنتهى فيها بالموت
الحتم ، والفناء الذى لا معدى عنه ، وأن كل فرح مصيره الترح ، وكل هناء
غايته الشقاء ، وكل لذة إلى ألم ، وكل شباب إلى هرم ، وكل صحة إلى سقم ،
وأن هذا المولود الذى تطلعت له الوجوه ، وابتسمت له الثغور ، ودقت
لمقدمه البشائر ، سيشتيع يوماً بالعويل والنحيب ولطم الخدود وشق الجيوب
إلى قبر أغبر ، جلسه فيه الوحدة ، وأنيسه الوحشة ، حكمتنا مطمئنين : أن الدنيا
ظل زائل وسناد مائل ، ولون حائل ، وسراب خداع غرّار ، وأن صحة
البشير ونعقة الناعى ، وزمر الزامر ، ورنه الشكلى ، ودق الطبول ، ولدم
الخدود ، تستوى عند ذى اللب اللبيب ، والرأى الأريب ، والنظر الثاقب
البعيد ، وأن المعرى صادق كل الصديق فى هذه الدوحة الفلسفية الدقيقة
العميقة !

الفصل الثاني

موقع الألفاظ حسنا وقبحا في التشبيه

قد يحى التشبيه صائبا محكما دقيقا ، ولكن الذوق لا يستسيغه لقبح لفظه أو قبح دلالاته ، فتمججه النفس وتنبو عنه الأذن ، ويشيل في ميزان البلاغة ، ولو أنه انتقى له اللفظ البارع الأنيق لجمع بين الحسنين .
فن ذلك قول امرئ القيس (١) :

وتعطو برخص غير شئمن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل
الأساريع واليساريع : دود يكون في البقل والأماكن الندية ، تشبه أنامل النساء ، كما تشبه بالغم إذا كانت مطرقة .

والإسحل : شجر تدق أغصانه في استواء فتشبه الأصابع .
شبه الشاعر أنامل محبوبته في لينها ونعومتها بدود هذا المكان المسمى ظبيا .

وشبهها في دقتها واستوائها بمساويك هذا الشجر المسمى بالإسحل .
وتبعه في بعض هذا التشبيه ذو الرمة بقوله :

خرا عيب أمثال كأن بناتها بنات النقا تخفي مراراً وتظمر (٢)
وبنات النقا : هي الأساريع .

وقال الجاحظ : هي شحمة الأرض وشحمة الرمل ، بيضاء حسنة تشبه بها كف المرأة .

(١) المعلقات السبع للزوزني — ٢٣ .

(٢) الخرا عيب : جم خرعوبة بالضم وهي الشابة الحسنه الخلق ، أو البيضاء الاحميمة .
الجسيمة اللينة الرقيقة .

وقال أبو سليمان الغنوي : هي أعرض من العظاة ، بيضاء منقطة بحمرة
وصفرة أحسن دواب الأرض (١) .

وقال القالي : يقال للدودة تنسلخ فتصير فراشة : يسروع وأسروع .
ويقال : هي الدودة التي تكون في البقل ، ويقال : هي بنات النقا ، وبنات
النقا : دود أبيض يكون في الرمل تشبه الأصابع ، ثم ساق بيت ذى الرمة :
خرايب أمثال (٢) ...

وسواء أكانت الأساريع هي بنات النقا أم غيرها ، وبالرغم من اتفاقهم
على حسن شكلها وقرب شبهها بالأصابع ، فهي لا تخرج عن كونها ضرباً
من الديدان تستقذرها النفوس بمحض الفطرة مهما أسهب اللغويون في
نعتها بسمات الجمال !

وفي ذلك يقول ابن رشيق : والأساريع أحسن من البنان ليناً وبياضاً
وطولاً واستواء ودقة وحرارة رأس ، كأنه ظفر قد أصابته الحناء ، وربما
كان رأسها أسود ، إلا أن نفس الحضري المولد إذ سمعت قول أبي نواس
في صفة السكاس :

تعاطيكها كفّ كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مدارى (٣)
أو قول ابن الرومي :

سقى الله قصرأ بالرّصافة شاقني بأعلاه قصرى الدلال رُصافي
أشار بقُضبان من الدرّ قُفّعت يواقيت حمراً فاستباح عفافي
أو قول ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة مقومة أئمارهن عقيق

(١) الحيوان ٦ — ١١٩ .

(٢) الأمل ٢ — ١٦٣ .

(٣) المدارى : الأمشاط جمع مدرى بالكسر .

كان ذلك أحب إليه من تشبيه البنان بالدود في بيت امرئ القيس ،
وإن كان تشبيهه أشد إصابة (١) .

وقد نستطيع أن نمد العذر لامرئ القيس فإنه كان جاهلياً وإن كان
ملكاً ومن أبناء الملوك ، ولذى الرمة فقد كان يصب على قوالب البدو وإن
عاش في العصر الأموي ، ولكننا لا نستطيع أن نعتذر عن أبي تمام في قوله :
بسطت إليك أنا ملاماً أسروعا نصف الفراق ومقلة ينبوعا
وقد نشأ في الحضارة وناغى الترف والنعيم .

ولم يوقعه في هذا القبح إلا التقليد للمتقدمين دون تبصر وتميز ، ولعله
لم ير الأسارى في حياته كلها .

ومن الإنصاف أن نعترف بأن انتشار المدنية وكثرة الرفاهية في العصر
العباسي بشطريه ، أفادت على الشعراء معاني جديدة مستملحة في تشبيهات
الأنامل البضة المخضبة كما رأينا في شعر أبي نواس وابن الرومي وابن المعتز
المتقدم :

وكما نرى في قول الخليفة الرضي :

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها في خدها وقد اعتان خضابا
فاخضر تحت بنانها فكأنها غرست بأرض بنفسج ع نابا
وفي رواية : (١) .

فكأنها بأنامل من فضة غرست بأرض بنفسج ع نابا
وقول الناشئ — وهو أحسن الواصفين لهذا المعنى — : (٢)
من كف جارية كأن بنانها من فضة قد طرقت ع نابا (٣)

(١) المدة — ١ — ٢٠٤ .

(١) نهاية الأرب — ٢ — ٨٩ . (٢) خزائن الأدب للحموي — ٢١٧ .

(٣) ديوان المعاني — ١ — ٢٥٤ . (٤) طرفت المرأة بنانها : خضبت .

وكان يمناها إذ نطقت بها تلقى على يدها الشمال حسابا
وقوله :

لنا قينة ترنو بناظرتين بما في قلوب الناس عالميتين
تخال تطاريف الخضاب بكفها فصوص عقيق فوق قضب لجين
وقوله :

متعانقين مكاتمين هواهما قد قام بينهما العتاب فطابا
يتناقلان اللفظ من جفניהما فكأنما يتدارسان كتابا
وإذا هدت عين الرقيب تخالست كفاهما خلس السلام سلابا
بأنامل منه يلوح مدادها وأنامل منها كسين خضابا
فكأنما يحفى لها من كفها عنبا وتجنيه له عنابا
وقول كشاجم :

فأنسها لا أنس منها إشارة بسبابة اليمنى إلى خاتم الفم
وأعلنت بالشكوى إليها فأومأت حذار من الواشين ألا تكلم
فلم أر شكلا واقعا فوق شكله كعنابة توى بها فوق عندهم
وقول الشريف الرضى :

والمستثنى وقد جدّ الوداع بنا كفأ تشير بقضبان من العنم
وقول ابن المعتز :

أثمرت أغصان راحتها لجنة الحسن عنابا
وفي التطاريف السود يقول بعض الأندلسيين :

خضبت أناملها السواد وقلبا أبصرت أقلاما بغير سواد
ويقول ابن المعتز :

وكف كان الشمس مدت بنانها إلى الليل تجلوه فقمعها الليل

ويقول بعضهم :

وحوراء اللواظ بين قلبي وبين جفونها حرب البسوس
تري ماء النعيم يحول فيها كمثل الخمر في صافي الكشوس
كان بنائها أقلام عاج مرصعة الرموس بآبنوس
كما أنه من الإنصاف أيضاً أن نذكر : أنه ورد من الشعر القديم
في وصف الأنامل ، ما خالف نهج امرئ القيس وذى الرمة ، وسامى شعر
المحدثين في رفته وحسنه وطرافته ؛ كقول النابغة في المتجردة زوج النعمان
ابن المنذر :

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد^(١)
بخضب رخص كان بنائه غم على أغصانه لم يعقد
وقد زاد التشبيه حسناً بقوله : لم يعقد : أى إنه لم ينضج ويدرك فينبس
ويسود .

وقول الأسود بن يعفر^(٢) :

يسعى بها ذو تومتين مقرطق قنات أنامله من الفرساد^(٣)
وقد ذكر العسكري : أنه أجود ما قيل من قديم الشعر في معناه^(٤) .
ومن هذا النوع المستهجن قول بعضهم يصف روضاً .
كان شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء
فإن الشقائق شديدة الحمرة جداً ، وبينها وبين الثياب الراوية من الدماء
مشاكلة محسوسة لا تخفى .

(١) النصف : الحمار والعمامة وكل ما غطى الرأس .

(٢) يعفر كينفع ، وفي طبقات الشعراء للجمعى بضم الباء والفاء .

(٣) التومة بالضم : اللؤلؤة ، والقرط فيه حبة كبيرة ، والمقرطق : لايس القرط بالضم
وهو لباس قصير شبهيه بالقباء وأصله بالفارسية : كرتة ، العامة تقول : شايبة ، وقد أخطأ
بعض الشعراء فظن المقرطق لايس القرط ، وإنما هو مقرط ، والفرصاد بالكسر صبغي أحمر .

(٤) ديوان المعاني — ١ — ٢٥٤ .

فالتشبيه مصيب ولكن فيه بشاعة بذكر الدماء التي تعاف الأنفس
اللطيفة رؤيتها .

ولو قال من العُصفر مثلاً أو ما شاكلة، لكان أوقع في النفس وأقرب
إلى الأنس (١) .

ومثله قول القصار :

طرب الشقائق للحمام وقد شدا فوق الغصون فشقّ فضل ردايه

فكأنه الحبشيّ يبضع جسمه فتيابه مخضّلة مائه

وقول شوقي :

والجلّ نار دم على أوراقه قاني الحروف كخاتم السفاح

فذكر الدم هنا وتصور منظره يقبض الصدر ويحزن القلب ، ولا تغنى
عن ذلك شيئاً جودة التشبيه وطرافته .

وقول أبي محجّج النقي في وصف قينة :

ترفع الصوت أحياناً وتخفّفه كما يطنّ ذباب الروضة الغرد

فإن أحذق القيان لا تستطيع أن تبارى ذباب الروض في رفعه صوته
مرة وخفّفه أخرى، على هذا النسق الرتيب الذي يجري عليه طبيعة لا تكلفا .

ولكن أى قينة ولو كان صوتها مثل صوت الحمار نكراً ، ترضى أن

تشبّه بالذباب كما يقول ابن رشيق :

على أنه سرق بيت عنتره :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غرداً كفعل الشارب المترنّم

وقليه فأفسده (٢)

(١) العمدة — ١ — ٢٠٥ — خزانة الأدب للحموى — ٢٢٥ .

(٢) العمدة — ١ — ٣٠٦ .

وقول العُمانى الراجز :

ياربّ جارية حوراء ناعمة كأنها عومة فى جوف راقود^(١)

وهذا تشبيه أقل ما يوصف به أنه مقوّر يدعو سامعه إلى الغشيان !

وقد حدث حماد عن أبيه إسحاق الموصلى^(٢) : أن الأصمعى دخل إليه يوماً وعنده أخ للعمانى المتقدم ، فأراد أن يعبت بالأصمعى فقال : من هذا؟ أهو الباهلى الذى يقول؟^(٣) :

فما صفحة مأدومة . بإهالة . بأطيب من فيها ولا أقط رطب^(٤)

فقال الأصمعى — قبل أن يستقم كلامه — هو على كل حال من قول أخيك العمانى :

يارب جارية .

فالقمة حجرا !

وقول مسلم بن الوليد :

فغطت بأيديها ثمار نخورها كأيدي الأسارى أنقلتها الجوامع
والتشبيه مصيب جداً ، ولكن عيبه جاء من أيدي الأسارى المثقلة
بالأغلال ، فإنه لا يصح فى الذوق أن تشبه بها أيدي الحسان التى تستر
رمان الصدور !

وقد أخذه مسلم من قول النابغة :

يُخْطَطُن بالعيدان فى كل منزل ويخبئن رمان الشدى النواهد

(١) العومة بالضم : دويبة كالصرد ، وهو طائر يقع أبيض البطن ، والراقود : دن كبير أو طويل الأسفل يطل بالفار داخله . (٢) الموشح — ٢٩٧ .

(٣) نسب فى ديوان الحماسة إلى بعض الأعراب .

(٤) الإهالة بالسكسر الشحم أو ما أذيب منه أو كل ما يؤندم به أو الزيت ؛ والأقط .

ككتف ورجل وإبل : شئ يتخذ من الخيط الغنمى (الرايب) :

وقول الحاجرى فى وصف العذار .

وما اخضر ذاك الخال نباتا وإنما لكثرة ماشقت عليه المرائر^(١)
وقد قالوا فيه : ما زاد على أن جعل خد محبوبه مسانخاً^(٢) « سائخانة »
فالتعليل حسن ، ولكن عيبه جاء من ناحية اللفظ ، وهو شق المرائر
على الخد لما فيه من معنى التقدير !

وبعضهم لم يكتف بشق المرائر على خد الحبيب حتى سفك عليه الدماء
بقوله

وما احمر ذاك الخد واخضر فوقه عذارك إلا من دم ومرائر
ولو أنه توسخى الإحسان وقصد الإصابة وتحرسى الجودة ، اقال كما قال
أبو الحسن الحاج الأندلسى :

ومعذّر رقت محاسن وجهه فقلوبنا وجدنا عليه رقاق^(٣)
لم يكس عارضه السواد وإنما نفضت عليه صبغها الأحداق
فقد علل سواد العارض بعلّة طريفة تصور حسن المحبوب أبدع تصوير ،
وترتفع بقدره إلى غاية الغايات !

وقول بعضهم فى مدح بعض الملوك :

فإن كان أملاك الزمان أراقا فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان
وصحيح أن الثعبان أضخم من الأرقم ، وأهول منه منظراً ، ولكن
لا يسوغ فى الذوق السليم تشبيه العظماء به .
ولو أنه عدل إلى التشبيه بالحية لخلص من الملام ، لأن اسم الحية
أشرف من اسم الثعبان .

(١) شق المرائر : كناية عن الشدة والهول .

(٢) خزانه الأدب للحموى — ٢٢٥ .

(٣) المعذر بالقشديد والكسر : من ثبت عذاره .

وقد جرت عادتهم أن يصفوا بها الكبراء من الناس ، والعادات رسوم
محترمة معتبرة ، ولذلك سموا الرجل : حية ، وقالوا : هو حية الوادى :
للحامى حوزته وللنمىع الجانب ، وهم حيات الأرض : لدواهيها وفرسانها ،
وهو حية ذكر : للشهم ، ورأسه رأس حية : للذكى ، وأكلت حياتنا
حياتكم : إذا قتلت فرسانهم فرسانهم :

وقال ذو الإصبع العدوانى يذكر قومه :

عذير الأرض من عدوانى كانوا حية الأرض
وقال طرفه يصف نفسه :

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد^(١)

وقال أبو نواس يمدح الخصيب والى مصر :

وأطرق حيات البلاد حية خصيية التصميم حين تسور
وقد تساهل الخفاجى^(٢) : إذا كان التمين هو الحية ، وكانوا كثيراً
ما يشبهون الممدوح بالحية ، ويقولون : هو صلّ صفاة ، وحية واد ، وأرقم
وأسود وغير ذلك كما قال أبو الطيب :

يمد يديه فى المفاضة ضيغم وعيناه من تحت التريكة أرقم^(٣)

وقول السرى الرفاء فى مدح سيف الدولة :

تعمد نجدته عدى عدة وتخاله صيد الأراقم أرقاً
وقال آخر :

إنى على رأس العدو وتحتة لغمام قسطة وحية واد
وقال الرضى :

نبت منى يا أبا الغينداق أصم لا يسمع صوت الراقى

(١) الضرب : الرجل القليل اللحم ، والعرب تتمدح بذلك لأن السمن عنوان السكسل
والبلادة ، والخشاش بثلاث الحاء : الماضى فى الأمور .

(٢) سر الفصاحة - ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) المفاضة بضم الميم : الدرع الواسعة . والتريكة وهى البيضة من الحديد .

ذا ربيعة تهزأ بالدرياق كأنما أم من الإطراق^(١)

وقال حريث بن عتاب :

أترجو الحياة يابن بشر بن مسهر وقد علقت رجلاك في ناب أسودا

من الصم تكفي مرة من لعبه وما عاد إلا كان في العود أحدا

وأمثال هذا كثير ، فكيف يكون ذكر التين عيباً ، ولا يكون ذكر الأرقم والصل والأسود عيباً ومعنى الجميع واحد

والجواب أننا لم ننكر التين لأجل معناه فيقال لنا : إن معنى التين والحية واحد ، وإنما عيبناه من أجل مدحه ، لأن هذه اللفظة لم تستعمل في المدح وتلك الألفاظ قد استعملت فيه ، وليس يمتنع أن يكون للشيء الواحد اسمان يستعمل أحدهما في موضع ، ويستعمل الآخر في موضع آخر .

وهذا شيء إنما أصله العرف والعادة دون أصل وضع الأسماء في اللغة ، ألا ترى أن الإنسان إذا مدح ، ذكر الرأس والسكران والهامة ، وإذا هجا ذكر القفا والأخادع والقذال وإن كانت معاني الجميع متقاربة ، وليس يحسن أن يخاطب الملوك فيقال لبعضهم . وحق يافوخك أو قهـ جندونك أو أخادعك أو قذالك أو قفاك ، قياساً على أن يقال له : وحق رأسك ، لأن الاستعمال يختلف في الألفاظ وإن كان المعنى فيها غير مختلف على ما قدمناه .

على أن بعضهم كان يستقبح المدح بالحيات ، فقد ذكرنا^(٢) . أن محمد بن علي العباسي قال لكثير عزة : تزعم أنك من شيعةنا وتمدح آل مروان !

(١) أم بالبناء المجبول : شج رأسه .

(٢) الموشح — ١٤٤ .

فقال كثير : إنما أنا أسخر منهم ، وأجعلهم حيات وعقارب وأخذ
أموالهم .

يشير بذلك إلى قوله في عبد الملك :

يقلّب عيني حيلة بمحارة إذا أمكنته شدة لا يُقبلها
ويكون النكير أشد والاستهجان أكثر حينما يكون التشبيه متعلقاً
بالمطعم والمشروب ، وما يدخل في الاستمتاع عامة ، لأن مجافاة الذوق
فيه واضحة .

وذلك كقول يزيد بن معاوية في الخمر :

إذا شجّها الساق حسبت حباها عيون الدني من تحت أجنحة النمل^(١)
وقول الأخطل :

عقار كعين الديك صرفاً كأنها لعاب جراد في الفلاة يطير
وقول أبي الهندي من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية - وهو
أول من وصف الخمر من المسلمين^(٢) :

فبّنت ندماني وقلت له اصطبيح يابن الكرام من الشراب الأصهب
صفراء تبرق في الزجاج كأنها حدق الجرادة أو لسان الجنّندب
ومثله قول آخر :

صفراء من ماء الكروم كأنها ماء المفاصل أو لعاب الجنّندب^(٣)
وقول الحسين الخليلع :

ففضت خواتمها في نعت واصفها عن مثل رقرة في جفن مرهأ^(٤)

(١) الشيخ : الزوج والدي : صفار الجراد .

(٢) فوات الوفيات - ٢ - ١٥١ .

(٣) المفاصل : ما بين الجبلين .

(٤) المرهأ : التي ابيضت حاليق عينيها من ترك السكحل .

كان تأليف ما حاك المزاج لها سَلَخٌ مُحَلَّلٌ عَنْ ظَهْرِ رَقْشَاءٍ (١)
وقد علق المغفور له الدكتور زكي مبارك على هذا الوصف بقوله :
ونحن لا نستسيغ اليوم في وصف الخمر : بأنها بدت مثل رققة في جفن
مرها ، ولا يسرنا أن يكون الحبيب أَلَفٌ فوقها صورة تشبه ظهر الحية
الرقشاء (٢).

وأنا أقول : إن هذه الصورة مستقبحة في كل زمان ومكان ، فإن
الذوق العام لا يختلف في مثل هذه الأوصاف التي تنفر منها النفوس ، وتمجها
الطبائع بإصل الجبيلة .
وقول أبي نواس :

وإذا ما الماء واقعها أظهر شكلا من الغزل
لؤلؤات ينحدرن بها كأنحدار الذر من جبل (٣)
وقول كشاجم :

عذبت الرشف منها شفة مصها أطيّب من نيل الأمل
وعليها حمرة في لعس تستعير اللون من صبغ الخجل
هي فيما خلت آثار دم من فؤادي علّ فيه ونيل
وتشبيه حمرة الشفة بآثار الدم ليس وراءه مزيد في القبح ، وبخاصة إذا
قرن بذكر الرشف والمص ! ولا يشفع له أنه من دم القلب .
وقول ابن هون السكاتب :

تلاعها كف المزاج حبة لها وليجري ذات بينهما الأانس

(١) السَلَخ : الجلد المسلوخ . والرقشاء : الحية .

(٢) الموازنة بين الشعراء — ٢٨٢ .

(٣) الذر : صغار التمل .

فَتُزِيدُ مِنْ تِيهِ عَلَيْهِ كَأَنَّهَا عَزِيزَةٌ خَدِرٌ قَدْ تَخَبَّطَهَا الْمَسْ
فِي شَاعَةِ هَذَا التَّشْبِيهِ — كَمَا يَقُولُ الْحَمُودُ — تَمَجُّمُ الْأَذْوَاقِ الصَّحِيحَةِ
وَتَنْفَرُ مِنْهَا الطَّبَاعُ السَّلِيمَةُ ؛ فَإِنْ أَهْلُ الذَّوْقِ لَا يَطِيبُ لَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا شَيْئاً
يُشَبِّهُ زَبْدَ الْمَصْرُوعِ !

وَقَوْلُ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ بَابَك :

وَأَعْيِدْ مَعْسُولَ الشَّنَائِلِ زَارِفِي عَلَى فَرْقٍ وَالنَّجْمِ حَيْرَانَ طَالِعِ
فَنَازِعَتِهِ الصَّبَاءِ وَاللَّيْلِ دَامِسِ رَقِيقِ حَوَاشِي الْبَرْدِ وَالنَّسْرِ وَاقِعِ^(١)
عُقَارِ عَلَيْهَا مِنْ دَمِ الصَّبِّ نَقْطَةً وَمِنْ عِبَرَاتِ الْمُسْتَهَامِ فَوَاقِعِ
وَقَوْلُ بَعْضِ الْمُؤَلِّدِينَ :

هَاتِ مَدَامَا كَانَ فِيهَا تَصَبُّبٌ أَحْدَاقَهَا الدِّيُوكُ
وَمَنْ الذِّي يُلْذَلُهُ أَنْ يَتَحَسَّسَ عَصِيرَ أَحْدَاقِ الدِّيُوكِ ! وَأَيُّ خِيَالٍ سَمِحِ
لِهَذَا الشَّاعِرِ بِهَذَا التَّشْبِيهِ الْبَاعِثِ عَلَى الْإِسْتِمْنَازِ .

وَأَيْنَ غَابَ عَنْهُ قَوْلُ الْمُوصَلِيِّ فِي هَذَا الْمَقَامِ :

وَكَأْسُ مَدَامٍ يَخْلِفُ الدِّيَكُ أَنَّهَا لَيْدِي الْمَزْجِ مِنْ عَيْنِيهِ أَصْفَى وَأَنُورِ
شَبَّهَهَا بِعَيْنِ الدِّيَكِ لِأَنَّهَا يَضْرِبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي الصَّفَاءِ ، وَيُشَبِّهُ بِهَا
الشَّرَابَ الصَّافِي .

وَيَقُولُ الْمُوصَلِيُّ : سَمِعْتَنِي أَعْرَابِيَّةً وَأَنَا أَنْشُدُ الْبَيْتَ الْمَتَقَدِّمَ ، فَقَالَتْ :
يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، بَلَغَنِي أَنَّ الدِّيَكُ مِنْ صَالِحِي طَيُورِكُمْ وَمَا كَانَ لِي خَلْفٌ كَاذِباً^(٢) !
وَجَمَالَ التَّشْبِيهِ هُنَا أَنَّ الْمُوصَلِيَّ جَعَلَ الْخَمْرَ كَعَيْنِ الدِّيَكِ فِي الصَّفَاءِ

(١) الْفَسْرُ : كَوَكْبَانٍ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا : الرَّاقِعُ وَالْآخَرُ : الطَّائِرُ .

(٢) ثَمَارُ الْقُلُوبِ — ٣٧٤ .

والنقاء والبريق ، ولم يجعلها نفس عين الديك التي هي مزيج من لحم ودم كما جعلها الأول ، والفرق شاسع بين المذهبين .

ولعل أقبح من كل ما تقدم قول السرى الرفاء :

يسيل فم الرّيق الرويّ كأنه جراحة زنجيّ يسيل نجيعها
وقوله :

اشرب فقد شرد ضو . الصبح عنا الظلما

وصوب الأبريق في الكأس مداما عندما

كانها إذ بجتها مقهقها يبيك دما

ولا يقل عنه شناعة قول البارودي :

ألا عاطئها بنت كرم تزوجت على نغمات العود بابن سماء

إذا انتقدت في الكأس خلت وميضها

على وترات الكف نضح دماء

فإنه بقدر ما أحسن في بيته الأول المرقص ، أساء في بيته الثاني بذكر

نضح الدماء ، وقد جاءه ذلك من التقليد لمن سبقوه بلا تبصر .

وقد يقال ولكنهم يستحسنون قول الأعشى :

وسبيته مما تعشق بابل كدم الذييح ملبتها جريالها

فما الفرق بين دم الذييح ، ونجيس الزنجي السائل من جراحته ؟

والجواب : أن الفرق واضح بين دم الذييح المذكور ، الطيب اللحم ،

الحلال الأكل ، وبين دم ينشعب من جرح آدمي حي ، على أثر طعنة جافقة

أو حادثة تكتنفها الأوجاع والآلام !

وصفوة القول : أن هذه التشبيهات المتقدمة في وصف الخمر ؛ تملأ

النفوس انقباضاً منها ورغبة عنها !

ومن الغريب أن أكثرها وقع من شعراء عرفوا بالإبداع في وصفها ،
وسار لهم في ذلك ذكر تناقله الناس ، ولو لا أنهم شهروا بحبها والاستهتار
بها لقلنا : إنهم يدعون إلى التنفير منها ، إذ لا يتأتى لناسك متعبد أن يقول
في تقييدها أكثر مما قالوا !

والعادة المتبعة فيما نحن بسبيله ، أن يتعاشى الشعراء الألفاظ المثيرة
لانقباض الصدر واشتمزاز النفس ، ويتخير ما تطرب له الأذن ، وينشرح له
الصدر ، ويهش له القلب ، لأنه إنما يتكلم عن شيء يخالط الجوف ويتمزج
بالبدن كقول السرى الرفاء :

وصفراء من ماء الكروم شربتها على وجه صفراء الغلائل غضة
تبدت وفضل الكأس يلمع ساطعاً كأنرجة زينت بإكليل فضة
وقول العسكري :

وكأس تمتطي أطراف كف كأن بنانها من أرجوان
أنازعها على العيلات شرباً لمن مضاحك من أقحوان
يلوح على مفارقها حجاب كأنصاف الفرائد والجمان
ومن قبيح ما جاء في المطعوم قول الحكيم الخضرى - يصف
غليان القدر بما فيها من قطع اللحم - :

كأن جذول الثاب فيها إذا غلت دعاميص تخشى صائداً فتعوم^(١)
يصف قطع اللحم إذا دوّمت بها القدر في حال غليانها بصغار الضفادع
التي تسبح على أديم الماء خوف اصطياها .

ولا مريّة أن هذا التشبيه يُغنى النفس ، ويوحش الصدر ، لأن منظر

(١) الجذول : أصول الشيء جمع جذل بالكسر ، وانتاب : الناقة المسنة ، والدعاميص :
ديدان سوداء تكون في القدران إذا نشئت .

الدعائم مستنكر قبيح ؛ ومن الغريب أن قدامة يصفه بالجودة^(١) .

وقول العسكري في الفالوذ :

حمراء في بيضاء فضية وظرف كافور وحشو الخلق^(٢)

يطوف الدهن بأرجائه إطفاء الدمع بجفن المشوق

وتشبيه الدهن في الفالوذ بالدمع المطيف بجفن المشوق ، بشع مستكره

غير مستساغ ، وهو خليق أن تصدف به النفس عن تناوله .

هذا إلى أن المشابهة غير محكمة بين ركني التشبيه ، فالدمع لا يطوف

بجفن المشوق ، بل يترقرق فيه أو ينتثر منه .

فأين يقع هذا من قول بعض العصريين يصف ألواناً من الفطائر^(٣) :

وإن أنس فلن أنسى فطائر سمنها يجرى

كان اللوز منضوداً بها سبط من الشذر^(٤)

كان أديمها الصافي توشح صفرة الصفر^(٥)

وقوله^(٦) :

وعجل بها كأكف الملاح تأتقن في صبغها بالخصاب

ومحشوة بالزبيب الأحمر ومسقية بالشهاد المذاب

إذا جال فيها بنان الأديب تنسم منها أريج الملاب^(٧)

(١) نقد الشعر — ٧٠ .

(٢) الخلق بالفتح : الطيب .

(٣) ألحان الأصيل — ٧٢ .

(٤) الشذر : قطع الذهب .

(٥) الصفر : النحاس الأصفر .

(٦) ألحان الأصيل — ١٠٨ .

(٧) الملاب كعجاب : المطر أو الزعفران .

وإن أوغلت يده في الصميم أتته بكل عجيب عجاب
ذخائر في جوفها أودعت كما سكن الدر جوف العباب
ومن ذلك النوع المستقبح قول المأموني في أقراص السحور :

عندي للأكل إذا ما قت للتسحر
ملتوثة بسمها وسمسم لم يُقشر
مثل البذور الطالعا ت في صدر الأشهر
أو أوجه الترك إذا أتر فيها الجدرى

فقد شوه هذا الشعر الخفيف الظل ، اللطيف العذب ، بالبيت الأخير ،
ولا أدري كيف يستطيع أكل أقراص كالوجوه المجدورة ، وإن كانت
يبيض الألوان كوجوه الترك !

وقريب منه قول ابن خلاد في خبز الأرز بالملح — وإن كان أقل
هجنة — :

رغيف بملح طيب النشر خلطة خوارجه تغنيك عن أرج العطر
عليه من الشونيز آثار كاتب وجلاب وراق يُنْقَط بالخبر (١)
ومن سمسم قد زعفره كأنه قُرَاضة تبر في لجيفة غرّ
والشاهد في البيت الثاني .

وقول مهبّار في رمانة حمراء :

ما أم أولاد كثيرة العدد تُروى رَضاعا وهي بكر لم تلد
تبسم عن عذب الرضاب بارد لولا دم بهبغه قلت برّد
وقول ابن سعد الخير في وصفها :

(١) الشونيز : بضم الشين وفتحها : الحبة السوداء .

وساكنة في ظلال الغصون بروض تروك أفسانه
تضاحك أترابها فيه إذ غدا الجو تدمع أجفانه
كما فتوح الليث فاه وقد تضرّج بالدم أسنانه
وقول ابن الرومي في التوت :

ومختضبات من نجيح دماها إذا جُنبت في بُكرة الغدوات
تسكاد بأن تُطنفا إذا ما لمستها فأرحمها من سائر الثمرات (١)
وقول ابن شرف فيه - وقد أهداه - :

انظر إلى توت الجنان الذي وافى به الناطور في جام (٢)
يحكي جراحا دماها سائل لدى جسموم من بني حام
فانظر كيف جاء هذان الشاعران إلى هذه الفاكهة المشتهة ، وألقيا
عليها ظلا من تصويرهما تجعل العيون تقذى بها ، والنفوس تعزف عنها !
ولكن تأمل قول محمد بن روح - يصف الرمان السفري في أبيات
كتبها إلى بعض من أهداها إليه - :

ولابسة صدفا أحمرأ أتنك وقد مُلئت جوهرا
كانك فاتح حُوق لطيف تضمّن مرجانه الأحمرأ
حبوباً كمثل لثات الحبيب رضاها إذا شئت أو منظرا
وللسفر تعزى وما سافرت قدشكو النوى أو تُقاسى السرى
بلى فارقت أيكها ناعماً رطبياً وأغصانها نُضراً
وجاءتك معقضة إذ أتنك م بأكرم من عودها عنصرا
بعود ترى فيه ماء الندى ويورق من قبل أن يشمرا

(١) تطفأ : تشدح ، وأصله تطفأ .

(٢) الناطور : حافظ الكرم والنخل والزرع ، وهو من ألقاظ السواد وليس بمرئي خاص .

هدية من لو غدت نفسه هديته ظنه قصيرا

وقول بعض الأندلسيين في التوت — وقد أهده — :

تفاءلت بالتوت الجنى لزورة وذلك قال ما علمت صدوق^(١)

فأهديته غصنا حكي حلق المها له منظر بالحسن منه يروق

فذا سبيح لما حكي بأسوداده وذا لاسمرار اللون منه عقيق^(٢)

ومن المضحكات : أن محمد بن الجهم سأل عليا الأسواري : كم أخذ من

الدواء الذي جئت به ؟

قال : مقدار بعرة !

فجاء بلفظ قدر ولم يبين المراد ؛ لأن البعر يختلف في الكبير والصغير ،

ولا يعرف أبعرة ظني أراد أم بعرة شاة أم بعرة جمل^(٣) .

فهذه الألفاظ التي تقدمت في كل هذه التشبيهات الماضية ليست قبيحة

في ذاتها ، ولكنها قبيحت لأنها استعملت في مواضع تعد من مجال الحسن

ومواضع الجمال ، فشاهدت بها التشبيهات مع أنها من حيث إصابة الموقع

ومراعاة الجهة بالغة الشأو البعيد والمدى المستطيل .

ومن ثم راها مستحسنة سائغة ، واقعة موقعها غير نائية ولا مستكرهة

إذا استدعاها المقام ، وذلك في المواضع الآتية .

١ — إذا كان الغرض الهجاء ، فيفتن الشاعر ما شاء له الخيال في تشويه

الصورة تشويهاً محكوما بقواعد الفن ، كقول جرير :

إذا ضحكك شبت أنيابها العلا خفافس سوداً في صرارة قلب^(٤)

(١) ما : في ما علمت زائدة .

(٢) السبيح : خرز أسود .

(٣) الصنائع — ٢٤٨ .

(٤) الصرارة : البقية .

وإنما خص أنيابها العليا دون السفلى ؛ لأنها تبدو في التبسم والتسكيم
وعند التأوب .

وقول حماد عجرد في بشار :

ما صور الله شبيهاً له من كل من من خلقه صوراً
أشبهه بالخنزير وجهاً ولا بالكلب أعراقاً ولا مكسراً^(١)
ولا رأيت أحداً مثله أنجس أو أطفس أو أقذراً^(٢)
لو طليت جلده عنبراً لتنت جلدته العنبراً
أو طليت مسكاً ذكياً إذا تحول المسك عليه
وقوله أيضاً :

ما خلق الله شبيهاً له من رجنه طوراً ومن إنسه
والله ما الخنزير في تنه من ربه بالعشر أو خمسة
بل ريحه أطيب من ريحه ومسته ألين من مسه
ووجهه أحسن من وجهه ونفسه أنبل من نفسه
وعوده أكرم من عوده وجفسه أشرف من جفسه
ويقول الجاحظ في ذلك : وأنا - حفظك الله - أستظرف وصفه
الخنزير بهذا المكان ، وفي هذا الموضع حيث يقول :

وعوده أكرم من عوده . . .

أين عود الخنزير من الكرم^(٣) .

وقول ابن الرومي يهجو بخيلاً :

(١) المكسر كنزل : المخبر والأصل .

(٢) الطفس محركا : قذر الإنسان لهدم تعده نفسه .

(٣) الحيوان - ١ - ١١٣ - ١١٤ .

أبدت في أوليات أومك ما قدرت في أخرياتك الآخر
كالقَطِرَان الذي يرى أبدأ في رأسه ما اقتنى من العكس
وهذا من قول الناس : أول الدن دردى^(١) .

وقول البازري في رجل قبيح الفم :

وقد علت أسنانه صفرة تكدر العيش المرء المريع^(٢)
ولحها من ورم فاسد كالرئة المحبوس فيها نجيع
وقد أعجب الحموى بهذا الهجاء فقال فيه : لو جمع المتأمل بين المشبه
المهجو وبين المشبه به ، وشاهد التخيل الغريب عيانا ، صدق صحة
الدعوى^(٣) .

وقول ابن طباطبا في مجذور :

ذو جذري وجهه	يحكيه جلد السمكة
أو حجر الحمام كم	من وسخ قد دلكه
أو وكر زنبور إذا	فرخ فيه تركه
أو ساحة جامدة	قد نقرتها الديكة

وقول بعضهم :

إذا كنت لا علم لديك تفيدنا
ولا أنت ممن يرتجى لكرهية
وقول عبدان الخوذى في قينة :

لنا قينة تحمى من الشرب شربنا
فقد أمنوا سكرأ وخوف نهار

(١) ديوان المعاني - ١ - ٢٠٦ .

(٢) للرعي : الحبيب .

(٣) خزنة الأدب - ٢٢٦ .

تُكشّر عن أنيابها في غنائها فتحكي حماراً شم بول حمار
وقد يرد ذلك في غير الأناسي كقول ابن شرف الفيرواني في التين :
لا مرجحاً بالتين لما أتى يسحب كالليل عليه وشاح
عزق الجلباب يحكي لنا هامة زنجى عليها جراح
٢ - أن يكون القصد حكاية حال تحسن معها المبالغة كقول
الأيوردي :

نزلنا بنعمان الأراك وللندی سقيط به ابتلت علينا المطارف^(١)
وقفنا به والدمع أكثره دم كأنى من جفنى بنعمان راعف
فهذه الحال لا ينكر جريان الدمع معها دما ، فإنها حال لائقة بجريانه
على هذه الصفة ؛ لأن هذا الشاعر لما نزل بنعمان الذى هو منزل أحبابه
ووجده مقفراً منهم ، لاق بحاله أن يجرى الدم لشدة الأسف دما .
ومثله قول ابن قاضي ميلة :

ولما التقينا محرمين وسيرنا بلبنيك رباً والركائب تعسف
نظرت إليها والمطى كأنما غواربها منها معاطس رُعِف
فهذا التشبيه غاية في هذا الباب ، وجريان الماء من غوارب المطى
لائق بحكاية حالها ، فقد تضمنت لطف الكناية عن التعسف في شدة
السرى^(٢) .

ويلحق بهذا كل ما شاكله كقول ذى الوزارتين أبي الحسن بن اليسع ،
وقد أنشده المعتمد بن عباد^(٣) :

ولما التقينا للوداع غدّة وقد خفقت في ساحة القصر رايات

(١) نعمان الأراك بالفتح : واد بين مكة والطائف أو جبل .

(٢) خزائن الأدب للحموى - ٢٢٦ .

(٣) فلائذ المعيان - ٩ .

بكينا دماً حتى كان عيوننا - بجري الدموع الحمر منها جراحات
وهو ينظر إلى قول القائل :

بكيت دماً حتى لقد قال عائدي - أهذا الفتى من جفن عينية يرعف
وأحسب هذا البيت مأخوذاً من قول أبي تمام :

أما الرسوم فقد أذكرن ما سلفا - فلا تكسفن من شأنك أو يكيفا
لا عذر للصب أن يقنّ السلو ولا - للدمع بعد مضى الحى أن يقفا
حتى يظّل بماء سافح ودم - في الربع يحسب من عينيه قد رُعفا
وأبر تمام أخذه من قول أبي وجزة^(١) :

عيون تَرَامِي بِالرُّعَافِ كَأَنَّهَا - من الشوق صردان تدبّ وتلمع
وقد قيل في تفسيره : شبه الدمع - وقد عصفره الدم - بالرُعاف ،
وشبه العيون - وهي تفيض بالدمع تارة وتحبسه أخرى - بالصُّرْدَانِ
تلتفّض تارة ، وتظهر عرضاً من الأرض تارة .
وبيت أبي تمام أجود لفظاً ونظماً^(٢) :

٣ - أن يكون الغرض وصف شيء لا يستكمل دقته بغير هذه
الآلفاظ ؛ كقول ابن الحاجب في احمرار الشمس عند المغيب :
وكانها عند الغروب جفون عين الأرمد
وقول ابن طباطبا في الشمس المنقبة بالغيم :
وأقذبت عين شمسنا فحكّت - من خلل الغيم طرف عمشاء
وقول الألبيري يصف المربة^(٣) :

(١) وفيات الأعيان - ٢ - ٣٨ .

(٢) الموازنة - ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٣) المربة كفتية من مدن الأندلس ، وموضع آخر بها .

قالو المربة فيها نظافة قلت إيه
كانها طست تبر ويُبصق الدم فيه

وقول الوراق :

أبدى لنا لما بدا قرعة يحار في تشبيهها اللب
فقلت هل تشبهه يقطينة فقال لو كان لها لب
وقول جرير يهجو الأخطل بتورم أنفه من السكر :

وشربت بعد أبي ظهير وابنه سكر الدنان كأن أنفك دمل
وقد جرت العادة أن أنوف السكرى المدمنين تتورم ؛ قال الجاحظ :
رأيت جماعة ممن يعاقرون الشراب قد عظمت آناهم وصارت لها خراطيم
منهم روح الصائغ وعبد الواحد صاحب اللؤلؤى ، وجماعة من ندمان حماد
ابن الصباح ، وعبد الله أخا نهر من عسكر ، وناساً كثيرين .

وقول عبد الله بن عتبة في وصف السكران نفسه :
وشربك من ماء الكروم كأنه إذا سُجَّ صرفاً في الإناء خضاب
صريع مدام والتدأى بلونه وفي الشدق قىء مائل ولعاب
وقد عد العسكرى هذا الشعر والذي قبله أبدع ما قيل في بابه (١) .
وقول أبي البيداء الرياحى - وهو مما أنشده الجاحظ - .

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسان دعوى في القريض دخيل
وهذى الحكمة على قبحها لا يوجد خير منها في هذا المكان ، فإنها
واضحة الدلالة إلى حد تصوير المعنى المراد ؛ وهو عدم التناسب والتلائم
بين أبيات الشعر .

وذلك أن بعر الكبش لا يقع إلا متفرقا .

وقول جورج ديها ميل : أؤكد أن القصة اليومية هي إحدى قروح
آدبنا الخفية ، قرحة يسيل منها كثير من الدم الزكي الجميل^(١) !
فهذه الألفاظ نراها حسنة في هذه المواضع ، بقدر ما كانت قبيحة
في المواضع الأخرى ، لتباين المناسبات واختلاف المقامات ، ذلك لأن
قبحها وحسنها لم يأت من ذاتها وإنما هو وصف طارئ عليها يتغير
بتغير السياق .



الفصل الثالث

اقتران التشبيه بالحلي البلاغية

كثيراً ما يقع التشبيه متصلاً بحلية بلاغية فيزداد روعة وجمالاً . وتعلو قيمته بمقدار ما وفّرت له الحلية الإضافية من وشى وتخيير ، وطرافة وجدة . وخصب وقوة .

وهذا أمر طبيعي ؛ فإن انضمام شيء حسن إلى حسن مثله ؛ يضاعف روعتهما وبهاءهما ، ويؤاتد من اتصاهما مزايا جديدة لم تكن لأحدهما منفرداً قبل هذا الازدواج .

والمهم في ذلك أن تكون الحليّة قد جاءت عفواً دون اجتلاب ولا استسكراه وإلا لحقه الثقل والغثاثة .

وهذه الحلي كثيرة ، منها اجتماعه :

١ - مع التذييل كقول الخطيب :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوئى بأنف الناقة الدنيا

وقع التشبيه في النصف الأول ، وذيل بالنصف الثاني .

وقول أبي بكر الداني :

وسعودهم ثلثي الأعدى عنهم إن السعود كتائب لا تهزم

استوفى المعنى في الشطر الأول ، وذيل بالتشبيه في الشطر الآخر .

٢ - مع الإيغال كقول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يشقّب

فقد أتى على التشبيه كاملاً قبل القافية ؛ وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع بفتح الجيم وكسر ها ؛ وهو خرز يمانى صينى فيه سواد وبياض ؛ تشبه به الأعين .

ثم لما أتى بالقافية أوغل^(١) بها فى الوصف ، وجوَّده وأكده بقوله :
لم يثقب ، وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه ، لأن عيون الوحش غير مثقبة .

وقول زهير من معلقته :

كان فُتات العهن فى كل منزل نزلن به حبُّ الفنا لم يحطَّم
شبه العهن - وهو الصوف الأحمر - بحب الفنا . وهو حب تفتته
الأرض ، أحمر اللون فيه نقط سود ، ولكنه إذا كسر ابيض لونه .
فاستظهر فى القافية لما جاء بها بأن قال ؛ لم يحطَّم ، فأكد التشبيه بإيغاله
فى المعنى .

٣ - مع أسلوب الحكيم كقول الأراجازي^(٢) :

غالطتني إذ كست جسمي ضئى كسوة أعرت من اللحم العظاما
ثم قالت أنت عندى فى الهوى مثل عيني ، صدقت لكن سقاما
وقول ابن حجلة المغربي :

شكوت إلى الحبيبة سوء حظي وما ألقاه من ألم البعاد
فقلت إن حظك مثل عيني فقلت نعم ولكن فى السواد
٤ - مع الاستطراد كقول مسلم بن الوليد :

(١) الإيغال أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتي المقطع فيزيد معنى آخر ، يزيده وضوحاً وشرحاً وتوكيداً حسناً .

(٢) أسلوب الحكيم : حمل لفظ فى كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه .

أجدك ما تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك تُفسّر (١)
لهوت بها حتى تجلست بغرة كغرة يحيى حين يذكر جعفر (٢)
وقول إسحق الموصلي في وصف الخمر (٣) :

وصافية تغشى العيون رقيقة سائلة عام في الدنان وعام
أدربها الكأس الرويّة موهنا من الليل حتى انجاب كل ظلام
فما ذرّ قرن الشمس حتى حسبتنا من العسى نحكي أحمد بن هشام
وقد ذكروا : أن ابن هشام قال له : لم هجرتني مع الصداقة بيننا ؟
فقال : لأنك قعدت على طريق القافية !

وقول أبي بكر الخوارزمي :
ولقد بكيت عليك حتى قد بدا دمعي يحاكي لفظك المنظوما
ولقد حزنت عليك حتى قد حكى قلبي فؤاد حمودك المحموما
ومن بديعه قول ابن رشيق لبعض الرؤساء :

إني لقيت مشقة فابعت إلى بشقة (٤)
كشّل وجهك حسنا ومثل ديني رقة (٥)
وكان الرئيس ظريفا فقال له : أما مثل دينك رقة فلا يوجد بوزن
أمثال رمل الرقة !

وقول أبي بكر بن النطّاح في مالک بن طوق التغلبي :
فتى شقيت أمواله بعفاته كما شقيت بكر بأرماع تغليب

(١) القرون : خصل الشعر .

(٢) يحيى بن خالد البرمكي وابنه جعفر .

(٣) هذه رواية المبرد ، ونسبها بعضهم للصابي .

(٤) الشقة بالضم : واحدة الشق من الثياب .

(٥) الرقة بالفتح : بلد على الفرات وأخرى غربي بغداد .

والاستطراد هنا مليح جداً ، لأن مالك من بني تغلب أعداء بكر ،
فصار الاستطراد زيادة في مدحه .

وقول أبي الطيب في هجاء كافور :

يموت به غيظا على الدهر أهله كما مات غيظا فانك وشيب^(١)
وهذا البيت ليس المقصد فيه مدحا ولا هجاء للرجلين ، ولكن التشبيه
والحكاية لا غير^(٢) .

ومن الاستطراد الجامع قول أبي محمد بن مُكرم :

وليل كوجه البرقعيدى ظلمة وبرد أغانيه وطول قرونيه
قطعت ، فنوى عن جفوني مشرد كعقل سليمان وخفة دينه
بذى أو لثق فيه اعوجاج كأنه أبو جابر في خطبه وجنونه^(٣)
إلى أن بدا وجه الصباح كأنه سنا وجه قرواش ونور جبينه
فقد استطراد من تشبيهه ، وصَف به حاله إلى أربع تشبيهات هجا فيها
ثلاثة ومدح واحدا .

ومن ذلك أن ابن جلنك الحلبي كتب رقعة إلى قاضي القضاة ابن
الزملكاني يسأله فيها شيئا فوقَّع له برطلين خبز ، فتوجه ابن جلنك يوما
إلى بستان يرتاض فيه ، فقبل له : إنه لقاضي القضاة ، فكتب على حائط
البستان :

لله بستان حللنا دوحه في جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبه سنائيرا رأت قاضي القضاة فنفسشت أذنانها

(١) فانك : أمير مصري كان منافسا لكافور ، وشيب : أمير عربي ناز على كافور
فقتله بدمشق .

(٢) الذخيرة — ٢ — ٣٩ .

(٣) الأولي : الجنون .

وفيه يقول الحموى : فاستطرد من وصف البستان ، وتشبيه البان تشبيها
مختزما ، إلى هجو مرقص لقاضى القضاة عند سماعه ، وما شك أحد من أهل
الأدب : أن التشبيه غريب فى اختراعه .

وقيل : إن الشيخ بدر الدين بن مالك أملى على هذين البيتين كراسة
فى البديع ^(١) .

والعادة فى الخروج من الاستطراد بطريق التشبيه ، أن تجعل أداة
التشبيه مع المستطرد به فى آخر الكلام ^(٢) .

هـ — مع المذهب السكلامى ^(٣) كقول النابغة — يعتذر للنعمان بن المنذر
عن مدحه آل جفنة الغسانيين — :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكمّ فى أموالهم وأقرب
كفعلك فى قوم أراك اصطفتهم فلم ترم فى فعل ذلك أذنبوا
يريد : لا قلنى ولا تعتب علىّ أن مدحت آل غسان وقد أحسنوا إلىّ ،
كما لا يصح أن يلام قوم مدحوك على إحسانك إليهم ، فكما أن مدح
أولئك لك ، لا يعد ذنباً يؤخذون به ، فكذلك مدحى لهم لا يعد ذنباً
أحاسب عليه .

وهذه الحجة على صورة التمثيل الذى يسميه الفقهاء قياساً
ويمكن رده إلى صورة قياس استثنائى ، بأن يقال : لو كان مدحى لآل
جفنة ذنباً ، لكان مدح أولئك القوم لك أيضاً ذنباً ، لكن اللازم باطل
فكذلك الملزوم ^(٤) .

(١) خزائن الأدب .

(٢) المصدر والرقم نفسه .

(٣) المذهب السكلامى : لإيراد حجة المطلوب على طريقة أهل السكلام . وهى أن تكون
المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب .

(٤) معاهد التنصيص — ٢ — ٨ .

وقول جابر الأندلسي :

لو قضى الله أن قلبي يبق
ما حكي لحظه الغزال التفاتا
لكن اللحظ قد حكاه قلبي
قد قضى تحبّه زمانا وماتا

وقول ابن مالك بن المرحل الأندلسي :

لو يكون الحب وصلا كله
لم تكن غاياته إلا الملل
أو يكون الحب هجرا كله
لم تكن غاياته إلا الأجل
إنما الوصل كمثل الماء لا
يستطاب الماء إلا بالغلغل

البيتان الأولان : قياسان شرطيان .

والبيت الثالث - وفيه الشاهد - قياس فقهى ، فإنه قاس الوصل
على الماء ؛ فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش ، فالوصل مثله لا يستطاب
إلا بعد حرارة الهجر .

وما احسن قول بعضهم في هذا المعنى :

لولا اضطراد الصيد لم تك لذة
فتطاردى لى فى الوصال قليلا
هذا الشراب أخو الشباب وماله
من لذة حتى يصيب غليلا

٦ - مع التناصب كقول البحترى فى وصف النوق :

يترققن كالسّرّاب وقد خُضن م غمارا من السراب الجارى
كالنقى المعطّفات بل الأسهم م مبريّة بل الأوتار
فإنه لما شَبّه الإبل الناحلة بالقسى وأراد أن يكرر التشبيه ، كان يمكن
أن يشبها بالعراجين ، أو بنون الخط ، لأن المعنى واحد فى الانحناء
والدقة ، ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار لما تقدم من ذكر
القسى .

وقول السَّلامى :

والنَّقع ثوب بالسيوف مطرّز والارض فرش بالجياذ مخمل
وسطور خيلك إنما ألفتها سمر تنقّط بالدماء وتُشكّل
ناسب بين الثوب والتطريز ، والفرش والخل ، والسطور والآلات ،
والنقط والشكل .

وقول بعضهم :

ومن عجب أن يحرسوك بخادم وخدام هذا الحسن من ذاك أكثر
عذارك ريحان وثغرك جوهر وخدك ياقوت وعالك عنبر
ناسب بين العذار والثغر ، والحد والخال ، والريحان والجوهر ،
والياقوت والعنبر للملاءمة فى أسماء الخدم .

وقول السرى الرفاء :

وعُجم مرهفات البرق فيه عوار والرياض به كواس
وقد سلّت جيوش الفطر فيه على شهر الصيام سيوف باس
ولاح لنا الهلال كشطر طوق على لبّات زرقاء اللباس

وقول ابن الفارض :

وقد سخّنت عيني عليها كأنها بها لم تكن يوماً من الدهر قرّت
فإنسانها ميت ودمعى غسله وأكفانه ما ابيض حزناً لفرقتى

٧ - مع التقسيم كقول عمر بن أبى ربيعة :

وهي كشيء لم يكن أو كنزاح به الدار أو من غيبته المقابر
فلم يبق مما يعبر به عن إنسان مفقود قسماً إلا أتى به فى هذا البيت .
وقول العباس بن الاحنف :

وصالكم صرم وحبكم قلّى وعطفكم صد وسلمكم حرب
 وكان محمد بن موسى المنجم^(١) يحب التقسيم في الشعر ، وكان معجبا
 بقول ابن الأحنف المتقدم ، وقد حكى عنه أنه قال : أحسنَ والله فيما قسم
 حين جعل لكل شيء ضده ، والله إن هذا التقسيم لأحسن من تقسيمات
 أوقليدس^(٢) .

وقول ابن قسّلاقس يتغزل :

حملت من الأزهار أشباه الربا فقساوت الأمثال والأشكال
 فالأس صدغ والأقاحى مبسم والورد خد والبنفسج غلال
 وقول الشهاب محمود :

وإني لني نظرى نحوها وقد ودّعني قبيل الفراق
 ولا صبر لي فاطيق الهوى ولا طمع إن نأت في اللحاق
 ولا أمل يرتجى في الرجوع ولا حكم في رد تلك النياق
 كهننى يودع روحا غدت يراها على رغمة في السياق^(٣)
 ٨ - مع التسميم^(٤) كقول جنوب في رثاء أخيها عمرو بن عاصم
 ذى الكلب^(٥) :

وخرق تجاوزت مجهولة بوجناء حرف تشكّى الكلالا^(٦)
 فكنت النهار به شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلالا

(١) العمدة — ٢ — ٢٢ .

(٢) أوقليدس يضم وزيادة واو كما في القاموس .

(٣) السياق : الاختصار .

(٤) التسميم ويسمى الإرساد أيضا : أن يجعل قبل المعجز من الفقرة أو البيت ما يدل على المعجز إذا عرف الروى .

(٥) انظر خبر قتله في زهر الأدب — ٣ — ٢١٢ .

(٦) الحرق : القفر والأرض الواسعة المجهولة تتخرق فيها الرياح .

لما ذكرت النهار جعلته شمسا ، ولما ذكرت الليل جعلته هلالا لمكان القافية ، ولو كانت القافية رائية مثلا لجعلته قرأ .

وسر الصنعة في هذا الباب : أن يكون معنى البيت مقتفيا قافيته ، وشاهدا بها ودالا عليها^(١) .

وترى ذلك واضحا فيما ذكره علي بن ظافر الأزدي ، قال : خرجنا للقاء القاضي الفاضل ، فرأيت في الموكب رجلا أسود اللون عليه جبة حمراء فأنكرته ولم أعرفه ، ولقيت القاضي الأسعد أبا المسكارم فقلت له : من هذا الأسود الذي كأنه فحمة في دم حجامه !

فقال : كأنه ناظر طرف أرمـد .

فقلت له : يصلح أن يكون بعده :

أو مثل خال فوق خد أرمـد .

وأن يكون قبله :

وأسود في ثوبه المورـد .

ثم لقيت بعد ذلك ابن سناء الملك فأنشدته إياهما وكتمت الأول ، وقلت : قد صنعت لهما أولا ، فاصنع أنت أيضا ، وقصدت بذلك اختيار القافية رتـكـنـها إذ كل خاطر إنما يتبادر إليها .

فقال :

وأسود في ملبس مورـد .

فعجبت من توارد الخاطرين لما كانت القافية متمكنة غير مستدعاة ولا مجتلية ، إلا أن قوله : في ملبس أحسن من قولي : في ثوبه^(٢) .

٩ - مع الاستخدام كقول ابن جابر الأندلسي :

(١) العمدة - ٢ - ٢٦ .

(٢) بدائع البدائـه - ١٠٩ .

في القلب من حيكم بدر أقام به فالطرف يزداد نوراً حين يبصره
تشابه العقد حسناً فوق لبته والثغر منه إذا ما لاح جوهره

١٠ - مع حسن التعليل كقول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للسكان العالي
وقول ابن جنيها البغدادي :

ريقته الشهد والدليل على ذلك نمل في خده صعيداً^(١)
وقول القاضي الفاضل :

لو لم يُعطل خاطري عن سلوة ما كان خدي بالمدامع حالي
أودعته قلبي نخان وديعتي فسواده في خده كالخال
وقول ابن اللبابة :

زادوا جفاء فانتقصت مودة ومن الزيادة موجب النقصان
أنا مثل مرآة صقيل صفحها ألقى الوجوه بمثلها تلقائياً^(٢)
وقول آخر :

انظر إلى الصبح المنير وقد بدا يعشى الظلام بمائه المتدفق
غرقت به زهر النجوم وإنما سلم الهلال لأنه كالزورق
وقد أعجب عبد القاهر باجتماع التشبيه مع حسن التعليل ، فقال : ينبغي
أن تعرف أن باب التشبيهات قد حظي من هذه الطريقة بضرب من السحر
لا تأتي الصفة على غرابته ، ولا يبلغ البيان كنه ما ناله من اللطف والغرف ،
فإنه قد بلغ حداً يرد المعروف في طباع الغزل ، ويلهي الثكلان ، وينفث

(١) النمل : كناية عن شعر العارضين أول خروجه .

(٢) الصفح : الجانب .

في عقد الوحشة ، وينشد ما ضل عنك من المسرة ، ويشهد للشعر بما يطيل
لسانه في الفخر ، ويبين جملة ما للبيان من القدرة والقدر^(١) .

١١ — مع تجاهل العارف كقول ابن هاني الأندلسي في المعز الفاطمي :

أبني العوالي السمهرية والموا ضي المشرفية والعديد الأكثر
من منكم الملك المطاع كأنه تحت السوابغ تبَّع في حمير
ويحكى : أنه لما أنشدهما ترجل العسكر كله ، ولم يبق راكب
سوى المعز .

فلا يعلم شعر كان جوابه نزول عسكر جرار غيره^(٢) .

ومما نسب إلى يزيد بن معاوية :

اليل دجا أم شعرك الفاحم الجعد وبدر بدا أم وجهك القمر السعد
وزجسة هاتيك أم هي مقلة وتفاحة ذاك المضرج أم خد
وحقان من عاج لطيفين رُكِّبَا بهدرك أم ثديان هذان أم نهد
وقول ابن الفارض :

أو ميض برق بالأبريق لاحا أم في ربا نجد أرى مصباحا
أم تلك ليلي العامرية أسفرت ليلا فصيرت المساء صباحا
وقول شاعر :

أجفون كحيلة أم صفاح وقدود مهتزة أم رماح

١٢ — مع التدبيج^(٣) كقول ابن الساعاتي :

من معشر وبجِّل قدر علانه عن أن يقال لئله من معشر

(١) أسرار البلاغة — ٢٣١ .

(٢) خزنة الأدب للعموى — ١٥٤ — معاهد التنصيص — ٢ — ٥٤ .

(٣) التدبيج : أن يذكر الشاعر أو الناثر في معنى من المدح أو غيره ألوانا لقصد السكناية أو التورية .

بيض الوجوه كأن زرق رماحهم سرّ يحلّ سواد قلب العسكر

وقول أبي بكر الخالدي :

ومدامة صفراء في قارورة زرقاء تحملها يد بيضاء

فالراح شمس والحبّاب كواكب والكفّ قطب والإناء مماء

وقول بعضهم :

الغصن فوق الماء تحت شقائق مثل الأسنة خُصِّبت بدماء

كالصّعدة السمراء تحت الراية الحمراء م فوق اللّامة الخضراء

١٣ — مع المقابلة كقول العباس بن الأحنف :

اليومُ مثل الحول حتى أرى وجهك والساعةُ كالشهر

وقول الحداد المصري :

أما ترى الغيت كلما ضحكت كأنم الزهر في الرياض بكى

كالحبّ يبكى لديه عاشقه وكلما فاض دمه ضحكا

١٤ — مع توكيد المدح بما يشبهه الذم وبالعكس ؛ كقول أبي القاسم

الطبري :

قضيّب ولكن مبسم التّوزّعزها وبدر ولكنّ المحاق بخصرها^(١)

وقول آخر في وصف الخيل :

منها الدّجوجي ومنها الأرمك^(٢) كالليل إلا أنها تحرك

وقول آخر :

هو الكلب إلا أن فيه ملالة وسوء مراعاة وما ذاك في الكلب

(١) محاق الخصر . كناية عن دقته .

(٢) الأرمك : ما يخالط غبرته سواد .

وقول آخر :

معشر أشبهوا القُرود ولكن خالفوها في خفة الأرواح

٥ - مع صحة التفسير كقول العسكري :

كيف أسلو وأنت حَقَفٌ وغصن وغزال لحظاً وردفاً وقد^(١)

وقول المتنبي :

فتى كالسحاب الجُونُ يُخشى ويُرجى رَجَى الحيا منها وتخشى الصواعق

وقول بعض الشعراء :

شَبَّهُ الغيث فيه والليث والبد ر فسمع ومُخرب وجميل

١٦ - مع الرجوع^(٢) كقول السراوندى :

كالبدر بل كالشمس بل ككاهما كالليث بل كالغيث هطال الديم

وقول ابن سناء الملك :

وَمَلِيَّةٌ بالحسن يسخر وجهها بالبدر ، يهز أريقها بالقرقف^(٣)

لا أرتضى بالشمس تشبيها لها والبدر ، بل لا أكتفى بالمسكتنى^(٤)

وقد أخذه من قول ابن المعتز ولم يحسن الأخذ :

واقفه لا كلمته ولو أنه كالشمس أو كالبدر أو كالمسكتنى

قايسه بين جماله وفعاله فإذا الملاحاة بالخيانة لا تنى

١٧ - مع الإدماج كقول ابن قلاؤس :

كأن دموعى إذ تسكّر وقعها تُعد على الدنيا بهن المساويا

(١) الحقف بالكسر : الرمل المعوج ؛ يريد به المعجز

(٢) الرجوع . العود إلى كلام سابق بالنقض والإبطال لنسكته .

(٣) القرقف كجعفر : الخمر يرعد منها صاحبها .

(٤) المسكتنى : أحد خلفاء بني العباس وقد شهر بالجمال .

فقد ضمّن في وصف كثرة دموعه شكايته من الدنيا .

وقول القاضى الفاضل :

وقد خفقت راياته فسكانها أنامل في عمر العدو تحاسبه

ومن الطريف قول الخيمي في سبحة :

وسبحة مسودة ، لونها يحكى سواد القلب والناظر

كأننى وقت اشتغالى بها أعد أيامك يا هاجرى

ومما جاء في شعر المتنبي قوله في طول الليل :

أقلب فيه أجفاني كأنى أعد بها على الدهر الذنوبا

١٨ — مع المزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء كقول البحتري :

لعمرك إنا والزمان كما جنت

على الأضعف الموهون عادية الأقوى

وقول زياد الأعجم :

وإنا وما تلقى لنا إن هجوتنا لسكالبحر مهما يُلحق في البحر يفرق

وقد أشاد عبد القاهر بهذا البيت ، لأن عمل الشاعر فيه أدق وطريقه

أغمض ، ووجه المشابهة فيه أغرب (١) .

٩ — مع الجناس كقول الصاحب في أخوين صبيح وقبيح :

يحيى حكي المحميا ولكن له أخ حكي وجه أبى يحيى (٢)

وقول ابن جزي الأندلسي :

أيا من كففت النفس عنه تعففا وفى النفس من شوقى إليه طيب

(١) دلائل الإعجاز — ٧٢ .

(٢) أبو يحيى : كنية ملك الموت .

ألا إنما صبرى كصبر وإنما على النفس من تقوى الإله رقيب
ويصح بدل « طيب » : غرام ، وبدل « رقيب » : لجام .
وهذا يسمى التخيير البديهي ^(١) .

٢٠ - أو مع التورية كقول الصغدي :

ورب صديق غاظه حين جاده من القوم صفح دائم الهطل بالهطل ^(٢)
فقلت له تأبى المروءة أنسا نخائيك يا بستان فينا بلا نخل
والنخل يستعمله المولدون بمعنى الصفح .

وقول شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى :

قالوا أما فى جلق نزهة تنسيك من أنت به مُفرى ^(٣)
يا عاذلى دونك من لحظما سهما ومن عارضها سطرأ
والسهم والسطر من متزهات دمشق المشهورة .

وقول أبى الحسين الجزار :

أنت طوقنى صنيعا وأسمعك م شكرا كلاهما ما يضيع
فإذا ما شجأك شكرى فإنى أنا ذاك المطوق المسموع
وقول ابن الوردى :

يا شمينخ خل التصابى فالزهد بالشينخ ألبق
ولا تحسَّ كُـمَيْتًا ^(٤) فإن فودك أبلق

٢١ - مع العكس ويسمى التبديل كقول بعض الشعراء :

(١) نفع الطيب - ٣ - ٢٧٢ .

(٢) جاده : أمطره .

(٣) جلق بكسر وتشديد اللام مع الفتح والكسر : دمشق .

(٤) الكميت : الحمر .

أُلت ترى أطباق ورد وحو لها من الزرجس الغض الطرى قدود
فقلت خدود ما علمن أعين وتلك عيون ما لهن خدود
٢٢ - مع التفريق كقول بعضهم .

قاسوك بالغصن فى الثنى قياس جهل بلا انتصاف
ها ذاك غصن الخلاف يدعى وأنت غصن بلا خلاف^(١)
٢٣ - مع النزاهة - وهو الهجو بالفاظ منزهة عن الفحش - كقول
أبى تمام :

بنى فعيلة ما بالى وبالكم وفى البلاد منادى ومضطرب
لجاجة لى فيكم ليس يشبهها إلا لجاجتكم فى أنكم عرب
٢٤ - مع الاستدراك كقول القائل :

وإخوان تحذتهم دروعا فكانوها ولكن للأعادى
وخلتهم سهاماً صائبات فكانوها ولكن فى فؤادى
وقد يجتمع التشبيه مع عدة بديعيات كقول أبى تمام :
مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قننا الخط إلا أن تلك ذوابل
فى هذا البيت يقول ابن أبى الأصبع : إنه من أفضل بيوت المنامبة
لما انضم إليه معها من المحاسن :
ففيه مناسبة تامة بين مها وقنا ، ومناسبة ناقصة بين الوحش والخط
وأوانس وذوابل .

وتشبيه فى مها وقنا ، وقد حذفت الآداة منه ليدل على قرب الشبه به .
والاستثناء فى قوله : إلا أن هاتا أوانس ، وإلا أن تلك ذوابل ؛

ليثبت للموصوفات التائيس ، وينفى عنهن النفار والتوحش في الأول ،
وليثبت لهن اللين وينفى عنهن اليبس والصلابة في الثانى .

والمطابقة في الوحش وأوانس ، وهاتان التان للقرىب وتلك التان للبعيد .
والمساواة ؛ فلفظ البيت لا يفضل عن معناه ولا يقصر عنه .

والاكتلاف ، لكون ألفاظه من واد واحد ، متوسطة بين الغرابة
والاستعمال ، وكل لفظة منها لائقة بمعناها لا يكاد يصلح فى موضعها غيرها .
والتكئين ، لاستقرار قافية البيت فى موضعها وعدم نفاها عن محملها^(١) .

وفى أقوال ابن أبى الأصبيع شىء من المبالغة ؛ فقد استحسن من
أبى تمام الاستثناء فى قوله : إلا أن تلك ذوابل ، معللا ذلك بإثبات اللين
لهن ، ونفى اليبس والصلابة عنهن .

وهذا يخالف قول الأمدى الذى يخطئ أبا تمام فى هذا ؛ لأنه إنما قيل
للقنا : ذوابل ، للينها وتثنيها .

وأبو تمام نفى ذلك عن قدود النساء التى من أكمل صفاتها التثنى واللين
والانعطاف ، كما قال تميم بن مقبل :

يهزُزن للشى أوصالا منعمة هزَّ الجنوب ضُحًا عيدان يهرينا
أو كاهتزاز ردينى تداوله أيدى التجار فزادوا متنه لينا

فشبهه تميم قدودهن بالردينى للينه وتثنيه لا غير ، وهذا أجود من كل
ما قاله الناس فى مشى النساء وحسن قدودهن^(٢) .

(١) خزانة الأدب الجوى — ٢١٠ .

(٢) الموازنة — ١٤٠ .

الفصل الرابع

التشبيهات المبتكرة

من الأمور الشاقة المجهدة رسم طريق معبّد لابتكار المعاني ومرد ذلك إلى تعدد مناحي التفكير في الناس ، وتباين أنظارهم إلى الأشياء ، واختلاف طرائقهم في الاستنباط ، وتفاوت عقولهم في القوة والضعف ، والنفوذ والكلال .

وكل ما استطاع أن يقال في هذا المقام : أن التزود من مختلف الثقافات والارتشاف من مناهل العلوم والمعارف وبخاصة الفلسفات ، والانتفاع بكل جديد تبذره المدنية والحضارة ، وإنعام النظر وإعمال الفكر في ملكوت السموات والأرض وما تستجليه حواسنا ، واستخلاص العبر من الحوادث والخطوب والمثلات ، كل أولئك من شأنه أن يوسع أفق الأدب ، ويخصب قريحته ، ويشقق معلوماته ، ويفتح خياله ، ويمحق تفكيره ويمهد سبيله إلى اقتناص الشوارد ، وتقييد الأوابد ، أما ما عدا ذلك فمن المتعذر ضبطه وتحديدده .

وقد فطن إلى ذلك ابن الأثير فقرر : أن المعاني المخترعة لم يتكلم فيها أحد بالإشارة إلى طريق يسلك فيها ، لأن ذلك مما لا يمكن ، ومن ههنا أضرب علماء البيان عنه ، ولم يتكلموا فيه كما تكلموا في غيره .

وكيف تنقيد المعاني المخترعة بقيد ، أو يفتح لها طريق يسلك ؛ وهي تأتي من فيض إلهي بغير تعليم ، ولهذا اختص بها بعض النافرين والناظمين دون بعض ، والذي يختص بها يكون فذا يوجد في الزمن المتطاوّل^(١) .

ثم يرسم ابن الأثير طريقا يظنه موصلا جيدا لاقتناص المعاني - وهو ليس بموصل على الحقيقة - إذا لم يوجد الطبع السليم والوحي المشع ، والإلهام الفياض .

قال : سأقول لك في هذا الموضوع قولاً لم يقله أحد غيري ، وهو أن المعاني المبتدعة شبيهة بمسائل الحساب المجهول من الجبر والمقابلة ، فكما أنك إذا وردت عليك مسألة من المجهولات تأخذها وتقلبها ظهر البطن ، وتنظر إلى أوائلها وأواخرها ، وتعتبر أطرافها وأوساطها ، وعند ذلك تخرج بك الفكرة إلى معلوم ؛ فكذلك إذا ورد عليك معنى من المعاني ، ينبغي لك أن تنظر فيه كنظرك في المجهولات الحسابية ، إلا أن هذا لا يقع في كل معنى فإن أكثر المعاني قد طرق وسبق إليه ، والإبداع إنما يقع في معنى غريب لم يطرق ، ولا يكون ذلك إلا أمراً غريباً لم يأت مثله ؛ وحيفئذ إذا كتب فيه كتاب أو نظم شعر ، فإن الكاتب والشاعر يعثر على مظنة الإبداع (١) .

وفي كلام ابن الأثير كثير من الحق ، ولكن لا نقره على أن أكثر المعاني قد طرق وسبق إليه ؛ فالمعاني حقل خصب بكر متراعى الأطراف لا نهاية لحدوده ، ولم تأخذ العقول منه إلا كما اغترف الظأى جرة بيده من نبع ثرار والمعاني أكثر من الألفاظ وأوسع رقعة وأعمق لجة ، ولا تزال متجددة على تراخي المدة وتعاقب الأيام بما تمدنا به الفتوح العلمية والعقلية من أمداد متصلة زاخرة لا تنفد على إنفاق ، وإنما خيل لابن الأثير أن المعاني قد طرقت أو استنفدت لأن شعراء العصور الخالية قد سجنوا أنفسهم في نطاق ضيق محصور من الموضوعات يمدون فيها ويبدون ، فتحجسروا ما وسعه الله عليهم ، فالذنب ليس للمعاني ولكن لضيق آفاقهم . يقول « تومسون » ، لقد أكدت كثيراً على ضرورة الجهاد من أجل الحصول على قوة الابتكار ، وقد سألتني أحد الأشخاص : هل في إمكان الشخص أن يتعلم

كيف يصبح مبتكرا؟ وإذا كان الأمر كذلك فما أحسن طريقة يجب اتباعها؟ لأن الابتكار أو الاختراع أو الخلق سمه ما شئت ، يمكن بكل تأكيد أن يكون مكتسبا ، وفي نفس الوقت هناك بعض الناس ولدوا وعندهم ميل عظيم نحو الابتكار .

ثم يجيب عن السؤال : بأن أساس المسألة : هو أن الابتكار عبارة عن مجرد القدرة على ترتيب الأفكار المألوفة ، ووضعها في قالب جديد مشيد على صلات جديدة^(١).

وقد عرّف ابن رشيّق الابتكار بأنه : ما لم يسبق إليه ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه ، ومثّل له بآيات منها : قول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سموّ حجاب الماء حالا على حال
فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره ، وسلم الشعراء إليه ؛ فلم ينازعه أحد إياه^(٢).

ثم هو يتفق مع « أرسطو » في أن وصف الأشياء المادية كما هي في الواقع لافنية فيه ولا ابتكار ، كما أنه ليست هناك فنية في الأشياء الموجودة بالضرورة ولا اللازمة لزوما عقليا ، ولا في المسائل الرياضية والعلمية إذا عرضت على طبيعتها مجردة عن الإضافات التي نزيدها عليها^(٣).

أما ابن الأثير ، فيرى أن المعاني على ضربين^(٤):

١ - أحدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه . وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، وبين له عند

(١) أسرار النجاح — ٦٩ .

(٢) العمدة — ١ — ١٧٥ .

(٣) بلاغة أرسطو — ٣٧ .

(٤) المثل السائر — ١٢٣ .

الأمور الطارئة ، كقول أبي تمام في وصف المصلوبين :
بكروا وأمروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النّجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدا على سفسر من الأسفار
والخاطر في هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كلفة ، لشاهد
الحال الحاضرة .

وجملة الأمر : أن الشاعر والكاظم ينظر إلى الحالة الحاضرة ثم يستنبط
لها ما يناسبها من المعاني ، وقد يستخرج من المعنى غير المبتدع معنى مبتدعا .
فمن ذلك قول ابن السراج في الفهم .

تنافس الليل فيه والنهار معا فقمّصاه بجلباب من المقل
وليس هذا من المعاني الغريبة ، وليكنه تشبيه حسن واقع موقعه .
وقد جاء بعده شاعر من أهل الموصل ، يقال له « ابن مسهر » ، فاستخرج
من هذا البيت معنى غريبا فقال :

ونقطته حياء كى يسالمها على المنايا نعاج الرمل بالحدق
والمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال متصورة ، أصعب منال مما
لا يستخرج بشاهد الحال ، ولأمر ما كان لا يكارها سر لا يهجم على مكانه
إلا جنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دق فهمه حتى جل عن دقة الفهم .

٢ — والضرب الثاني من المعاني : هو الذي يحتذى فيه على مثال سابق ، ومنهج
مطرود ؛ وذلك جُلّ ما يستعمله أرباب هذه الصنعة ، ولذلك قال غنرة :
هل غادر الشعراء من متردّم .

ولكن لا ينبغي أن يرسخ هذا القول في الأذهان ؛ لئلا يقنط من الترقى
إلى درجه الاختراع ، بل يعول على القول المطمّع في ذلك ، وهو قول
أبي تمام :

لازلت من شكرى فى حلة لابسها ذو سلب فاخر^(١)
يقول من تفرع أسماءه ~~كم~~ ترك الاول للآخر
وعلى الحقيقة فإن فى زوايا الأفكار خبايا، وفى أبكار الخواطر سبايا،
لكن قد تقاصرت الهمم، ونكصت العزائم، وصار قصارى الآخر أن
يقبع الاول، وليته تبعه ولم يقصر عنه.

ومهما يكن فليس الشاعر هو الناظر للصور المرئية، إنما الشاعر المبتكر
هو الذى يرى الصورة غير المرئية، بل هو الذى يبتكر الصور، والابتكار
لا يستمد عناصره من المنظور فقط، بل من المتصور والمفروض أيضاً.

إن النظرة الداخلية هى التى يعتمد عليها الشاعر، وفيها مزيج معقد
مخلوط من مناظر مرئية وغير مرئية، شعورية وغير شعورية، وفيها
خطوط وألوان وأصوات من كل ما تقذف به العاطفة، ومن كل ما ينبع من
النفس: من فكر وعلم وحكمة وخيال^(٢).

وعلى كل فنحن لانريد من الابتكار أو الاختراع أو الخلق كما يسمونه
أن يأتى المنشئ بشئ جديد من عدم محض؛ فهذا فوق الطاقة البشرية،
والتكليف به تكليف بالبحال كما هو ضد النواميس السكونية.

ولنا فى ذلك أسوة بأمناء الطبيعة نفسها؛ فهذه الكائنات علوية وسفلية
— على ضخامتها وعظمتها وتباين مظاهرها وتنوع خصائصها — تتألف من
عناصر محدودة لا تتجاوز المائة.

ثم هى — مع ذلك — تروعننا بما بينها من فروق شاسعة، لا تؤذن فى
الظاهر بتعاطف، ولا تشعر بصلة، مع أنك لو حللتها لعجبت من تقاربها

(١) السلب بالفتح: ما يسلب، يريد به الثياب.

(٢) تيارات أدبية بين الشرق والغرب — ٢٥٦.

في التركيب ، ومن سريان الوحدة الشاملة فيها ، وأن هذا التباين القليل في عناصرها قد أدى إلى هذه السمات المتنوعة المتغيرة .

فنحن لا نخلق شيئا من العدم ، والمؤلفات التي تصدر عن العدم قد تسلينا ساعة من الزمن ، ولكنها تفتقر إلى المادة افتقارا مسرفا ، ولهذا ترتد إلى العدم^(١) .

وإذن فليس معنى الابتكار أن نخلق شيئا من لا شيء ، ولكن معناه : أن نؤلف صورا جديدة لأشياء أخذنا عناصرها الأولية من صور ذهنية سابقة مرت بنا في حياتنا ، ودخلت في حوزة تجاربنا .

ولذا كان ما يهمننا بالدرجة الأولى في هذا المجال ؛ هو كثرة المعلومات والأفكار ؛ لذا ينبغي أن نقرأ ونلاحظ وتتعلم من أي شيء ومن أي شخص ولا تتوانى في شحن عقلك بالأراء والأفكار .

ثم اختر لنفسك بعض الدراسات الخاصة ، وتبحر فيها ؛ لأنه ليس في إمكان الإنسان أن يصبح مبتكرا بصفة عامة ؛ لأن الابتكار يجب أن يدور حول بعض النواحي الخاصة كالميكانيكا والطب والأدب وما شابه ذلك ، فاختر طريقك ، وسر فيه ، وتعلم كل ما يمكنك أن تتعلمه من هذا الطريق .

ثم كن دائما مستقبلا للأراء الجديدة : ابحث عن وجه الشبه أو الأسس التي تربط الآراء بعضها ببعض ، وغالبا ما تتوقف الفكرة المبتكرة أو الاختراع الجديد على شيء واحد فقط ، ألا وهو اكتشاف بعض الصلات ، واستخراج بعض المبادئ والأسس التي تربط بين الحقائق المشهورة .

وبالبحث عن الابتكار يجب أن يتعلم كيف يفكر بطريقة استنتاجية ، وأن يسأل ويقول : لماذا ؟ فلو لم يسأل « نيوتن » ذلك السؤال عند ما رأى التفاحة وهي تهوى إلى الأرض ، لما اكتشف قانون الجاذبية الأرضية .

وتعلم أيضا أن تعقل وتفكر بالمقارنة ؛ لاحظ وجه الشبه وحاول أن تستخدم مبادئ هذه المجموعة من الحقائق في شرح مجموعة أخرى ، وعن طريق مثل هذه الوسائل يأتي كثير من الاختراعات إلى عالم الوجود^(١).

ومن الضروري — كما يقول شارل بلونديل ، أن يستعير كل مخترع المواد الأولية لاختراعه من بيئته^(٢) ، وبقدرة ما اختزنه الإنسان في خاطره من هذه الصور المختلفة ، يكون حظه من كثرة الابتكار ، وقدرته عليه وافتتاحه فيه .

فالغنى بهذه الصور كلما ترى من المال كلاهما ييسر له الإنفاق كما يشاء وكيف يشاء بلا جهد ولا عناء .

وعكس ذلك حاوى الوفاض منهما ؛ فإنه لا يتأتى له أن يبسط خياله أو يبسط يده لعسرتة التى تنقله بالأصفاد فى شئون الفسك وشئون المال . وبذلك يمكننا أن نقول : إن أكثر الناس ابتكارا هم الذين تشبعوا بخبرات كثيرة عن طريق التقليد ، فأكثر الكتّاب والأدباء والباحثين قد ابتكروا على أساس خبرتهم وتقليدهم لمن سبقهم^(٣).

فمثلا يقول عدى بن الرقاع العاملى فى زواج عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بأى حكيم بنت الحكم الأموية :

قمر السماء وشمسها اجتماعا بالسعد ما غابا وما طلعا

ما وارت الاستار مثلهما فيمن رأى منهم ومن سمعا

دام السرور له بها ولها وتنهأ طول الحياة معا

(١) أسرار النجاح — ٦٩ .

(٢) مقدمة علم النفس الاجتماعى — ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق — ٧٨ .

فكان أول من شبه الزوجين بالشمس والقمر ، ومنه أخذ الشعراء هذا التشبيه وأكثروا^(١) .

والشمس والقمر ليسا بالجديدين على العيون والخواطر ، فهما يطالعان الناس كل يوم ، وصورتهما مقررتان في النفوس .

ولكن هذا الشاعر أتبع له أن يسبق الشعراء إلى عقد صلة بين العروسين وبين القمرين ؛ فالجدة هنا ليست في الأجزاء الأولية لأنها معروفة ولكن في الصورة التركيبية .

فالابتكار — كما يقرره أرسطو — إضافي ؛ لمحطة الأديب في ذاتية من الذاتيات أو في عرضية من العرضيات ، فألح عليها وأبرزها ، فهو من عمل الشاعرية إن لم يكن هو الشاعرية نفسها ، ولا يقدر في شاعرية الابتكار أن يكون مصدر الابتكار نفسه فكربا أو عقليا ، فالذي يقلب الفكرة — فيجعل البخيل كريما إذا مدح ، والكريم بخيلا إذا هجا — مبتكر أضاف جديدا إلى الفكرة ، أو فهم في الفكرة غير ما يفهمه الناس ، والذي يقلب الحكم العقلي إلى حكم عاطفي : مبتكر لأنه أضفى على الحكم المقرر شيئا جديدا لم يتنبه له سائر الناس .

والفنان يستطيع أن يبتكر جمالا من شيء لا جمال فيه ، وأن يضفي جمالا على شيء ليس جميلا في ذاته وليس موضعا للجمال^(٢) .

يقول بشار في تحريك النسيم للباب .

طرقني صبأ فحركت الباب ب هُدُوا فارنعت منه اركيا با
فكأنى سمعت حس حبيب نقر الباب نقرة ثم هابا

(١) نمار القلوب — ٢٣٩ .

(٢) بلاغة أرسطو — ٣٧ — ٤١ .

وقلّ من الناس من لم يحدث له ذلك ، ولكن بشاراً وحده هو الذى
سجل هذا المعنى فى هذا التشبيه العجيب .

ويذكر الصولى بمناسبة ذلك : أن المسكتى بالله كان نائماً فسمع دق الباب
فانقبه له مرثعاً ، ثم سكن قليلاً ، ثم عاد فنظر فإذا الريح تحرك الباب حركة
كأنها دق بيداً

قال : فقلت له : ذكر الشاعر ذلك ، وأنشدت البيتين السابقين .

فقال المسكتى : ما كنت أظن أنه قيل فى هذا شيء ، وما أقل ما يجري
بما لم يذكره الناس^(١) .

ويقول صرّ دُرّ :

إنما المرء فوقها هو لفظ فإذا صار تحتها فهو معنى

واللفظ والمعنى معروفان ، ولكن الجديد تصوير الإنسان الحى فوق
الأرض — يضطرب فوقها ويسعى — باللفظ ؛ لأن اللفظ كائن حى
مشخص ، يجرى على اللسان ويلتقطه السمع .

وكذلك تصويره تحتها فانياً : بالمعنى ؛ لأن المعنى لا يرى ولا يتمثل فى
غير اللفظ الذى هو كالجسد له .

وقد وفق كل التوفيق فى هذا التشبيه كما وفق فى تصويره ؛ للعلاقة بين
اللفظ والمعنى ؛ فإنك لو جردت الشاعر من أبجده وألفاظه وقوافيه —
كما يقول كروتشة — لما بقى هنالك فكرة شعرية كما يخيل إلى بعضهم ، بل
لما بقى شيء ألبته^(٢) .

وهو كقول جاريت : إن الفكرة جنين حتى تصاغ فى السمكات^(٣) .

(١) ديوان المعاني — ٢ — ٤٧ .

(٢) المجلد فى فلسفة الفن — ٦٠ — ٦١ .

(٣) فلسفة الجمال — ١١٨ .

فنحن حقاً في حال الحياة ألفاظ منطوقة ، وفي حال الفناء معان مجردة . وهكذا يقال في جميع الصور البيانية التي نعجب بها ونهتز لها ، ونحكم لقائلها بالسبق والتفرد ؛ فلسنا نظرب لهذه الجزئيات التي تألفت منها هذه الأشكال السكلية ، فهي بين أيدينا وعلى مرأى ومسمع منا في كل موقف ، ولكن الذي يوقتنا ويدهشنا ، ويسحر عيوننا وألبابنا هذه الصور في إطارها النهائي : كيف أمكن تأليفها على هذا المثال العجيب الغريب من جزئيات معروفة مألوقة ، حتى لكانه لاصلة بين رؤيتنا لها جملة ورؤيتنا لها تفريقاً !

ومع هذا فخذار أن تظن أن ابتكار الأشياء على هذا النحو شيء مذل ، سهل المقادة لكل شاعر أو أديب ، فالحق أنه شيء عسير جداً ، صعب جداً ؛ لأنه فن من الخلق ، والخلق من صفات الخالق — له المثل الأعلى — فهو يحتاج إلى دقة ملاحظة ، وشمول نظر ، وتغلغل في قرارة الأشياء ، وذوق مرفه في تخير الأصباغ ، وإحكام مزجها ووضعها بعضها بإزاء بعض ، حتى لا تغبو عنها النفس وتقتحمها العين ،

إن الاختراع هبة علوية لا تتاح لكل إنسان ، إنها ملكة هي بلا ريب أشد الملكات جموحاً ، فالإنسان يستطيع أن يمرن على الصبر والشجاعة والقدرة ، بل على دقة الإحساس ذاتها ؛ ولكنه لا يستطيع أن يثير وأن يقهر القدرة على الاختراع .

وعلى من حى شيئاً من تلك الهبة الثمينة بين الهبات ، أن يعبر لها مجراها ، وأن يخصصها بالعمل ، ويوجهها بالبلاء ، وأخيراً عليه أن يحققها فعلاً ، مع حمايتها من الفساد الذي يستنفدها ويفنيها^(١) .

ثم لا ننسى حاجتنا معها إلى بيان ناصع يترجم ما استكنّ في أعماق السرائر ، ويحسد هذه المعاني المجردة ، ويهب لها الحياة ، وينفخ فيها الروح ، ويسكبها في الأذان نفخاً حلواً ، ولحناً عذباً مسكراً .

(١) دفاع عن الأدب — ١٦٥ .

لقد كان سقراط يعزو قوة الابتكار الأدبي إلى ما سماه طبيعة خاصة ،
وهي التي وصفها بأنها قادرة على أن تتحمس وهذا صحيح ، ولكن هذه
الحماسة لا غناء فيها ، إذا لم تكن هنالك قوة تعبر عنها تعبيراً لفظياً
مفهوماً (١) .

ولنفاساة هذه الهبة وندرتها واختصاص قليل من الناس بها ، كان
المخترعون أفراداً يحصون عدا .

ومؤرخو الأدب يذكرون في هذا الشأن بشاراً وأباً نواس ، وعندهم
أن أكثر المحدثين معاني وتوليداً أبو تمام .
على أن أبا القاسم بن مهرويه يزعم : أن جميع ما لابي تمام من المعاني
المخترعة ثلاثة .

ويقول ابن الأثير : قد قيل : إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين
ابتداعاً للمعاني ، وقد عدت معانيه المبتدعة ، فوجدت ما يزيد على عشرين
معنى ، وأهل هذه الصناعة يكثررون في ذلك ، وما مثل هذا من قبل أبي تمام
بكثير ، فإني عدت المعاني التي وردت في مكاتباتي فوجدتها أكثر من هذه
العدة ، وهي مما لا أنازع فيه ، ولا أدافع عنه (٢) .

ويرى ابن رشيق : أن أكثر الشعراء اختراعاً ابن الرومي (٣) .
صور للتشبيهات المبتكرة .

والتشبيهات المبتكرة كثيرة في الشعر ، وقد تتبعناها في مواطنها المختلفة
وأتيننا على صدر صالح منها ، وتركنا ما سخط نسجه أو استغلق معناه .

فمن ذلك قول بعض ملوك اليمن :

(١) قواعد النقد الأدبي — ٣٨ .

(٢) المثل السائر — ١٢٧ — ١٢٨ .

(٣) الممددة — ٢ — ١٨٩ — ١٩٠ .

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تُنسى
تجـرى على كبد السماء كما يجـرى حـمام الموت في النفس
أخذه مسلم بن الوليد فقال :
تجـرى محبـتها في قلب عاشقها جـرى المعافاة في أعضاء منتكس
وفي رواية :

جـرى السلامة

وأحسن اتباعه أبو نواس فقال في الخمر :
فتمشّت في مفاصلهم كتمشّي البـُـرء في السَّقَم

* * *

وقول امرئ القيس :

كَأَن المَدَامَ وصوب الغمام وريح الخُزَامِ ونشر القُطَرِ (١)
يُعلّ به برد أنيابها إذا غرّـد الطائر المُستَحِر (٢)
وفي رواية : ونشر العَـطِر ، ولعله تحريف .

* * *

وقوله يصف الناقة :

كَأَن الحصى من خلفها وأمامها إذا نجلته رجليها حذف أعسرا (٣)
شبه رمى خلفها للحصى برمي الأعسر ؛ لأن رميه يقع في جهات متفرقة .
أخذه الشَّـمَـاخُ فقال :

لها منسَم مثل المحارة خفة كأن الحصى من خلفه حذف أعسرا

(١) القطر بضم فسكون : العود الذي يتبخر به .

(٢) المستعر : الصوت في السحر .

(٣) النجل والحذف : الرمي ، والأعسر : من يعمل بيده الشمال .

وقوله فيها أيضاً :

وعَنَس كالأواح الإِيران نَسأتها على لاجب كالبرد ذى الحَبِرات^(١)
شبه الناقة في عظمها بالتابوت الضخم ، وقد حشأ على السير بعصاه على
طريق واضح كالبرد البنى المنقوش .

أخذه طرفه فقال :

أمون كالأواح الإِيران نَسأتها على لاجب كأنه ظهر بُرْجد^(٢)

* * *

وقوله — يصف الثغر — :

منابته مثل السُدوس ولونه كشوك السَّيَال وهو عذب بفيض
شبه لثاتها بالسُدوس — وهو النَّيَّاج — في مَوادها ؛ لأنهم كانوا
يذرون عليها الإِثمد ، وشبه الأسنان نفسها في بياضها بالسيال — وهو
شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن .

* * *

وقوله — يصف جرى الفرس — :

إذا ما جرى شأوين وابتلَّ عطفه تقول هزى الرِّيح مرت بأَنَاب
بالغ في وصفه وجعله على هذه الصفة بعد أن يجرى شأوين ويبتل
عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالاً في صفته بذكر الأَنَاب وهو شجر ، للريح في
أضعاف أغصانه حفيف عظيم ، وشدة صوت .

وقوله في الفرس أيضاً :

كَأَن دِماءَ الهاديات بنحسره عصارَةَ حنَّاء بِشِيب مُرْجَل

(١) العَنَس : الناقة الصلبة ، والإِيران : التابوت العظيم ، والمنسأة : العصا ، واللاجب :
الطريق الواضح .

(٢) الأمون : الناقة التي يؤمن عثارها ، والبرجد : كساء مخطط .

يقول : كأن دماء الهاديات — وهى أوائل الوحش والصيد — على
نحر هذا الفرس ، عصارة حناء خضب بها شيب مسرّح .
شبه الدم الجامد على نحره من دماء الصيد ، بما جف من عصارة الحناء
على شعر الأشيب ، وأتى بالمرجل للقافية .

* * *

وقوله — يشبه فرند السيف بمدب النمل — :
متوسد عصباً مضاربه فى مته كدبة النمل
يدعى صقيلا وهو ليس له عهد بتمويه ولا صقل

* * *

وقوله — يصف العقاب — :
كأن قلوب الطير رطباً ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى
وامرؤ القيس^(١) : هو أول من شبه النساء بالظباء والمها والبيض .
وشبه الخيل بالعقبان والعصى وتيس الحنّس^(٢) .
وشبهها بالظباء والسّرّحان والنعامة^(٣) .
وشبه الحمار بمقلّ الوليد^(٤) . وكر الأندرى^(٥) .
وشبه الطلل بوحي الزبور فى العسيب^(٦) .

(١) الشعر والشعراء — ٥٥ .

(٢) الحلب كسكر : نبات .

(٣) العقد الفريد — ١ — ٨٣ .

(٤) المقلّ والمقلّاة : عود يلعب به الصبيان .

(٥) الأندرى : الحبل الغليظ .

(٦) الوحي : الكتابة ، والعسيب : جريد النخل المستقيم المكشوط الخوص .

ويقول عنه ابن رشيقي : له اختراعات كثيرة يضيق عنها هذا الموضع ،
وهو أول الناس اختراعا في الشعر ، وأكثرتهم توليدا (١)

* * *

ولزهير في البشر عند السؤال :
تراه إذا ما جثته مهلا كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ويقول العسكري : ولو قال : مكان ، إذا ما جثته ، : إذا ما سألته
لكاد أجود .

ويعييه بعضهم بأن تصوير الممدوح بأنه يفرح لو أعطى ما أعطاه للسائل
فيه زراية على قدره وحطة له .

* * *

ولبعض شعراء كندة في مدح عمرو بن هند :
هو الشمس وافت يوم سعد فأفضلت على كل ضوء والملوك كواكب

* * *

ولعمرو بن كلثوم في وصف الثدي من معلقة :
وثديا مثل حُقِّ العاج رخصا حصانا من أكف اللامسينا
ويقولون : إنه أول من وصف الثدي بحق العاج (٢) .
وقد تشكك داود الإنطاكي في ذلك فذكر : أن ما قيل : من أن أول
من وصف الثدي عمرو بن كلثوم ، أمر يحتاج إلى مزيد استقصاء وإحاطة ؛
لأن العرب تغزلت كثيرا ، غاية الأمر أن المتأخرين ألطف (٣) .

(١) الممددة - ١ - ١٧٥ .

(٢) دولة النساء للبرفوقي - ١٥٥ .

(٣) تزيين الأسواق - ٢٨٨ .

وقول أعرابي في امرأة :

قامت تصدّى له عمدا لتقتله فلم ير الناس وجدا مثلها وجدا
بجسد آدم لم تعقد قلائده وناهى مثل قلب الظبي ما نهّدا
فظل كالحائم الهيمان ليس له صبر ولا يأمن الأعداء إن وردا
شبه نديها في نهوده بقلب الآدم - وهو الظبي المشرب لونه بياضا -
في صلابته .

ويقول ابن قتيبة الدينوري : ولا نعلم أحدا شبه الندي بقلب
الظبي غيره (١) .

* * *

وللنابغة الذبياني يعتذر للنعمان بن المنذر :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
وتبعه في ذلك شعراء كثيرون .

* * *

وللأعشى :

كان نعام الدو باض عليهم إذا ريع يوما للصريخ المندّد (٢)
أخذه زيد الخيل فقال :

كان نعام الدو باض عليهم وأعينهم تحت الحديد خوازر (٣)

* * *

ولعنتر في الفرس :

(١) عيون لأخبار — ٢ — ١٨٨ .

(٢) الدو : الفلاة ، والصريخ : اللقيث والمستغيث أيضا ، والمندد بالفتح : التفرق ،
وبالكسر : المصريح بالعبوب .

(٣) الخزر بالفتح : كسر العين أو ضيقها أو صفوها .

نهد القطاة كأنها من صخرة ملساء يغشاها المسيل بمحفيل
شبه القطاة — وهي كفل الدابة ومقعد الرديف منها — في نهودها
وبروزها ، بالصخرة الملساء يغشاها السيل الجارف .

* * *

ولعدى بن زيد العبادى :
لو بغير الماء حلقتى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى^(١)
قال ابن عبد ربه : وهو أول من سبق إلى هذا المعنى^(٢) .

أخذه العباس بن الأحنف فقال :

قلبي إلى ما ضرتني داعي بكثر من همي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوى إذا كان عدوى بين أضلاعي
وقال آخر :

كنت من كربتي أفرّ إليهم وهم كربتي فأين الفرار
وقال آخر :

إلى الماء يسعى من يقص بريقه فقل أين يسعى من يقص بماء

* * *

وللبيد :

من المسبلين الرّبط لندّا كأنما تشرب ضاحي جلده لون مذهب^(٣)
أخذه الأخطل فقال :

لندّ تقبله النعيم كأنما مسحت ترائبه بماء مذهب

(١) الاعتصار : شرب الماء قليلا قليلا لازالة العطش .

(٢) المقد الفريد — ١٨ .

(٣) الربط : الأنواب اللينة الرقيقة .

ولليد أيضاً يذكر قوماماتوا :

ولانا وإخوانا لنا قد تتابعوا الكلمغدى والرائح المتججر^(١)
أخذه بعض المحدثين فقال :

سبقونا إلى الرحيل م ولانا على الأثر

* * *

وله في تشبيه الأباريق بالبط :

تضمن بيضاً كالأوز ظروفها إذا أتاؤا أعناقها والحواصل^(٢)
أخذه شبرمة الضبي فقال :

كان أباريق الشمول عشية أوز بأعلى الطئف عوج الحناجر^(٣)
وأخذه أيضاً أبو الهندي فقال :

سبغني أبا الهندي عن وطب سالم أباريق لم يعلق بها وضر الزيد^(٤)
مقدمة قزاً كان رقابها رقاب بنات الماء تفزع للرعد^(٥)

* * *

ولطرفة بن العبد اختراعات كثيرة في معلقته ، منها قوله في الموت :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكطول المرخى وثنياه باليد
ومنها قوله في السفينة :

(١) المتججر : السائر في الهاجرة .

(٢) أتاؤا السقاء : ملأه .

(٣) الطف بالفتح : موضع قرب الكوفة والجانب والشط .

(٤) الوطب : سقاء اللبن .

(٥) المقدمة التي عليها : الصافي ، وبنات الماء : كل

ظاهر بألف الماء .

يشق حَبَاب الماء حيزومها بها كما قسم التربة المفايل باليد^(١)
أخذه لبيد فقال :

تشق حمائل الدهن يداه كما لعب المقامر بالرفيال
وأخذه الطرماح فقال :
وغدا تشق يداه أوساط الربا قسم الرفيال تشق أوسطه اليد

* * *

وللنابغة الجعدي في وصف الفرس :
كان تماثيل أرساغه رقابٌ وعول على مشرب
شبه أرساغه - وهي سيقانه وأقدامه - في غلظها وانحنائها ، وعدم
الاتصاب فيها ، برقاب وعول قد مدتها لتشرب الماء .
وهو من بدائع التشبيه ، لأنه يستحب أن تكون أرساغ الفرس
غلاظاً يابسة .

* * *

وله في صفة القوس :
كان مقط شراسيفه إلى طرف القنب فالمنقب^(٢)
لظمن بترس شديد الصفا ل من خشب الجوز لم يُنقب
أخذه ابن مقبل فقال :
كأنما بين جنبيه ومنقبه من جوزه ومناط القنب ملطوم
بترس أعجم لم تنخر مناقبه مما تخير في آطامها الروم

(١) المفايل : هو الذي يجمع التراب فيدفن فيه شيئاً ، ثم يقسمه قسمين ويسأل عن الدفين
في أيهما هو ، فن أصاب كسب ومن أخطأ خسر .
(٢) الشراسيف : ما أشرف على البطن من الأضلاع ، والقنب بالضم : جراب قضيب
الدابة ، والمنقب : سرة الدابة .

وللنمر بن تواسب في إعراض المرأة :

فصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضنت بحاجب
أخذه أبو نواس فقال :

يا قرا للنصف من شهره أبدى ضياء لثمان بقين
يريد : أنه أعرض عنه بوجهه فرأى نصفه فقط ، وهو المقدر بضياء
ثمان ليال .

* * *

وله أيضاً .

فإن تك أثوابي تمزقن عن بلسي فإني كمثل السيف في خلق الغمد
أخذه أبو هفان وزاد في معناه فقال :

لعمري لن يئبعت في دار غربة ثيابي إذ ضاقت على الماء كل
فإني كمثل السيف يأكل غمده له حلية من نفسه وهو عاطل

* * *

ولجندب العكلى يصف امرأة :

على قدم مكنونة اللون رخصة وكعب كذفرى جوذر الرمل أدرما
شبه كعبها الأدرم — وهو المستوى — بذفرى الجوذر — وهو العظم
الشاخص خلف أذنه — .

* * *

وللسباح :

تخامص عن برد الوشاح إذا مشت

تخامص حافي الرجل في الأمعز الوجي^(١)

(١) التخامص : النجاء ، والأمعز : المكان الصاب ، والوجي : الذي رق قدمه من المشي .

(م — ٧ فن التشبيه)

وتركيب البيت : تخامص حافي الرجل الوجي في الأمعر .

أخذه ذو الرمة فقال يصف الإبل :

تشكو الوجي وتجافي عن صفائفها تجافي البيض عن برد الدماليج^(١)

* * *

ولامية بن أبي الصلت في عبد الله بن جُدعان :

كريم لا يغيره صباح عن الخلق الجميل ولا مساء

وأرضك أرض مكرمة بنتها بنو تيم وأنت لها سماء^(٢)

أخذه أيمن بن خريم في مدح بني هاشم فقال :

أجعلكم وأقواماً سواء وبينكم وبينهم الهواء

وهم أرض لأرجلكم وأتم لأعينهم وأرؤسهم سماء

* * *

وللمنقَّب العبدى في وصف الناقة :

كان مواقع الثفنات منها معرَّس باكرات الورد جون^(٣)

* * *

ولعمرو بن شاس :

وأسيافنا آثارهن كأنها مشافر قرحى في مباركها هدل^(٤)

أخذه الكميّ فقال :

تشبّه في الهام آثارها مشافر قرحى أكلن البريرا^(٥)

* * *

(١) الصفائف : الحزم من الخوص جمع سفيقة .

(٢) بنو تيم : تيم بن مرة وهط أبي بكر الصديق .

(٣) الثفنات بالكسر : جمع ثفنه ، وهى الركبة ، والجون : السود والبيض والوارد السود هنا

(٤) الهدل : المسترخية .

(٥) البرير : أول ثمر الأراك .

ولبعض شعراء الحماسة :

أناخ اللوم وسط بني رماح مطيته وأقسم لا يريم
كذلك كل ذي سفر إذا ما تنامى عند غايته بقم
وفيهما يقول ابن الأثير : وهذان البيتان من أبيات المعاني المبتدعة ،
وعلى آثارهما مشى الشعراء (١) .

* * *

ولأرطاة بن سُهبة في وصف الخيل :

كان أعينها من طول ما جشمت سيرَ الهواجر زيت في قوارير
أخذه بعضهم فقال :

إن الركائب مخسوف نواظرها كما تضمّنت الدهن القوارير (٢)

* * *

وللاسعر الجعفي في الخيل :

يخرجن من خلل الغبار عوابسا كأصابع المقرور أفعى فاصطلي
أخذه على بن جبلة فقال :

كان خيلك في أنشاء غمرتها أرسال قطر تهاى فوق أرسال
يخرجن من غمرات الموت سامية نشر الأنامل من ذى القرّة الصالى (٣)

* * *

وللشميرى - يصف طيب المواضع التى شئ فيها الحبيب - وهو

أول من فعل ذلك - :

(١) المثل السائر - ١٤٩ .

(٢) مخسوفة النواظر : غائرة .

(٣) القرّة بالسكسر : شدة البرد .

تضوِّع مسكا بطن نَعْمَان أن مشيت به زينب في نسوة عطِّرات (١)

* * *

ولبشار بن برد :

جفت عيني عن التغميض حتى كان جفونها عنها قصار

* * *

ولآخر :

ومولى كان الشمس بيني وبينه إذا ما التقينا ليس بمن أعاتبه

يقول : لا أقدر على النظر إليه من بغضه ، فكأن الشمس بيني وبينه .

* * *

ولمسلم بن الوليد :

إذا ما نكحتنا الحرب بالبيض والقمنا جعلنا المنايا عند ذاك طلاقها

* * *

وله :

تنال بالرفق ما تعبنا الرجال به كالموت مستعجلا يأتي على مهل

* * *

ولأبي نواس في الخمر :

أيها الرانحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شمما

نالني باللامم فيهما إمام لا أرى لي خلافة مستقيما

فاصر فاما إلى سواي فإني لست إلا على الحديث نديما

كبر حظي منها إذا هي دارت أن أراها وأن أشم النفسيا

(١) زينب : أخت الحجاج .

فكأنى وما أزيّن منها قَعْدَى يزّين التحكيما
كلّ عن حمله السلاح إلى الحرّ ب فأوصى المطيع ألا يقبها
والشاهد في البيتین الآخرین ، والقعدى بفتح القاف والعين هو الذى
يرى رأى القعد بالتحريك وهم الخوارج .
وعند ابن الأعرابي : أنه جمع قاعد كحارس وحرس .
وهذه الفرقة المسماة بالقعدة ، كانت ترى الخروج وتأمر به ، ولكنها
تقعد عنه .

وله :

وخدين لذات ، معلّل صاحب يقات منه فكاكة ومزاحا
قال ابغى المصباح قلت له اتدّ حسبي وحسبك ضوءها مصباحا
فسكبت منها فى الزجاجه شربة كانت له حتى الصباح صباحا
وله :

لا ينزل الليل حيث حلّت فدهر شُرّابها نهار
حتى لو استودعت سرارا لم يخف فى ضوءها السرار^(١)
يريد أنها من شدة ضوءها لو أودعت السرار - وهو آخر ليلة من
الشهر - أى لو أودعت ما ليس شيئا لم يخف ذلك فى ضوءها ، وهو من
الإغراق .

وله :

وخمار حطّطت إليه ليلا قلائص قدورين من السّفار^(٢)
لججم والكرى فى مقلّته كخمور شكا ألم الخمار

(١) السرار بالفتح والكسر .

(٢) القلائص : النوق الشواب .

أبن لي كيف صرت إلى حريمي وجفن الليل مكتمل بقار
فقلت له ترفق بي فاني رأيت الصبح من خلل الديار
فكان جوابه أن قال صبح ولا صبح سوى ضوء العقار
وقام إلى العقار فسدّ فاها فعاد الليل مصبوغ الإزار
وله :

كان يواقيتا رواكد حولها وزُرق سنانير تُدير عيونها
وله :

ترى حيثما كانت من البيت مَشْرِقا وما لم تكن فيه من البيت مغربا
إذا عبّ فيها شاربُ القوم خلته يقبّل في داج من الليل كوكبا
أخذه ابن الرومي فقال وأحسن :

ومهمّف تمت محاسنه حتى تجاوز مُنية النفس
وكانه والكأس في فمه قر يقبّل عارضَ الشمس^(١)
فجعل الشارب قرا ، وليس ذلك في بيت أبي نواس .
وله :

شككتُ بزّالها والليل داج فسال إلى عَيّوق الظلام^(٢)
شبه الحجرة في مهرتها حينما انسكبت من الزق بعد ثقبه بالمبزل بالعيوق ،
وهو نجم أحمر مضيء في طرف الحجرة .
وله :

فتعزيت بصرف عُقار نشأت في حجر أم الزمان

(١) العارض : صفحة الخد .

(٢) البزال بالضم : موضع البزل وهو الشق .

فتناساها الجديدان حتى هي أنصاف شطور الدنان^(١)
 فافترعنا مِرَّةَ الظم فيها نَزَقَ البكر ولين العَوان^(٢)
 واحسبنا من عتيق رقيق وشمديد كامن في لِيان
 لم يَجُفِّها مِزَلُ القوم حتى نجمت مثل نجوم السَّنان^(٣)
 أو كعرق السام تفشق عنه شُعَب مثل انفراج البنان^(٤)
 شبهها في البيتين الأخيرين حين شق دنها عنها ، وانبثقت فصارت شعبا
 بالسنان اللامع ، وعروق الذهب إذا انفرجت انفراج الأصابع .

وله :

من شراب الذم من نظر المعشوق م في وجه عاشق بابتسام
 وله :

وكانها إنعام نُحْلَة عاشق بالبذل بعد تعسر ومكاس

* * *

وله في وصف الخمارات المسيحيات ، ويروى لابن المعتز :
 وتحت زناير شددن عقودها زنايرهُ أعكان معاقدها الشرر

* * *

وله في هجاء إبليس :

دب له إبليس فاقتاده والشيخ نفاع على لعنته
 عجب من إبليس في تبه وعُظم ما أظهر من نخوته

(١) الجديدان : الليل والنهار .

(٢) الافتراع : الكناية عن أنهم أول من باشر بها .

(٣) جافة : بلغ جوفه .

(٤) السام : عرق الذهب .

ناه على آدم في سجدة وصار قوادا لذريته

وله في هجاء إسماعيل بن أبي سهل :

خبز إسماعيل كالوشى م إذا ما شُقَّ يُرْفَا
عجبا من أثر الصنعة م فيه كيف يخفى
إن رَفَاكَ هذا أحذق الأمة كفا
فإذا ما ألصق بالنصف م من الجردق^(١) نصفا
الطف الصنعة حتى ما ترى مفرز إشنى^(٢)
مثلا ما جاء من التنو ر ما غادر حرقا
وله في الماء أيضا عمل أبدع ظرفا
مزجه العذب بماء البئر م كي يزداد ضعفا
فهو لا يسقيك منه مثلا يشرب صرفا

ولأحمد بن يوسف :

عذب الفراق لنا قبيل وداعنا ثم اقتبلناه كسم نافع
وكأنما أثر الدموع بخدها طل سقيط فوق ورد يانع
وقد قال أبو بكر الصولى : هو أول من أفصح عن هذا المعنى^(٣).

(١) الجردق : الرغيف .

(٢) الإشنى : الثقب .

(٣) الأوراق - ١ - ٢٢١ .

وللعباس بن الأحنف :

أحرّم منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرت كاني ذبالة نُصبت تُضي للناس ثم تحترق

* * *

ولخالد الكاتب :

بكي غاذلي من رحمتي فرحمته وكم مثله من مُسعد ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني

* * *

ولأبي - تمام والتشبيهه ضمني - :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للسكان العالی

* * *

وقوله :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا إن السماء تُرجّى حين تحتجب

* * *

ولابن الرومي :

غدا الدهر يرميني فتدنو سهامه لشخصي وأخلق أن يهين سواديا
وكان كرامي الليل يرى ولا يرى فلما أضاء الشيب شخصي رمانيا

ويقول المرتضى في البيت الأخير : إنه أبدع فيه وأغرب ، وما علمت
أنه سبق إلى معناه لأنه جعل الشباب كالليل الساتر على الإنسان ، الحاجز
بينه وبين من أراد رميه لظلمته ، وجعل الشيب مبديا مقاتله هاديا إلى
إصابته لضوئه وبياضه ، وهذا في نهاية الحسن .

وأراد بقوله رماني: أصابني^(١).

* * *

وله :

عيني لعينك حين تنظر مقتل لكن لحظك سهم حتف مرسل
ومن العجائب أن معنى واحداً هو منك سهم وهو مني مقتل

* * *

وله في العتاب :

توددت حتى لم أدع متودداً وأفيت أفعلى عتاباً مردداً
كأنى استدعى بك ابن حنيفة إذا النزع أدناه من الصدر أبعداً^(٢)

* * *

وله :

كل الخلال التي فيكم محاسنكم تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كانكم شجر الأترج طاب معاً

حملاً وتوزراً وطاب الأصل والورق^(٣)

وشجر الأترج يضرب مثلاً لما طاب أصله وفرعه وكل شيء فيه ،
وهو أول من شبه به .

* * *

وللبحتري :

(١) أمالي المرتضى ١ - ١٧٣ .

(٢) ابن حنيفة : كناية عن القوس .

(٣) رواية الديوان : طاب الدود .

يمشون في زَرَد كأن متونها في كل معركة متون نهـاء^(١)
 يبيض تسيل على السكاه نصولها سيل السراب بقفرة يبداء
 وإذا الأسنة غالطتها خلتها فيها خيال كواكب في ماء
 والشاهد في البيت الأخير .

* * *

ولعلي بن جبلة :
 تكفّل ما كنّ الدنيا حميد فقد أضحت له الدنيا عيالا
 كان أباه آدم كان أوصى إليه أن يعولم فعلا
 ولا بن المعتز في طول الليل :
 أقول وقد طال ليل الموم وقاسيت حزن فؤاد سقيم
 عسى الشمس قد نُسخت كوكبا وقد طلعت في عداد النجوم

* * *

وله :
 إذا الهلال فارقه ليلته بدا لمن يبصره وينعتيه
 كهامة الأسود شابت هامته

* * *

وله :
 دمعني تعلم وجدى واشتياقي فسلها
 لي من ذكراك مرآة أرى وجهك فيها

* * *

(١) نهـاء بالكسر : جمع نهى بالكسر والفتح وهو ، الندير أو شبهه .

وله في وصف الخمر :

علّ عُقارا صفراء تحسبها شبيبت بمسك في الدن مفتوت
الهاء فيها كتابة عجب كمثل نقش في فصرّ ياقوت

ولابن هاني :

وكان صفحة خده وعذاره تفاعه رميت لتقتل عقربا^(١)

وللمتنبي :

كريم لفظت الناس لما لقيته كأنهم ما جفّ من زاد قادم^(٢)
وكاد مروري لا يفي بندامتي على تركه في عمري المتقادم

وله :

أجزني إذ أنشدت شعراً فإنما بشعري أذاك المادحون مردّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

وله :

كان الهام في الهيجا عيون وقد طُبعَت سيوفك من رقاد

وله :

ولو استطعت إذا اغتدت رؤّادهم لمنعت كل سحابة أن تقطرا

(١) يريد بالعقرب : شعر الصدغ المتنوي.

(٢) هذه رواية القيمة وفي الديوان : بلغته

فإذا السحاب أخو غراب فراقهم جعل الصياح بينهم أن يُمطرا
جعل السحاب أخا غراب البين في التفريق ، لأن صياح المطر : أعنى
سقوط الغيث منه ، كان سببا في ارتحالهم للجمعة ، كما أن صياح الغراب يكون
سببا للفراق :

* * *

وله :

فقر الجاهل بلال إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

* * *

وله :

كان العيس كانت فوق جفنى مُسناخات فلما مُثرون سالا (١)
يريد : كنت لا أبكى قبل فراقهم ، فكأن مطاياهم كانت مناخة فوق جفنى
تحبس دمعته عن الانسكاب ، فلما رحلوا سال دمعى ، فكأنها نهضت من
فوق جفنى .

والمعنى فى غاية الدقة ، وقد حكى : أن البيت ترجم للملك الروم فقال :
ما سمعت بأ كذب من هذا الشاعر !

أرأيت من يذبح الجمل على عينيه ولا يهلكه (٢) !

. . .

وله :

برغم شبيب فارق السيف كفه وكانا على العـلات (٣) يهـطـحـبان
كان رقاب الناس قالت لسيفه رفيقك قيسى وأنت يمانى

(١) العيس : السكرام من الإبل وتكون بيضاء تحاطها شقرة ، ويروى : العير .

(٢) المثل الثائر — ١٢٩ .

(٣) العلات بالسكسر . جميع الأحوال

يريد شيئاً العقيلي وقد خرج على كافور الإخشيدي بدمشق فقتله .
 والمعنى : أن رقاب الناس لكثرة قطع شبيب إياها ، أغرت بينه وبين
 سيفه لتفرق بينهما حتى تستريح من شره ، فقالت لسيفه : صاحبك من قيس
 وأنت منسوب إلى اليمن فكيف تأتلفان !
 والتنافر بين قيس واليمن معروف ، وبلغ أشده في زمن الأمويين بحكم
 سياسة فرق تسد .

• • •

وله :

فإن تفق الانام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

* * *

وله في وصف الحمى — وقد ذكر أم أعراضها المعروفة في الطب — :
 وزائرتي كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام^(١)
 بذلت لها المطارف والحشايا فعاقها وباتت في عظامي^(٢)
 يضيق الجلد عن نفسي وعنهما فتوسعه بأنواع السقام
 كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام^(٣)
 أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
 ويصدق وعدّها والصدق شر إذا ألقاك في الكسرب العظام

* * *

(١) لأن حرارة الحمى ترتفع بالليل خاصة .

(٢) المطارف : الأردية من الخز ، والحشايا : الفراش الحشو .

(٣) يريد بالأربعة السجام : مجارى الدموع من الموقين والحاطين ، والدمع عادة يجري من الموقين — وهما مما يلي الأنف — فإذا كثر جرى من الحاطين — وهما مما يلي الصدغ — .

وله - من قصيدة يمدح بها عضد الدولة ويدعو لولديه - :
 فعاشا عيشة القمرين يُحيا بضوئهما ولا يتحاسدان
 ولا مَلَكَا سوى ملك الأعادي ولا ورثا سوى من يقتلان
 وكان ابنا عدو كآراه له ياءى حروف أنيسيان^(١)
 يدعو لهما الا يملكا غير ملك الأعداء ، ولا يرثا إلا من يقتلانه منهم .
 وهو دعاء ضمنى لأبيهما بطول العمر .

ثم يدعو لهما أيضا بأنهما إذا فآخرا عدوا بكثرة العدد ، أن يكون
 ابنا ذلك العدو الذى يقابلهما عنده ، بمنزلة ياءى التصغير فى لفظ « أنيسيان ،
 تصغير لإنسان على الشذوذ ، فإن هذه الزيادة زيادة فى الاسم فقط ، ونقص
 فى المسمى لأنه تصغير تحقير ، فهى زيادة صائرة إلى الخسة والضعف
 والمهانة .

والمعنى دقيق جميل ، ولا عيب فيه إلا أن نسج البيت معقد ، خشن
 السبك ، خال من الروق الشعرى .

* * *

وللفقيه بن قالوص فى المقص :
 إعطاء مثلى للمقص نقيصة وأرى إعارتها أجلّ العار
 إن المقص حكمت بصورة شكلها « لا » والجواد بلا : لثم نجار
 وقال بعض الشعراء فى ذمها :
 إن شأن المقص قطع وصال فلماذا يضيع بين الجلوس
 وترى الإبرة التى توصل القطع بعز مغروسة فى الروس
 يشير إلى عادة الخياطين برشق الإبرة فى رؤوسهم ، كما يضع الكتاب
 القلم على آذانهم .

(١) الضمير فى له العدو ، وباءى : خبر كان .

وقد أخذه ابن يعقوب فقال :

فاخرت إبرة مقصا فقالت لي فضل عليك باد مسلم
شأنك القطع يا مقص وشأن وصل قطع شتان إن كنت تعلم
ويقول ابن بسام : وقد نهى بعض الظرفاء من الأدباء عن إهداء
المقص واستهدائها .

ثم قال في البيت المتقدم : وهذا من الاختراع والتشبيه المطبوع (١) .

* * *

وللاختيال الأهوازي في الشقائق :

هذي الشقائق قد أبصرت حمرتها مستشرقات على قضبانها الزائل
كأنها دمة قد مسحت كحلا جالت به وقفة في وجنتي خجيل
إلا أنه كما يقول العسكري : أورده في أهجن معرض ، وفي أشد
ما يكون من التكلف ، وأنى بالمحال لأن الوقفة لا تجول (٢) .

* * *

وللمصاحب بن عباد في خط العارض ، العذار ، :

قلت وقد قيل بدا شعره يمثل ذاك الشعر لا يشعر
هل زغيب الحسن له ضائر ذا القمر السَّم به يُقمر (٣)

* * *

ولابن عبد ربه - وقد وصف الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم عليه ،
ومعنى بديع لا نظير له - :

(١) الذخيرة - ٢ - ٢٨٥ .

(٢) ديوان المعاني - ٢ - ٢٥٠ .

(٣) الزغب : أول ما يبدو من الشعر ، وأقر القمر : صار بدرا .

وجيش كظهر اليم تنفحه الصَّبا يُعْبُّ عُباباً مِنْ قَنَا وَقَنَابِلٍ (١)
فتنزل أولاه وليس بنازل وترحل أخراه وليس براحل
ومعترك ضنك تعاطت كانه كشمس دماء من كلَى ومفاصل
يديرونها راحا من الراح بينهم يبيض رفاق أو بسمر ذوابل
وتُسمِعهم أم المنية وسطها غناء صليل البَيْض تحت المناصل (٢)

* * *

ولكُشاحهم :

قلت وقد أبصرتها حاسرا عن ماقها فاضلُ سربالها
لو لم يكن من بَرَد ساقها لاحترقت من نار خَلْخالها (٣)

* * *

وللمسكرى - والتشبيهه ضمني - :

لهيب قلبي أفاض الدمع من بصرى والعود يقطر ماء حين يحترق

* * *

وله يهجو :

وقفت لديكم للسلام عليكم وقوفي على أطلال سلمى وعائكة
يروءك تسليم العُصفاة كأنه بوادر طمن في الضلوع مُواشكة
وما فيكم حرٌّ يكرّم ضيفه ولكن إذا ماشاء أكرم نائله
وإن كنتم نامسا - وما أنتم به - فإن القروود والكلاب ملائكة

* * *

(١) القنابل : الطائفة من الحيل .

(٢) أم المنية : كنية الحرب .

(٣) لأن خلخالها من الذهب فله أشعة كأشعة النار .

ولابي العلاء :

وهواك عندي كالغناء لأنه حسن لدى ثقيله وخفيفه
وأبو العلاء أكثر الشعراء ابتكاراً للبعاني ، بسلوكة طرائق شتى لم
يسلكوها في الشعر ، أمدته بفيض زاخر من الأفكار الطريفة ، ولم تقف
به عند مناهج المتقدمين في الشعر التقليدي .

* * *

ولابن محمد يس المصلى في هلال آخر الشهر :

كأنما أدهم الظلماء حين نجى من أشهب الصبح ألقى نعل حافره
وقد وصفه ابن الأثير : بأنه أتى فيه بما لم يأت غيره ، وأنه من الحسن
واللطف في الغاية القصوى^(١) .

* * *

ولابي بكر الوراق :

بدر له إشراق شمس على غصن ممي قلبي بنوعين
يكاد من لين ومن رقة في خصره ينقد نصفين
إدباره يفسيك إقباله كأنما يمشي بوجهين

* * *

وله في الخمر والكأس :

قم يا غلام فهاهما في كأسها كالجسنة في جني نسرين^(٢)

(١) المثل السائر — ١٢٥ .

(٢) الفسرين بالكسر : نور أبيض وردى يشبه شجرة شجر الورد ، وسماه بعض الناس ورداً صيفياً .

أو ما رأيت هلال شهرك قد بدا في الأفق مثل شعيرة السككين^(١)
ولبعض المغاربة فيها أيضا :
ثقلت زجاجات أتننا فُرغا حتى إذا مُلئت بصرف الراح
خفّت فكادت أن تطير بماحوت وكذا الجسم تخف بالآرواح
وهذا معنى مبتدع يقول فيه ابن الأثير : إنه يفعل بالعقول فعل الخمر
سكرا ، و يروق كما راقط لطفًا ، ويفوح كما فاحت نشرًا^(٢) .
وللأرّجاني :

رثا لي وقد ساويته في نحوه خيالي لك لم يكن لي راحم
فدّلس بي حتى طرقت مكانه وأوهمت إني أنه بي حالم
وبقنا ولم يشعر بنا الناس ليلة أنا ساهر في جفنه وهونائم

* * *

ولابن سهل الأندلسي :
كان القلب والسلوان دهن يحوم عليه معنى مستحيل

* * *

وللحموي :
وعلى ظهور الخيل ماتو خيفة فكان هاتيك السروج مقابر

* * *

وله

(١) شعيرة السككين : هنة تصاغ من فضة أو حديد على شكل الشعيرة ، تكون مساكًا
لنصاب النصل .

(٢) المثل السائر — ١٣٠ .

والغصن يحكي النون في ميلانه وخياله في الماء كالشون

ولشاعر المعروف بالحافظ في البهار :

عيون تبر كأنما سرقت سواد أحداقها من الفسق
فإن دجا ليها بظلمته ضُمن من خوفها على السرّ (١)

ولأبي الحسن الأنباري :

كان الشموع وقد أظهرت من النار في كل رأس سنانا
أصابع أعدائك الخائفين تضرع تطلب منك الأمانا
ومثله ما حكاه ابن خلكان : من أن المعز بن باديس كان يوماً جالساً
في مجلسه ، وعنده جماعة من الأدباء وبين يديه أترجة ذات أصابع ، فأمرهم
أن يعملوا فيها شيئاً .

فقال ابن رشيق :

أترجة سبطة الأطراف ناعمة تلقى العيون بحسن غير منحوس
كأنما بسطت كفاً لخالقها تدعو بطول بقاء لابن باديس
فاستحسن منه ذلك ، وفضله على من حضر من الجماعة .

ولابن قلاقس :

زد رفعة إن قيل ألق م وانخفض إن قيل أرى
كالغصن يدنو ما اكتسى ثمراً وينأى ما تعرى

(١) السرقة بفتح الراء شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة .

ولشاعر :

ألا يا بغلة الشطرنج م في القيمة والقامة (١)

ولآخر :

ولى سنة لم أدر ما سنة الكرى كمان جفوني مسمّع والكرى عدل

ولآخر يصف قدرته على اختراق الحجاب الصعب :

كالطيف أبى دخول الجفن منفجاً وليس يدخله إلا إذا انطبعا

ولبعض المغاربة :

غدرت به زرق الأسنة بعدما قد كن طوع يمينه وشماله
فليخذر البدر المثير نجومه إذ بان غدر مثالها بمثاله

ولشوقي :

ومصر كالكرم ذى الإحسان فأكه لحاضرين وأكوابا لبادينا

وله في شعر شكسبير :

من كل بيت كآى الله مسكنه حقيقة من خيال الشعر غراء

(١) بغلة الشطرنج : يشبه بها القصير الدنىء الساقط .

وكل معنى كعيسى في محاسنه جاءت به من نبات الشعر عذراء

* * *

وللرصاصي^(١) - يصف قصر البحر في بيروت : -

كان الموج في الدأما رجال وهذا القصر بينهم خطيب^(٢)
تخاطبهم مبانيه فيعلو من الأمواج تصفيق رحيب

* * *

وله في وصف الشمس والشفق :

يحكي دم المطلول مازج أدما هملت بها عين اليتيم همولا
رقت أعاليه وأسفله الذي في الأفق أشبه عصفرا محولا^(٣)
كالخود ظلت يوم ودع إلفها تنو وترفع خلفه المنديلا

* * *

وله يشكو :

كان نجم السها أديب في أرض بغداد ذو ثواء
كأنما أنجم الثريا في شكلها الباهر الضياء
قُفَّاز كف به فصوص من حجر الماس ذى الصفاء

* * *

وله في رثاء أستاذه محمود شكرى الألومى :

أما العراق فأمسى الرافدان به سطرين للدمع في خديه قد سالا^(٤)

(١) كتاب معروف الرصاصى - ١٦٢ .

(٢) الدأما : البحر .

(٣) العصفرا بالضم : زهر القرمز .

(٤) الرافدان : دجلة والفرات .

والشاعر القروى^(١) رشيد سليم خورى - يصف الشعرة البيضاء - :
كان الشعور السود أعصر ظلمة بدا بينها عصر أغر مجيد
كان سواد الفؤاد حيرة جاهل تصدى لها رأى أجلّ سيد
تجلّت على عرش الشباب كسيد حواليه من سود الشعور عبيد
وقوله :

يرىكم إبائى أن « روتشله » والدى وما ملكت كفاى من ماله شروى
وأبدى وفائى قبل صنع جميلكم كأن وفائى فى محبتكم رشوى
وقوله - يصف المقلة والنهد - :

فكان مقلتها وبارز نهدها متواضع يرنو إلى متكبر
وقوله :

هم يزول بمثله والشوك ينزع بالإبر

وقوله :

وكان النجوم شعرة بديع لا غموض فيه ولا إبهام
وقوله :

وأعود بين قلفشت وتطلّع والليل جسر بين أمسى والغد
هذا ويقتضينا الإنصاف أن نصرح بأن شعراء المهجر فى الدنيا الجديدة
من سوريين ولبنانيين ، تكثروا فى أشعارهم صور البيان المبتكرة على اختلاف
ألوانها ، وهذا شىء طبعى لأن القلب فى البلاد والضرب فى زحمة الناس ،
يفتح للشاعر آفاقا جديدة ، ويتيح له رؤية مناظر جديدة ، والوقوف على
عادات وأخلاق جديدة ؛ ويخرجه من حالة الركود والجود التى يعيش فيها

(١) من ديوان القروى المطبوع بالبرازيل .

إلى حياة فيها خصب وقوة وقلق وتوئب وانبعاث ، هذا إلى ما تذكىه الغربة في نفسه من حنين لا يفتر إلى وطنه الأصلي ، وشوق عارم إلى رؤية الأهل والأصدقاء ، ومآلف الأحباب ، ومعاهد الطفولة ، ومرائع الصبوة والغرام وكما يكون الاختراع في الشعر يكون في النثر ، فمن ذلك : أن عبد الملك ابن مروان ، بنى بابا من أبواب المسجد الأقصى ببית المقدس ، وبني الحجاج بابا إلى جانبه فجاءت صاعقة فأحرقت الباب الذي بناه عبد الملك ، فتطير لذلك وشقّ عليه !

فبلغ ذلك الحجاج فكاتب إليه يقول : بلغني كذا وكذا ، فليهن أمير المؤمنين أن الله تقبل منه ! وما مثله ومثلي إلا كائني آدم إذ قرّبا قربانا فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر ^(١) .
فلما وقف عبد الملك على كتابه سرّى عنه .

وهذا معنى غريب استخرجته الحجاج من القرآن الكريم ^(٢) .
هذه نبذة من ابتسكار الشعراء في عصور مختلفة استخرجناها من مظانها ، وأكثرها مما وقع عليه إجماع النقاد .

ويجب أن يعرف أن الابتسكار ليس حتما على الشاعر وإن حسن وقوعه منه ؛ لأن وظيفة الشاعر التي خلق لها أن يحمّد آلامنا وآمالنا ، ويترجم أفكارنا ومشاعرنا وعواطفنا وكل ما يعتلج في صدورنا ، ويتنلج في نفوسنا مما نحسّه في داخلنا ، ونعجز عن الإعراب عنه ؛ لقصر أداتنا وضيق وعائنا ، فالشاعر مرآة صقيلة لعصره ، وبوق أمين لمجتمعه ، فحسبه أن ينقل صورة العصر ، ويتحدث بصوت المجتمع ، وهذا شيء ليس بالقليل .

(١) يشير إلى قصة هابيل وقايل المشهورة .

(٢) للثل السائر — ١٢٧ .

والشاعر الكبير يشيد المعابد الضخمة ، ويبني الهياكل الرائعة والجواسق الجميلة ، ولكن ليس عليه استحضار الأحجار وجلب الصخور ، ونحتها وصقلها وإعدادها للبناء ، ولا بأس أن تستورد له الأعمدة ومائير ما يلزمه في إقامة أبينته الفنية ، وتشيد صروحها الخالدة .

والشاعر الحق ينتفع من مجهودات العالم ، ويستثمر الأفكار التي يصل إليها الفيلسوف عن طريق التجريد ، ويبحث فيها الموسيقية الساحرة ، ويسبغ عليها الجمال الفني الرائع ، وليس على الشاعر ابتكار أفكار العصر وخلقها وإنما هو من عمل الفيلسوف والعالم ، وعلى الشاعر التغني بتلك الأفكار وأن يشعر ويُسعر بها^(١) .

ولا شك أن الاختراع في صور البيان يختلف باختلاف العصور وحظها من انتشار الثقافة وتقديم المعارف ، ورقى العقول والأفكار ، واستبحار الحضارة والمدنية .

وقد اعترف ابن رشيق : بأن عصره — وهو القرن الخامس الهجري — كان قليل النصيب من الاختراع ، فنسمعه يقول : وما زالت الشعراء تخرع إلى عصرنا هذا وتوَلد ، غير أن ذلك قليل في هذا الوقت^(٢) .

وقد تعصب ابن أفلح البغدادي للمحدثين فذكر في مقدمته : أن المعاني المبتدعة ليس للعرب منها شيء ، وإنما اختص بها المحدثون .

ثم ذكر معاني المحدثين وقال : هذا المعنى لفلان وهو غريب ، وهذا القول لفلان وهو غريب .

وقد رد عليه ابن الأثير : بأن تلك الأقوال التي خص قائلها بأنهم ابتدعوها قد سُبِقوا إليها ، وأنه فيما ذهب إليه إما أن يكون غير عارف بالمعنى الغريب ، وإما أنه لم يقف على أقوال الناظمين والنائرين ، وطريقة

(١) على هامش الأدب والنقد — ١٤٧ .

(٢) العمدة — ١ — ١٧٦ .

تحريها حتى يعرف ماقاله المتقدم مما قاله المتأخر .

ثم يقول : وأما قوله : إنه ليس للعرب معنى مبتدع وإنما هو للمحدثين ،
فياليت شعري من السابق إلى المعاني ؛ من تقدم زمانه أم من تأخر زمانه ؟
ثم ساق أمثالا للعرب نسج على منوالها المحدثون ، واستدل على فساد
ماذهب إليه ابن أفلح : بأن أول من بكى الديار في شعره ابن حزام
باعتراف امرئ القيس ، وأن لامرئ القيس في صفات الفرس أشياء
كثيرة لم يسبق إليها ولا قبلت من قبله .

ثم يقول : ولو قال ابن أفلح : إن المحدثين أكثر ابتداعا للمعاني والطف
مأخذاً ، وأدق نظراً لكان صواباً ، لأن المحدثين عظم الملك الإسلامي
في زمانهم ، ورأوا ما لم يره المتقدمون^(١) .

ولا شك أن ابن أفلح قد تطرّف جداً في رأيه ، ولا أدري كيف يصدر
هذا من حصيف مثله ، وكيف يعقل أن نجرد جيلا كاملا من الناس من
الابتكار ولو في أدنى درجاته ، ولا سيما إذا كان هذا الجيل قد أخذنا عنه
لغته بجميع خصائصها .

الفصل الخامس

التشبيهات القبيحة

يعرض القبح للتشبيه كما يعرض لغيره من صور البيان ، فتشيل درجته في ميزان البلاغة ، ويوصف قدره بالضعف والسَّفَل .

ومما يلاحظ أن التشبيه بين ألوان البلاغة ممعن في الترف ، كثير الأناقة شديد الحساسية ، رقيق المزاج ، ومن أجل ذلك يظهر فيه العيب الطفيف وتبين عليه الهجنة الخفية .

وأريد بالقبح هنا ما يعرض للتشبيه من مثالب ، لاتصل إلى درجة الخطأ الذي أفردنا له باباً خاصاً .

وهذا القبح أنواع كثيرة ، يرجع بعضها إلى الألفاظ المفردة ، وبعضها إلى الصياغة والسبك ، وبعضها إلى المعنى ، وبعضها إلى الخيال ، إلى غير ذلك مما يضع من شأن الكلام ، ويبعده عن الوصف بالبلاغة .

فمن ذلك قول امرئ القيس :

وَمِنْ كُسْنَيْقٍ سَنَاءٌ وَسُسْتًا ذَعَرْتُ بِمَدْلَاجِ الْمَجِيرِ نَهْوَضَ

نقل الباقلائي : أن الأصمعي قال : لا أدري ما السنّ ولا السنيق ولا السنم .

وقال بعضهم : السنيق : أكمة .

وقال الخفاجي : لم يعرفه الأصمعي ولا أبو عمرو وقال : هو بيت مسجدى : يريد من عمل أهل المسجد .

وقال غيرهما : سنيق : جبل ، وسمن : هي البقرة ، فأما السن فهو الثور (١) .

* * *

وقوله :

فظل العذاري يرتمين بلحمها وشحم كهدّاب الدّمقس المقتل
عابه الباقلاني : بأنه عرّف اللحم ونكسر الشحم فلا يعلم أنه وصف شحمها .
وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع ، وعجز عن تشبيه القسمّة الأولى
فهرت مرسلّة .

وهذا نقص في الصنعة ، وعجز عن إعطاء الكلام حقه .

وفيه شيء آخر ، وهو أنه وصف طعامه الذي أطعم من أضاف بالجودة
وهذا قد يعاب .

وقد يقال : إن العرب تفخر بذلك ولا يرونه عيباً ، وإنما الفرس
هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً .

وأما تشبيه الشحم بالدمقس ، فشيء يقع للعامة ويجرى على ألسنتهم ،
فليس بشيء قد سبق إليه ، وإنما أراد « المقتل » للقافية وهذا مفيد .

ومع ذلك فليست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ، ولم يعد أهل الصنعة
ذلك من البديع ورأوه قريباً .

وفيه شيء آخر ، وهو أن تبجّجه بما أطعمه للأحباب مذموم ، وإن
سوغ التبجح بما أطعمه للأضياف ، إلا أن يورد الكلام مورد المجون ، وعلى
طريقة أبي نواس في المزاح والمداعبة (٢) .

* * *

(١) أسرار الفصاحة — ٦٦ .

(٢) إعجاز القرآن — ١٣٥ — ١٧٠ .

وقول بشر بن أبي حازم :

وجر الرامسات بها ذيو لا كان شمالها بعد الدبور^(١)
رماد بين أظآر ثلاث كما وشم النواشر بالنشور^(٢)
شبه ربح الشمال والغرب بالرماد ، والبعد والانهام فيه لا يخفى .

* * *

وقول عامر بن معشر بن أسحم - يصف أسيراً أسروه - :

فظل يُخالس المذقات فينا يُقاد كأنه جمل رقيق
وقد عابه الأصمعى وغيره .

وذلك أنه وصف أسيرهم بأنه جائع يخالّس القليل الممذوق من اللبن ،
ولمّا ذلك من الجهد^(٣) .

* * *

وقول علقمة بن عبدة :

كانهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن ديب

* * *

وقوله :

يحملن أترجة نضح العبير بها كان تطيبها في الأنف مشموم
وقد وصف المرزبانى هذه الأبيات بأنها مستكرهة الألفاظ ، قلقه
القوافى ، رديئة النسيج ، فليست تسلم من عيب يلحقها في حشوها أو قوافيها
أو ألفاظها أو معانيها^(٤) .

(١) الرامسات : الرياح تحثو القراب ، والدبور : الريح تهب من الغرب .

(٢) الأظآر : يربد بها الأنفى ، والنواشر : عروق وعصب بامان الذراع ، النشور

كصبور : التيلج .

(٣) العمدة — ٢ — ١١٢ .

(٤) اللوشح — ٩٠ — ٩١ .

وقول زهير - يصف صقراً يطارد قطاة - :

فزل عنها ووافى رأس مرقبة

كنصب العتر دمى رأسه النسك^(١)

* * *

وقول خفاف بن ندبة :

أبقى لها التعبداء من عتداتها ومتونها كخيوط الكتان^(٢)

يريد أن قوائمها دقت حتى عادت كخيوط الكتان .

وأراد ضلوعها فقال : متونها .

* * *

وقول أوس بن حجر في الناقة :

كان هرأ جنيباً عند غرضتها والتف ديك برجليها وخزير^(٣)

يقول : كان هرأ مقوداً عند صفحة خدها يחדشها فتغذ في السير .

وكان ديكا وخزيراً التفأ برجليها ، فهي من خوفها تمن في الإرقال .

وفي معنى الشطر الأول يقول عنقرة :

هر جنيب كلما عطفت له غرضي اتقاها باليدين وبالفم

يصفها بأنها تتنحى وتتباعد غرضي ، خوف سنور مجنوب إليها ، فكما

عطفت إليه غرضي لتعضه ، استقبلها بالחדش بيده والعض بفمه .

* * *

(١) زل عنها : أى سقط الصقر عن القطاة ، والمرقة : المكان المرتفع ينظر منه الرقيب .
والنصب كمنبر : أصل الشيء ، والعتر بالكسر ، الصم وكل ما ذبح ، وشاة كانوا يذبحونها
لأهلهم كالعتيرة ، والنسك بالضم : الدم .

(٢) التعداء : العدو ، والتعدا : القوائم .

(٣) الغرضة بالضم : حزام الرجل ، والجنيب : القود .

وقول لبيد :

ما عاتب الحرَّ الكريم كأصله والمرءُ يُصلحه الجليس الصالح
وقد قالوا فيه : إنه جيد المعنى والسبك ، ولكنه قليل الروق والماء .

* * *

وقوله يصف الدرع :

نخمة ذفرأ تترتئ بالعُـرَا قَرْدُمَانِيَا وتَرَّـكَ كَالْبَهْل^(١)
وهذا البيت معقد ثقيل ؛ لنقل بعض كلماته عن الفارسية^(٢) .

* * *

وقول النابغة :

تَحْدِي بِهِمْ أَذْمَ كَانَ رَحَالُهَا عَمَلَقُ أَرِيْقَ عَلَى مَتُونِ صَوَارِ^(٣)
شبه رحال الإبل في حمرتها بلون دم مراق على ظهور بقر الوحش .
وقد عده أبو الحسن بن طباطبا من التشبيهات البديعة التي لم يلطف
أصحابها فيها ، ولم يخرج كلامهم في العبارة مخرجا سلسا^(٤) .

* * *

وقوله :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العُـوَد

(١) ترتئ : تشد إلى فوق لتفشم عن لابسها ، وقردمانيا : سلاح معد كانت الأكاسرة
تدخره في خزائنها ، وأصله بالفارسية « كردماند » ، ومعناه : عمل وبق وهي الدروع
الغليظة ، والترك : البيض من الحديد جمع تركة ، والبصل يشبه به الترك المحدد الوسط .

(٢) الموشح — ٨٧ — المعجم في اللغة الفارسية — ٩٨ — لسان العرب مادة تقع ورتق :

(٣) الأدمة في الإبل : لون مشرب سواداً أوبياضاً أو هو البياض الواضح ، والعلق
محركة : الدم ، والصوار بالضم والكسر : القطيم من البقر الوحشي .

(٤) الموشح — ٨٦ .

وقد عابه الأصمى بين يدي الرشيد^(١) ، على أنه تشبيه لا يباحق ولا يشق
غبار صاحبه .

ولم يجد المطعن إلا بذكر السقيم ، فإنه رغب عن تشبيه المحبوب به ،
وفضل عليه قول عدى بن الرقاع :

وكانها وسط النساء أعارها عينيهِ أحور من جاذر جامم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه رَسنة وليس بنائم
وقد عدّه أبو عمرو أحسن ما قيل في العيون^(٢) .

ولست مع الأصمى في ذلك ؛ لأن نظرات السقيم إلى وجوه عائديه
الاصحاء مملوءة بالذل والحسرة والتوسل والانكسار والسهوم ، فشبه بها
نظرات العيون السقيمة من غير سقم ، بما حككت به من سحر وفتون وذبول ؛
وقد جاء وصفها بأكثر من ذلك في قول العكوك :

وتخالها وسنى إذا نظرت أو مدتفا لما يُفَق بعد
بفتور عين ما بها رمد وبها تُداوى الأعين الرمد
وقول آخر :

يسقيكما خنث الألفاظ ذوهيف كان أجفانه أفرق من داء^(٣)
فقد صور الأجفان لشدة ذبولها وفترتها ، كأنها قريبة عهد بالشفاء
من الرمد .

وقد ذكر القالي^(٤) : أن من أحسن ما قيل في فتور الطرف قول
أبي نواس :

(١) العمدة — ١ — ٢٠٥ .

(٢) ديوان المعاني — ١ — ٢٣٥ .

(٣) أفرق : برى وأفاق .

(٤) الأمل — ١ — ١٣١ .

ضعيفة كثر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالإفاقة من سقم
والحق أن تشبيه النابغة لا يعاب ، فإن قصده أن يبالغ في تصوير
ما تضمنت جفونها من الذبول والانكسار والفتور ، وهو من سمات
الهيون الفتانة الساحرة للآل باب

وقد جرى الشعراء على ذلك قديماً وحديثاً ، وما من شك في أن هذه
الفترة تتجلى في نظر السقيم إلى وجوه عواده ، لأن نظرنه إذ ذلك يشوبها
التأسف والتحسر على ما هو فيه ، حين يزن حاله بحال الأصحاء الذين
يحفون بفراشه ، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ،
فكأنه يقول : إن فتور عينيها بلغ الغاية التي لا غاية وراءها !

وقد خالف ابن قتيبة الأصمعي فيما ذهب إليه ، وعدّ بيت النابغة فيما
يستجد له .

وفسر البيت : بأنها نظرت إليك ولم تقدر أن تسلمك ، كما ينظر
المريض إلى وجوه عواده ، ولا يقدر أن يكلمهم^(١) .

ومن الغريب أن الأصمعي كان يروي وينشد قول بشر بن عبد الرحمن
الأنصاري :

وقصيرة الأيام ودّ جليساها لو باع مجلسها بفقد حميم
من محذيات أخى الهوى غصص الجوى

بدلال غانية ومقلة ريم^(٢)

صفراء من بقر الجواء كأنما خفّر الحياء بها رداع سقيم^(٣)

فيا ليت شعري لم أعجب برداع السقيم — وهو تغير لونه من المرض —

(١) الشعر والشعراء — ١٨ .

(٢) محذيات : معطيات .

(٣) الرداع كتراب : أثر الطيب والتغير من المرض .

فشبه به لون هذه المحبوبة ، مع أن فطر السقيم أقرب إلى القبول من لون السقيم !

* * *

وقوله للنعمان :

واحكم حكم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الشَّمد^(١)
عابوه : بأنه أمره أن يحكم حكم امرأة .

ولست أرى ما رأوه عيبا ، فلا يصح أن يعاب حكم ؛ لأن صاحبه امرأة
لأن العبرة بالصواب ، وقد تصيب امرأة ويخطئ رجل كما قال عمر .

ثم إن المرأة هنا زرقاء اليمامة التى عرفت بحدة البصر ، وصار اسمها علما
على النظر النافذ الذى يرى البعيد قريبا ، فلا يخطئ صاحبه فى الحكم
حتى قيل :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام
وحذام هى : زرقاء اليمامة

فهى ليست كمثل امرأة بل امرأة ممتازة ، وفى مثلها يقول المتنبي :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
فما التائب لاسم الشمس عيب ولا التذكير نحر للهلال

* * *

وقوله يضرع للنعمان :

خطاطيف حُجج فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع^(٢)
يقول قدامة فى معناه : ضاقت على الدنيا فكأنى من ضيقها فى بر ،

(١) فى الحيوان للجاحظ ، وفى الصناعتين سراع بالشين : أى مجتمعة داخلية فى الماء ،
واشمد بإسكان الميم ويحرك الماء القليل .

(٢) الخطاطيف : جمع خطاف بالضم ، وهو حديدة معوجة يخطف بها الشيء ، وحجج :
معوجة ، ونوازع : منجذبة .

فإذا أردتني وأمرت بسوقى إليك ، فانا أمد إليك بالخطاطيف لا أجد غيرك^(١) .

وقال أبو محمد : رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولست أرى ألفاظه جياداً ولا مينة لمعناه ؛ لأنه أراد : أنت في قدرتك على الخطاطيف عقف بمد بها ، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف .

ثم يقول : وعلى أنى أيضاً لست أرى المعنى جيداً^(٢) .

وذكر ابن عبد ربه : أنه شبه نفسه بالدلو ، وشبه النعمان بخطاطيف حجن : يريد خطاطيف معوجة تمد بها الدلو^(٣) .

ويقول الدكتور مندور : يحسم وقوعه المحتوم في يد الملك الذى أوعده ، وقد نظر حوله فرأى الدلو معلقة بالخطاطيف الحجن لا يستطيع منها إفلاتا ، وما على الماتح إلا أن يجذبها لتأتيه ، خفت فريحتة إلى تشبيه موقفه من النعمان بهذه الدلو^(٤) .

ولا شك في تخالف المعنى الذى أراده قدامة وأراده غيره .

* * *

وقول أعرابي يصف رأس بعيره^(٥) :

رى شتون رأسه العواردا مضبورة إلى شبا حدائدا

ضبر براطيل إلى جلامدا^(٦)

وفى ذلك يقول أحمد بن عبيد الله بن عمار : قد سلك قوم من الأعراب

(١) نقد الشعر — ٨١ .

(٢) الشعر والشعراء — ٩ .

(٣) المقد الفريد — ٣ — ١٣١ :

(٤) النقد المتهجى — ٦٧ .

(٥) نسبه القاموس إلى حجل مولى بنى فزارة .

(٦) شتون الرأس : موصل قبائلهم والعواردا : المنتبذة أو الفليضة ، والمضبورة :

المجموعة ، والبراطيل هنا : حجارة أو حدائد طوال صلاب خلقة تنقر بها الرحى .

الزلل والخطأ في أشعارهم مع رقة أذهانهم ، وصحة قرائحهم ، واقتدارهم على غريب الكلام .

ثم قال مشيراً إلى الشعر السابق : وما رأيت عالماً إلا وهو يذم هذا القول ، ويستقبح هذا النسج ^(١) .

* * *

وقول الشماخ :

تخامص عن برد الوشاح إذا مشمت

تخامص حافي الخيل في الأمعر الوجي ^(٢)

يريد : تتخامص إذا مشمت عن برد الوشاح ، تخامص حافي الخيل الوجي في الأمعر .

فقدم وأخر .

* * *

وقول أبي حية النيرى في رسوم الدار :

كما خط الكتاب بكف يومأ يهودى يقارب أو يزيل

أراد : كما خط الكتاب بكف يهودى يقارب أو يزيل : أى يقارب الكتابة : بينها ، أو يزيلها : يباعدنها .

* * *

وقول امرأة من بنى قيس :

هما أخوا في الحرب من لا أخاله إذا خاف يومأ نبوة ودعاهما

تريد هما أخوا من لا أخاله في الحرب .

(١) الموشح — ٤٤٣ .

(٢) تخامص : تتجافى . والأمعر : المكان الصاب الكثير الحصى ، والوجي : الصاب بالوجى ، وهو رقة القدم والحافر والفرسن وانسجابه .

وقول الفرزدق - يمدح إبراهيم بن هشام المخزومي ، خال هشام بن عبد الملك - :

وما مثله في الناس إلا مملوكاً أبو أمه حتى أبوه يقاربه
ففي هذا البيت من التقديم والتأخير ما أحال معناه وأفسد إعرابه ؛
لأن مقصوده : وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا مملوكاً أبو أمه أبوه .

وترجمة الكلام : لا يوجد في الناس أحد يشبه هذا الممدوح ، إلا الخليفة
هشام الذي أبو أمه - أي جده - أب لهذا الممدوح !

فالضمير في « أمه » ، للملك هشام ، وفي « أبوه » ، للممدوح ، وهو إبراهيم
خال هشام .

ففصل بين « أبو أمه » ، وهو مبتدأ ، و « أبوه » وهو خبره ، بأجنبي
عنه وهو « حتى » .

وكذا فصل « حتى » ، و « يقاربه » ، وهو نعته بأجنبي وهو « أبوه » ،
وقدم المستثنى على المستثنى منه فجاء كما ترى في غاية التعقيد !
وفيه يقول الرماني : قد اجتمع في البيت أسباب الإشكال الثلاثة :
سوء الترتيب ، وبه تغير نظام الكلام ، وسلوك الطريق الأبعد في قوله :
« أبو أمه أبوه » وكان يجزئه أن يقول : خاله وإيقاع مشترك الالفاظ
في قوله « حتى » ، لأنها لفظة تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان
بالحياة !

* * *

وقوله :

فليست خراسان التي كان خالد بها أسد إذ كان سيفاً أميرها
فإن جماعة من النحويين قالوا : إنه يمدح خالداً ويذم أسداً ، وقد كانا
واليين بخراسان ، وخالد قبل أسد .

وتقدير البيت : فليست خراسان بالبلدة التي كان خالد فيها سيفاً إذ كان
أسد أميرها .

ويكون رفع « أسد » بكان الثانية ، وأميرها نعت له ، و « كان »
في معنى وقع ، أو يكون في كان ضمير الشأن والقصة ، ويكون أسد وأميرها
مبتدأ وخبراً في موضع خبر الضمير .

وقال أبو سعيد السيرافي : إن تقدير البيت عنده أن يجعل « أسد »
بدلاً من خالد ، ويجعله هو خالد ، على سبيل التشبيه له بالأسد ، فكانه
قال : فليست خراسان التي كان بها أسد إذ كان سيفاً أميرها ، ويجعل « سيفاً »
خبراً لكان الثانية ويجعل « أميرها » اسماً .

وعلى كلا التاويلين فلا خفاء بقبح البيت والتعسف فيه ، ووضع
الآلفاظ في غير موضعها .

والفرزدق أكثر الشعراء استعمالاً للمعاطلة والتعقيد ، حتى كان يعتمد
ويقصده ليعجب النحويين وإن غاظ الأدباء .

وقوله : يهجو ابن هبيرة الفزارى وإلى العراق في عهد يزيد بن
عبد الملك :

أمير المؤمنين وأنت برّ حليم لست بالجشع الحريص
أوليت العراق ورافدينه فزارياً أخذت يد القميص^(١)
قال الشهاب الحفاجي : أخذت يد القميص : يكنى به عن السرقة ، واليد ،
استعارة .

ثم قال . ذكر ابن المكرم في كتابه الكناية وفي شرح ديوان

(١) الرفدان : دجلة والفرات لكثرة الانتفاع بهما ، وفي البيت روايات أخرى .

الفرزدق : أنه أراد أخذ اليد كما يقال : خفيف اليد للسارق ، فاضطر إلى ذكر القميص (١) .

والحق أن كلمة القميص هنا ، ليست فضلة اضطر إليها الشاعر ، وإنما وقعت موقعا أصيلا تقتضيه البلاغة .

وقد قال الذاهلي : فإن كان خفيف اليد في الطرء والسرقة قالوا : هو أخذ يد القميص .

ويد القميص هو السكم ، والسارق يقص كنهه ويخففه ؛ ليسكون أقدر على عمله ، ثم أورد بيت الفرزدق (٢) .

وقال القاضي الجرجاني : أخذ يد القميص : كناية عن السرقة والخيانة ؛ مأخوذ من الحذذ وهو الخفة .

ومعناه : أن كنه قصير ؛ فيده بادية للأخذ والخيانة .

ثم قال ويحتمل أن يكون كناية عن الدناءة والخسة وترك الهمة ؛ لأن أدوان الناس أكنامهم قصيرة ، وأكثرهم يلبسون الصداز (٣) .

...

وقوله :

وإن تيمما كلها غير سـعدـها زعانف لولا عز سـعدت لذلت
فقد وضع من قبيلته كلها وهجاء بهذا القول ، وإن مدح قومه الأدين .

...

وقوله :

وأصبح مبيض الضريب كأنه
فندف من الألفاظ المستتلة .
على سروات البيت قطن مندف

(١) شفاء الظليل - ٢٩ - ٧٧ .

(٢) الكنايات - ٤٠ .

(٣) كنايات الأدباء - ٧٤ .

وقول بعضهم :

فأصبحت بعد خطّ بهجتها كأن قفرا رسوما قلما

يريد : فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسوما !

وعندى أن هذا البيت مصنوع عن قصد ؛ لأن رداة تركيبه ، وشدة معاظلمته ، وسوء نسجه لا يمكن أن تحدث إلا بإعمال الفكر والروية ، وامتتفاد الجهد في صوغه على هذا النهج الغريب .

• • •

وقول ذى الرمة :

كأن أصوات من إبعالهن بنا أواخر الميس أصوات الفراريج^(١)

يريد : كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إبعالهن بنا .

• • •

وقوله في وصف الثور :

كأنه كوكب في إثر عفورية مسوّم في سواد الليل منقضب^(٢)

أنشده الرماني ثم قال : قد اجتمع الثور والكوكب في السرعة ، إلا أن انقضااض الكوكب أسرع ، واستدل بهذا على جودة التشبيه .

ويقول ابن رشيق : وأنا أرى أن فيه دركا على الشاعر ، وإغفالا من الشيخ المفسر ؛ وذلك أن الثور مطلوب والكوكب طالب ، فشبهه به في السرعة والبياض ، ولو شبهه بالعفريت ، وشبهه الكلب وراه بالكوكب لكان أحسن وأوضح ، لكنه لم يتمكن له المعنى الذي أراد من فوت الثور الذي شبه به راحلته .

(١) الميس : شجر عظام ، وضرب من الكروم ، والتبختر ، والفراريج : أفراخ الدجاج .

(٢) منقضب : منقطع من مكانه .

وأما ما أغفله الشيخ فإن الشاعر إنما رغب في تشبيه الثور بالكوكب
واحتمل عكس التشبيه — بأن جعل المطلوب طالباً — لبياضه ، فإن الثور
لهق^(١) لا محالة .

وأما السرعة التي زعم ، فإن العفريت لو وصفه به وشبهه بسرعته لما
كان مقصراً ولا متوسطاً بل فوق ذلك^(٢) .

• • •

وقول جرير :

طرفتكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجى بسلام
تجرى السواك على أغرٍ كأنه برد تحدر من متون غمام
فليتبه إذ كان طردها ما وصفها ، فالارتباط مفقود بين البيتين .

• • •

وقول الأخطل :

قد كنت أحسبه قَيْنَنَا وأنبؤهُ فاليوم طُيِّرَ عن أثوابه الشرر
مدح به رجلا من بني أسد كان قد أجاره ، وكان يقال لقوم الرجل :
القيون ، ويعبرن بذلك .

والمعنى : فاليوم نفي ذلك عن نفسه ، أى صفة القيون .

فما زاد أن نبّه عليه ، وقد كان له في الممدوح مقسّع^(٣) .

وقد قال له الرجل — وكان — يدعى سماكا — يا أخطل ، أردت مدحى
فهبجوتنى ! كان الناس يقولون قولاً لحقيقته^(٤) .

• • •

(١) اللهق كعذر : الأبيض .

(٢) العمدة ١ — ٢٠٢ .

(٣) الموازنة — ٣٩ .

(٤) سر الفصاحة — ٢٤٦ .

وقوله - يخاطب عبد الملك في شأن زفر بن الحارث - :
 بنى أمية إني ناصح لكم فلا يبين فيكم آمنا زفر
 يظل مفترشا كالليث كلكه لوقعة كائن فيها لها جزر
 فأراد أن يضع منه فرفعه حتى خوف منه .

• • •

وقول روبة في نساء :

يُكسين من لين الشباب نيا
 والنعيم : الفرو الخلق ، وهو على غرابة لفظه ، يستهجن تشبيه أجسام
 النساء به في اللين والنعومة ؛ لأن الفرو لا يخلو من خشونة ، وبخاصة أنه
 لم ينص على نوعه كفرو سمورة مثلا ، وما الظن بعد هذا إذا كان
 فروا بالياً !

وقد قال غيره : لها بشر مثل الحرير . . .
 فأجاد وأصاب .

• • •

وقول العرنجي :

وأشرب جلدي حبها ومشى به كمشي محميا الكأس في جلد شارب
 يدب هواها في عظامي وحبها كما دب في الملسوع سم العقارب
 فتشبيهه ديب الهوى في العظام ، بديب السم في الملسوع غاية في البشاعة !
 وهذا التصوير للحب لا يدل على الحب !

• • •

وقول كثير :

فا روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جشجائها وعرارها (١)

(١) الجشجات : نبت والعرار ، بهار البر .

بأطيب من أردان عزة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها
وقد قيل : لو أن زنجية تبخّرت بمندل رطب لكانت أردانها طيبة !

• • •

وقوله :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين^(١)
وقد أنشده بشاراً فضحك ! وقال : لله أبو صخر ! جعلها عصائهم
يعتذر لها ! والله لو جعلها عصاخ أو عصا زبد لكان قد أساء !

ألا قال كما قلت :

ريضاء المدامع من معدّ كان حديثها ثمر الجنان
إذا قامت لسبجتها^(٢) ثلثت كان عظامها من خيزران
ينسبك المني نظر إليها ويصرف وجهها وجه الزمان
ورواية المرتضى :

وحوراء المدامع من معدّ كان قوامها ثمر الجنان
وتشديه القوام بالثر غريب .

ورواية العقدة الفريد : إذا قامت لحاجتها ، وهو أجود .

وفي رواية الأصمعي : أن رجلاً أنشد بشاراً قول الشاعر :

وقد جعل الأعداء ينتقصوننا وتطمع فينا السن وعيون

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين

فقال بشار : والله لو جعلها عصاخ أو عصا زبد لما كان إلا غطنا مع

ذكر العصا ، ألا قال كما قلت :

ويضاء المحاجر من معد الأبيات السابقة .

(١) الخيزرانة : كل غصن لين ينثني .

(٢) السبجة : صلاة التطوع .

ومما يلاحظ أن بشاراً أكثر من الوصف بالخيزرانة ، فمن ذلك قوله
عن مقطوعة - يصف فيها مغبة وصفا بارعا - :

لعمري أن زوارها الصيِّد إنهم لفي منظر منها وحسن سماع
تُصليُّ لها آذاننا وعيوننا إذا ما التقينا والقلوب دواعي
وصفراء مثل الخيزرانة لم تعش ببؤس ولم تركب مطية راعي
إذا قلدت أطرافها العود زلزلت قلوبا دعاها للوساوس داعي
كانهم في جنة قد تلاحقت محاسنها من روضة وبقاع
يروحون من تغريدها وحديثها نشاوى وماتسقيهم بصواع^(١)
لحوب بالباب الرجال وإن دنت أطيع التقى والغنى غير مُطاع
فليس القبح فيما مضى يرجع إلى التشبيه بالخيزرانة ، لأن الخيزرانة كل
غصن لين يتثنى ، وهو وصف جميل للقوام ، وإنما القبح جاء من ذكر العصا
التي توحى بمعاني اليبس والجساوة والغلظ ، لا اللين والدونة والرفقة .

. . .

وقول أبي عدى القرشى :

نحن الروس وما الروس إذا امتت في المجد للأقوام كالآذنان
فقوله : « للأقوام ، حشو لا منفعة فيه .

. . .

(١) الصواع بالضم : المسكيات ، ومعناه عند علي بن هارون : إذا غنت شربوا جزافا
بلاكيل ولا وزن من حسن ما يسمعون .

وقال المرتضى : هذا خطأ منه ، وإنما أراد أن غناءها بفرط حسنه وشدة إطرابه ينسيان
نشوة الخمر ؛ وإن لم يكن هناك شرب بصواع .

ثم يقول : وما كان عندي : أن أحداً يتوهم في معنى هذا البيت ما ظنه هذا الرجل .

وقوله :

يا بن خير الأخيار من عبد شمس أنت زين الدنيا وغيث الجنود
فليس غيث الجنود مقابلاً لزين الدنيا ولا موافقاً ، فالتقسيم هنا غير
مستقيم .

ومثله قول ابن المعتز .

أرى ليلاً من الشعر على شمس من الناس
والجمع بين الليل والناس رديء ، وقد وقع هنا بارداً .

ويلحق به فساد التفسير كقول بعضهم :

فيأبها الحيران في ظلم الدجى ومن خاف أن يلقاه بغى من العدا
تعال إليه تلق من نور وجهه ضياء ومن كتفيه بحراً من الندى
فإن هذا الشاعر لما قدّم في البيت الأول الظلم وبغى العدا ، كان الوجه
في التفسير أن يأتي في البيت الثاني بما يليق به ، فأق بالضياء بإزاء الظلم
وذلك صواب .

وكان يجب أن يأتي بإزاء بغى العدا ، بالنصرة أو العصمة أو ما جرى
مجرى ذلك ، فلما جعل مكانه ذكر الندى كان التفسير فاسداً (١) .

...

وقول آخر :

وتلاحقه عند المكارم مزة كما انتفض المحموم من أم ملذم (٢)
فجعل اهتزازه من أريحية الكرم ، كانهفاض المحموم من الحمى ، وبشاعته
لا تخفى .

(١) سر الفصاحة — ٢٢٥ .

(٢) أم ملذم ككنبر : كنية الحمى .

فأين هو من قول الآخر :

وتلحقه عند المكارم هزة

كما اهتزت تحت البارح الغصن الرطب^(١)

وأين هو من قول الهذلي .

وإن لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

* * *

وقول رجل من تميم :

ومنها عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتم
وقد أنشده الفرزدق فضحك ثم قال : يابن أخي ، إن للشعر شيطانين
يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل ، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره ،
ومن انفرد به الهوجل فسد شعره ، وقد اجتمع لك في هذا البيت ، فكان
معك الهوبر في أوله فأجدت ، وخالطك الهوجل في آخره فأفسدت^(٢) .

* * *

وقول بعض الشعراء :

يُزَجِّين بكرا يهسر الرِّيط منها كما مار نعبان الغضا المتدافع^(٣)
فشبه مشيتها بمشية النعبان .

ومشية النعبان ناعمة رقيقة حسنة لطيفة ، ولكن القبح جاء من لفظة
النعبان ؛ فليست مما يصلح في التشبيهات الغزلية ، ولو أنه قال كما قال الآخر :
من المتصيدات لغير سوء تسيل إذا مشت سيل الحباب
لبرى من العيب مع أن الحباب هو الحية .

(١) البارح : الريح الشديدة .

(٢) جهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي — ٣٠ .

(٣) يهسر : يغلب ، والريط : الثياب الرقيقة .

ومثله قول شهاب الدين الأنسى البنى :
إذا خطرت في الروض نعم عشية تفأوح من فضلات أردانها العطر
وإن سحبت أذيالها قلت حية إلى الماء تسعى ما لا خصصها إثر
وهذا من قبيح التشبيه على ما فيه من الخلل (١).

* * *

وقول بشار :
كان إبريقنا والقَطَر في فهِ طير تناول ياقوتا بمنقار
ولفظ طير ردىء والجيد طائر (٢).
يعنى استعماله في المفرد، وأما استعماله في الجمع فهو المقصود ، وفي
القرآن الكريم : « وتفقّد الطير ... » .
وقد وقع شوقي في هذا التهاف حيث يقول :
وإني لطير النيل لا طير غيره وما النيل إلا من رياضك يُحسب

* * *

وقوله :
إنما عظم سليمان خلّتي قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ريح البصل

* * *

وقوله :
وبعض الجود خزير

(١) سلافة العصر - ٤٧١ .

(٢) ديوان اللاماني - ١ - ٣١١ .

وكل ذلك من بارد الشعر وسفسافه ، وكثير على مثل بشار أن يقع فيه .

* * *

وقول أبي الشيص الخزاعي :

وناعس لو يذوق الحب مانعسا بلى عسى أن يرى طيف الحبيب عسى
وللهوى جرس مینقى الرقاد به فكلماء كدت أغنى حرك الجرسا

* * *

وفيه يقول ابن داود : إنه من التشبيه الذى لا يقع أبدا منه (١) .

* * *

وقول ابن أبي الفوارس :

جاءنى مكتمتا ملتما فدعونا لاكل ونجنا
مد فى السفرة كفا ترفا فحسبنا أن فى السفرة جينا

* * *

وقوله :

أنت ظيبي أنت مسكى أنت درى أنت غصنى
فى التفات وثناء وثنايا وتلنى

...

وقول أبي العتاهية :

كان عتابة من حسنها مدمية قسّ ففانت قسّها
يارب لو أنسيتمها بالذى فى جنة الفردوس لم أنسها

إني إذا مثل التي لم تزل دائبة في طحنها كدسها^(١)
حتى إذا لم يبق منه سوى حفنة بُرّ خنفت نفسها

...

وقوله :

ولئن حبها وصيرني مثل مجعا مشهرة ومشغله

وقوله :

عتب ، ما شأني وما شأنك ترّفي أخت بسلطانك
لما تبديت على بغلة أشرقت الأرض ببرهانك
حتى كأن الشمس مزفوفة بين جواريك وخُصيانك
وفيه يقول المرزبان : وهذا لعمرى كلام ضعيف^(٢).

وليس هو ضعيفاً فقط ، ولكنه رديءٌ سخيف ، وكلمة الأخت التي
اصطنعها في معرض الغزل ، من الكلمات الساقطة النائية التي تشتمز منها
نفوس الأشراف ، وقد رأيت بعض شعراء العصر يستعملونها للبرهنة
على الحب العذري وما دروا أن الحب — وإن كان عذرياً على زعمهم —
يأنف أن تلبس فيه المحبوبة صورة الأخت ، وأن هذه عاطفة شاذة مريضة
لا تجول إلا في جوائح شاعر مثوف ، ينزع به عرق إلى المجوسية !

...

وقول آخر :

إن قلبي سُـلّ من غير مرض وفؤادي من جوى الحب حرّض^(٣)

(١) الكدس بالضم : الحب المحصود المجموع .

(٢) الموشح — ٢٦١ .

(٣) حرّض حركة : قارب الهلاك من المرض .

كجرباب كان فيه جُئِن دخل الفأر عليه فقرض

...

وقول آخر :

كأنها الشمس إذا ما بدت تلك التي قلبي لها يضرب

تلك سليمي إذا ما بدت وما أنا في ودها أرغب

كأن في النفس لها ساحرا ذاك الذي علمه المذهب^(١)

وهو من النوع الفأر السفساف كسابقه .

...

وقول العَمَّاني :

كأنما الطرف يرى في جوانبه عن العمى وكان النجم قنديل

واجتماع العمى والقنديل في غاية التنافر ، والبيت من ردىء التشبيه .

...

وقول آخر :

وقُل أم عمرو داؤه ودواؤه لديها ، ورَّياها الطليب الموافق

والبيت جيد المعنى ردىء الرصف .

...

وقول الحسين الخليع :

وشاطرىّ اللسان مختلق التكريه م زان المجون بالنسك^(٢)

كأنه نَصَب كَأْسَه قَر يَكْشَرع في بعض أنجم الفلك

والمعنى بديع ، ولكن العبارة ليست جيدة ، لأن قوله : يكرع : ليس

(١) المذهب بضم الميم وفتحها : شيطان الوضوء .

(٢) الشاطر في الأصل : من أعياء أهله خبثا .

بصحيح ، وفيه ثقل بـتين وتفاوت ، وفيه إحالة أيضاً ؛ لأن القمر لا يصح
تصوره يكرع في نجم ا
وقد أخذه أبو نواس فقال :

إذا عبّ فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا
وكلمة دعب فيها ، قصد منها المتانة ، وكان سبيله أن يختار سواها من
ألفاظ الشراب ، ولو فعل ذلك كان أملح .

وقوله : شارب القوم ، فيه ضرب من التكلف الذي لا بد له منه
أو من مثله لإقامة الوزن .

ثم قوله :

خلته . . . يقبل في داج من الليل كوكبا

تشبيه بحال واحدة من أحواله ، وهو أن يشرب حيث لا ضوء هناك
وإنما يتناول له ليلا ، فليس بتشبيه مستوف ، على ما فيه من الوقوع والملاحاة .

وقد قال ابن الرومي ما هو أوقع منه وأملح وأبدع وهو :

ومفهمف تمت محاسنه حتى تجاوز منية النفس

تصبو الكئوس إلى مرآشفه وتحن في يده إلى الحبس

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس

وكانها وكانت شاربها قر يقبل عارض الشمس

ولا شك أن تشبيه ابن الرومي أحسن وأعجب ، إلا أنه تمكن من
الإيراده في بيتين ، وهما مع سبقهما إلى المعنى أتيا به في بيت واحد^(١) .

• • •

وقول أبي نواس في الأمين :

تَنَازَعُ الْأَحْمَدَانُ السَّبَبَ فَاشْتَرَكَا خَلَقَا وَخُلِقَا كَمَا قَدَّ الشُّرَاكَانُ
فَزَعِمَ : أَنْ ابْنَ زَيْدَةَ مِثْلَ الرَّسُولِ — صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ — فِي خَلْقِهِ
وَخَلْقِهِ^(١) .

وهو من غلوه الممقوت ؟

• • •

وقوله في صفة الباز :

فِي هَامَةِ عَلِيَاءَ تَهْدِي مَسِيرَا كَبْعُطْفَةِ الْجَيْمِ بِكَفِّ أَعْسَرَا^(٢)
يَقُولُ مِنْ فِيهَا بِعَقْلِ فَكَّرَا لَوْ زَادَهَا عَيْنَا إِلَى فَاءَ وَرَا
فَاتَصَلَتْ بِالْجَيْمِ كَانَتْ جَعْفَرَا

وفي ذلك يقول العسكري : سمعت بعض العلماء يقول : • ومن المعاني
الباردة قول أبي نواس في صفة البازي .

وقد وصفوا البيت الأول بأنه جيد مستوف .

وقالوا في الباقي : فمن يجهل أن الجيم إذا أضيفت إليها العين والفاء
والراء تصير جعفرأ !

وسواء قال هذا أو قال :

لَوْ زَادَهَا حَاءَ إِلَى دَالٍ وَرَا فَاتَصَلَتْ بِالْجَيْمِ صَارَتْ جَعْفَرَا
وما يدخل في صفة البازي من هذا القول^(٣) .

وتبعه أبو تمام فقال :

هَنَ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَاْفَةَ مِنْ حَائِنٍ فَإِنَّهُنَّ رِحَامُ

(١) إعجاز القرآن للباقلائي — ١٤٧ .

(٢) المنسر كجلس ومنبر : المنقار ، والأعسر : من يعمل بيده الشمال .

(٣) الصناعتين — ١١٤ — ١١٥ .

فمن الذى جهل أن الحمام إذا كسرت حاؤه صار حماما .
وإنما أراد أبو نواس أن يشبه الجيم لا يغادر من شبهها شيئا ، حتى
لو زاد عليها هذه الأحرف صارت جعفرأ لشدة شبهها به .
ثم يقول العسكرى : وهو عندى صواب إلا أنه لو اكتفى بقوله :

كعطفة الجيم بكف أعسرا

ولم يزد الزيادة التى بعدها كان أجود وأرشق وأدخل فى مذاهب
الفصحاء ، وأشبه بالشعر القديم .

وأما قول أبي تمام ، فله معنى بخلاف ما ذكره ، وذلك أنه أراد أنك
إذا أردت الزجر والعيافة أدأك الحمام إلى الحمام ، كما أن صوتها الذى يظن
أنه بكاء ، إنما هو طرب ويؤدبك إلى البكاء الحقيق .

وهذا المعنى صحيح ، إلا أن المعنى إذا صار بهذه المنزلة من الدقة ، كان
كالمعنى ، والتعمية حيث يراد البيان عى .

...

وقول أبي نواس - أيضاً - فى الخمر :

توهمتها فى كأسها فكأنما توهمت شيئا ليس يدرك بالعقل
خرج إلى المحال فى تشبيهه ، حين جعلها لا تدرك بالعقل !

...

وقوله :

يامن جفانى وملا نسيت أهلا وسهلا
ومات مرحب لما رأيت مالى قسلا
إنى أظنك فيما فعلت تحكى القسلا^(١)

(١) القرى : من طيور الماء ، صغير الجرم ، شديد القوس ، سريع الخفاف .

وقوله :

وأمر الجلالة صيرته في الناس زاغا وشقرا^(١)ا
فجاء بالفاط العامة والسموقة .

• • •

وقوله :

وليس كجدتيه أم موسى إذا نسبت ولا كالخيزران
وهذا مدح فسل ، نازل إلى الحضيض ، وزاده ضعفا تصريحه فيه
بذكر النساء ١

• • •

وقول أبي تمام :

وكان فارسه يصرف إذ بدا في مته ابنا للصباح الأبلق
لجعل الفرس ابنا للصباح الأبلق ١

• • •

وقوله :

لك قد أرق من أن يحاكي بقضيب في النعت أو بكثيب
والقد لم تخر العادة بوصفه بالركة ، وإنما يوصف بالهيف والنحول
مثلا .

ثم هو يشبه بالقضيب ولكن لا يشبه بالكثيب ؛ وإنما يشبه
به الردف .

• • •

(١) الزاغ : غراب صغير إلى البياض ، والشقراق بكسر الشين وفتحها وتشديد الراء
وكفرطاس : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض يكون بأرض الحرم .

وقوله :

متفجّر نادمته فكأننى للدلو أو المرزَمين نديم
والدلو هنا : أحد البروج ، والمرزمان : نجران مع الشَّعْرَيْن .
وأنت تجدد بأقرب تأمل فرق ما بين قول القائل لمن يمدحه : أنت
المرزم جودا ، والجنة لمن يقصدك عزا ، وبين قولك : أنت الدلو كرما ،
والكنيف لطريد الدهر سعة .
والمعنيان صحيحان ، وحسن إحداهما وقبح الآخر لا خفاء به^(١) .

...

وقوله :

أنت دلو وذو السماح أبو مو سى قلب وأنت دلو القلب
ومراده من ذلك أنه جعله سببا لعطاء المشار إليه ، كما أن الدلو سبب
في امتياح الماء من القلب .
ولم يبلغ هذا المعنى من الإغراب — كما يقول ابن الأثير — إلى حد
يدندن حوله هذه الدندنة ، ويلقيه في هذا المثال السخيف^(٢) .

ومثله في ذلك قول علي بن الجهم في مدح المتوكل :

أيها الدلو لاعدمنك دلوا من جيا الدلاء مصلب الصليب
أنت كالدلو لاعدمنك دلوا من كثير العطا قليل الذنوب
أنت كالسكب في حفاظك للود م وكالتيس في قراع الخطوب
والشناعة هنا جاءت من قبل اللفظ ، وإلا فكل واحد من هذه الثلاثة
يعد غاية الغايات في الصفة التي أريد بها المدح .
وقد يغتفر لابن الجهم قوله هذا لأن كان متبديا إذ ذاك ، ولكن

(١) سر الفصاحة — ٧٩ .

(٢) المثل السائر — ٢٩٩ .

كيف يغتفر ذلك لأن تمام المدنى المتحضر ا

...

وقوله :

ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محراثا
وفيه يقول ابن رشيق : فلعنة الله على هذا المحراث ههنا ! ما أقبحه
وأركه ! وأين هذا كله من قوله المليح البديع .
أو ما رأت بردى من نسج الصبأ ورأت خضاب الله وهو خضابى
وإن كان أخذه من قول الله - عز وجل - : « صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً » (١) .

...

وقوله :

كأننى حين جردت الرجاء له عضبٌ صبيت به ماء على الزمن
وقد علق عليه العسكرى بقوله : ولا يكاد يرى أشبهه أبرد من هذا (٢) .
ورواه البديعى (٣) هكذا :

كأننى حين جردت الرجاء له محضاً أخذت به سيفاً على الزمن
ومعنى البيت على هذه الرواية : أننى بقصر رجائى عليه أصبحت قوياً
منيعاً ، حتى كأننى شهرت سيفاً على الزمن ، وبذلك ينتفى منه العيب .

...

وقوله :

(١) المدة - ١ - ١٨٤ .

(٢) الصناعتين - ٢٤٨ .

(٣) هبة الأيام - ١٢٣ .

للجود باب في الأنام ولم تزل مذ كنت مفتاحا لهذا الباب
وقد ذكر ابن رشيقي^(١) : أن بعض الناس اعترض على هذا البيت
بمحضرة بعض أصحابه وقال : أتى إلى مدوحيه فجعله مفتاحا ، فهلا قال كما قال
ابن الرومي :

قبّل أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتيح الأرزاق
فقال له آخر : عجبت منك تعيب أن يجعل مدوحيه مفتاحا ، وقد جعل
ربه كذلك في قوله :

والله مفتاح باب المعقل الأشب^(٢)

ولا خلاف أن التشبيه بالمفتاح قبيح في باب المديح ، وبخاصة حين
يتجه به الخطاب إلى الممدوح كما في قول أبي تمام المتقدم .

فأين هذا من قول أبي نواس :

هات من الراح فاسقني الراحا أما ترى الديك كيف قد صاحبا
من كف قبطية مزنة نجعلها للصبح مصباحا
وقد تابعه على هذه الإساءة السري الرفاء في قوله :

عصابة لو شهدت بجلستهم كنت شهابا لهم ومصباحا
أغلق باب السرور دونهم فسكن لباب السرور مفتاحا
ولكن مما يهون الخطب هنا : أن المقام مقام هزل لا جد ، وأنس
وتبسّط ، لا تزمت ووقار .

وقريب من هذا قول أعرابي :

(١) الممددة — ١ — ١٨٤ .

(٢) الأشب : اللثف .

وإذا المكارم أغلقت أبوابها يوما فأنت لقفله مفتاح
فإن القفل أيضاً لا بد له من مفتاح .

وقد وقع في هذا الخطأ المنصور حيث يقول من خطبة له : أيها الناس
إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وحارسه على
ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيته بإذنه ، فقد جمعاني الله عليه قفلا
إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسّم أرزاقكم ، وإن شاء أن
يقفلني عليها أقفلني (١) .

وكذا محمد بن الليث في قوله : كان قفلا فتحه أمرك ، وبابا أغلقه
نهلك (٢) .

وعلى ذلك نرى أن كلمة مفتاح تحسن إذا وقعت في غير المدح ، كقول
على بن عبد الله الجعفرى :

ربما سرتنى صدودك عنى وطلايك وامتناعك منى

حذرا أن تكون مفتاح غيرى فإذا ما خلوت كنت التمنى

فكلمة مفتاح هنا متعينة في مكانها ، وهى من بديع الكنايات أيضا .

فهو يريد أن يقول : إنه يرحب بصدود المحبوب وامتناعه عليه برغم
هيامه به ، لأن انقياده له يجعله سلس القياد لغيره ، لين العريكة فيما يطلب
منه ، وهو لا يريد أن يكون مفتاحا لباب الطمع فيه ، فالحرمان في هذه
الحال ، أشهى إليه من الوصال .

وكذلك نجد كلمة مفتاح تحسن إذا وصف بها غير الإنسان ، كالجوارح
والأخلاق والأشياء المعنوية ، وذلك كقول منذر بن سعيد : ... فأنشدهم الله
ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقتها من عقالها (٣) . وكقول ابن الرومى
المتقدم :

(١) الطبرى — ٩ — ٣١٠ .

(٢) جهرة خطب العرب — ٣ — ٦٦ .

(٣) المصدر المتقدم — ٣ — ١٣٥ .

قَبْلَ أنَامله فلسن أناملا لکنهن مناع الارزاق

وقد قيل : إنه أحسن ما قيل في معناه (١) .

ومن فصل للبديع الهمداني : قبلت من يمناه مفتاح الارزاق

وقول الشاعر :

خزّ عمامته ، حلو فكاهته في كفه من رُقي الشيطان مفتاح

وقول الراجز :

إني بغيت الشعر وابتغاني حق وجدت الشعر في مكاني

في عَنِيبة مفتاحها لسان (٢)

وقول بعضهم :

ألم تر مفتاح الفؤاد لسانه إذا هو أبدى مايقول من الفم

وقول آخر :

مفتاح باب الفرج الصبر وكل عسر بعده يسر

وكل من أعيتك أخلاقه فإني حيلته الهجر

وقول الربيع بن يونس : المحبة مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر .

وقول المهدي العباسي : المشاورة والمناظرة : بابا رحمة ، ومفتاحا بركة .

وقول الفضل بن الربيع : الاقتصاد رأس النصيحة ، ومفتاح الين والبركة .

وقولهم مفتاح الفتن .

وهو مقتل عثمان أو الحسين — رضى الله عنهما — .

(١) ثمار القلوب — ٥٣٣ .

(٢) العيبة : الحقيبة .

فمفتاح فيما تقدم لا يمكن أن يقال : إنها قبيحة .
وعند التأمل الدقيق يظهر لنا أن قبح « مفتاح » بتجلى أيين ما يكون
حينما يقترب بلفظ « الباب » أو « القفل » .
ولعل السر في هذا : أن اقتران المفتاح بالباب والقفل يجعل التشبيه
قريبا جداً من عالم الواقع .
وبهذا القرب يصبح الموصوف أدنى إلى أن يكون آلة جامدة صماء .
وإن شئت فقل : مفتاحاً بالفعل .
وآية ذلك أننا لا نشعر بهذا النبوءة في قولك مثلاً : جملك الله مفتاحاً
للخير ، مغلاقاً للشر .
ولا في قولهم لعمر بن الخطاب : مفتاح الأمصار (١) .

...

وقوله :

فإذا ما أردت كنت رشاء وإذا ما أردت كنت قليلاً
يريد أنه مرة يكون رسول الخير ، وأخرى يكون مصدر الخير نفسه .
لجعله لذلك مرة حبلاً ، وأخرى بئراً .
والرشاء والقلب كالذلو والمفتاح في شعره السابق مخفاً وركه .
وجاء السرى الرفاء فقال :
تراك إذا كان الندى في قلبه رشاء فإن يعلى اتخذناك سلباً
وجاء مهيار أيضاً فقال :
لك الخير مولى رميت المنى رشاء إليه فروى قليلاً

(١) قيل له ذلك لأنه أول خليفة مصر الأمصار وفتح أكثرها .

فجعله قليلاً .

ولم تقبح لفظة « قليلاً » هنا قببحها في بيت أبي تمام السالف ، لأن الممدوح لم يخاطب بها خطاب مواجهة لأنها لم تقع خبراً عنه .

وعلى كل فتشبيه الممدوح بأنه قليب أهون من تشبيهه بأنه رشاء وسلم .
ويلاحظ حسن لفظة رشاء في القول المتقدم .

رमित المني رشاء إليه ...

وكذا في قول أبي الفتح البستي : الرشوة رشاء الحاجة :

والسبب : أنها لم تقع وصفاً للإنسان .

* * *

وقول أبي تمام أيضاً :

صارت المسكرات بُزلاً وكانت أدخلت بينها بنات مخاض

شبه المسكرات بالنوق البزل — وهي التي بلغت من التاسعة — بعد
أن كانت بنات مخاض — وهي إناث النوق التي دخلت في السنة الثانية
وحملت أمهاتها .

والتشبيه غاية في الغنائه ، ولأبي تمام كثير من هذا النوع .

وقوله :

خلق كالمدام أو كرضاب المسك م أو كالعبير أو كالملاب

وقد عابوا قوله هذا : بأن الناس يقومون من الدون إلى الأعلى ، وهذا
من الأعلى إلى الدون ، فجعل خلقه كالمدام أو كالمسك ، ثم قال : أو كالعبير
أو كالملاب^(١) .

وقوله :

(١) الملامب بفتح الميم : عطر ، أو الزعفران .

سما في أونس في الفخار وحاتم وزيد القنا والاثثمان ورافع
نجوم طواليع جبال فوارع غيوث هواميع سيول دوافع
فإن السيول دون الغيوث ، والجبال دون النجوم ، ولو قدم ما آخر
لما اختل النظم ، بأن قال :

سيول دوافيع غيوث هواميع جبال فواريع نجوم طواليع
وذلك ان من عادة العرب في الخطاب أن يبدؤوا في باب المديح وشبهه
بالصفة الدنيا ، ثم يثبتونها بأعلى منها ، وهكذا إلى أن ينتهوا إلى آخرها
وعكس ذلك في الذم .

وقد ورد على ذلك قول البخترى في وصف نحول الإبل :

مترقرن كالسراب وقد خضن م غمارا من السراب الجارى
كالقسي المعطّفات بل الأسهم م مبرية بل الأوتار
فترقى في تشبيه التحول من القسي المنحنية ، إلى الأسهم المبرية ،
إلى الأوتار وهي أشد الثلاثة نحولا ورقة .

ويقول ابن الأثير : وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك ؛ فن جملتهم
المتنبى في قوله — يمدح بدر بن عمار الأسدي :

يا بدر يا بحر يا غمامة ياليت م الشرى يا حمام يا رجل
وكان ينبغي أن يبدأ فيه بالأدنى ، فإنه إذا فعل ذلك ، كان كالمترقع
من محل إلى محل أعلى منه ، وإذا عاقله كان كالمخفض من محل إلى محل
أدنى منه .

فأما قوله : يا بدر ، فإنه اسم المدح ، والابتداء به أولى ، ثم بعد ذلك
يجب أن يقول : يا رجل ، ياليت ، يا غمامة ، يا بحر ، يا حمام ، لأن الليث أعظم
من الرجل ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر ، وهذا مقام
مدح ، فيجب أن يرقى فيه من منزلة إلى منزلة ، حتى ينتهي إلى المنزلة العليا آخرها ،

ولو كان مقام ذم لعكس القضية .

ثم يوازن بين قول المتنبي وقول أبي تمام السابق :

نجوم طواليع ...

فيقول : وهو عندى أشهر ملامة من المتنبي ؛ لأن المتنبي لا يمكنه تقديم الفاظ بيته وتأخيرها ، وأبو تمام متمكن من ذلك ؛ وما أعرف كيف ذهب عليه هذا الموضوع مع معرفته بالمعاني^(١)

ومع هذا يمكننا أن نلمس العذر للمتنبي ونبعد عنه الملامة ، إذا نظرنا إلى أنه شبهه بهذه الأشياء كل منها على انفراد لمعان تصدق عليها .

فهو بدر في الحسن والوضاء والرفعة ، وبجر في سعة المكارم ؛ وغمامة في جوده الذى عم القريب والبعيد ؛ لأن الغمام متنقل ، وليث في الشجاعة والجرأة والإقدام ، وموت في استئصال أعدائه وقتلهم ، ورجل في أنه جمع هذه الصفات الكثيرة الغريبة المتباينة ، وهو في كنهه إنسان ، وكأنه يشير إلى قول أبي نواس :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

...

وقول البحتري :

تبسم وقطوب في ندى وورغى كالرعد والبرق تحت العارض البَرْد
وفيه يقول ابن الأثير : وهذا من أحسن التشبيه وأقربه ، إلا أن فيه إخلالا من جهة الصنعة - وهو ترتيب التفسير - فإن الأولى أنه كان قدّم تفسير التبسم على تفسير القطوب ؛ بأن قال :

كالبرق والرعد ..

فانظر ايها الممتعي إلى هذا الفن ، كيف ذهب على البحترى مثل هذا
الموضع على قربه ، مع تقدمه في صناعة الشعر ، وليس في ذلك كبير أمر
سوى أن كان قدم ما آخر لا غير ، وإنما يعذر الشاعر في مثل هذا المقام
إذا حكم عليه الوزن والقافية ، واضطر إلى ترك ما يجب عليه ، وأما إذا
كانت الحال كالتى ذكرها البحترى فحينئذ لا عذر له (١).

...

وقول البحترى أيضاً من قصيدة :

كالبدر غير مخيّل والغصن غير مميّـل والدعص غير مهـيـل
هذه الاستثناءات ضرب من التكلف ؛ لأن التشبيه بالغصن كاف ، فإذا
زاد فقال : كالغصن غير معوج ، كان ذلك من باب التكلف خلا ، وكان
زيادة يستغنى عنها .

وكذلك قوله : كالدعص غير مهـيـل ، لأنه إذا انحال ، خرج عن أن
يكون مطلق التشبيه مصروفاً إليه ، فلا يكون لتقييده معنى .

...

ومنها قوله في الفرس :

وأغرّ في الزمن البهيم محجّـل قد رحمت منه على أغر محجل
كالهيكل المبني إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل
ذكر الهيكل في البيت الثانى ورد عجز البيت عليه ، وظن أنه قد ظفر
بهذه اللفظة وعمل شيئاً حتى كررها .

وهى كلمة فيها ثقل ، ونحن نجدهم إذا ما أرادوا أن يصنعوا نحو هذا
قالوا : ما هو إلا صورة ، وما هو إلا تمثال ، وما هو إلا دمية ، وما هو
إلا ظلية ، ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان .

وقد استدرك هو أيضا على نفسه ، فذكر أنه كصورة في هيكل ، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل ، كان أولى وأجمل ، ولو أن هذه السكلمة كررها أصحاب العزائم على الشياطين ، لراعوهم بها وأفزعوهم بذكرها ، وذلك من كلامهم ، وشييه بضاعتهم .

ومنها في وصف أذنيه :

متوجس برقيقتين كأنما تريان من ورق عليه موصل
يقول : إن الأذنين كأنهما من ورق عليه موصل ، وإنما أراد بذلك حدثهما وسرعة حركتهما وإحساسهما بالصوت ؛ كما يحس الورق بحفيف الريح .

وظاهر التشبيه غير واقع ، وإذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى حسنا ولكن لا يدل عليه اللفظ ، وإنما يجري مجرى المضمن ، وليس هذا برائق اللفظ ، ولا مشاكل فيه لطبعه غير قوله : متوجس برقيقتين ؛ فإن هذا القدر هو حسن .

...

وقوله في السيف :

وكانما سود النبال وحرها دببت بأيد في قراء وأرجل^(١)
المعنى مكرر على السنة الشعراء ، وتصنيعه بسود النبال وحرها ليس بشيء ، ولعله أراد بالحر : النذر^(٢) .

والنفصيل بارد والإغراب به منكر ؛ وهو كما حكى عن بعضهم أنه قال : كان كذا حين كانت الثريا بجذاه رأسى على سواء أو منحرفا قدر

(١) اقرا بفتح الفاف : الظهر .

(٢) النذر : صفار النمل .

شبر ، أو نصف شبر ، أو إصبع ، أو ما يقارب ذلك !
ف قيل له : هذا من الورع الذى يبغضه الله ، ويمقته الناس !
ورب زيادة كانت نقصانا ؛ وصفة النمل بالسواد والحمره فى هذا من
ذلك الجنس ، وعليه خرج بقية البيت فى قوله : دبت بأيدى ...
وكان يكفى ذكر الأرجل عن ذكر الأيدى ، ووصف الفرند بمدب
النمل ، شئ لا يشذ عن أحد منهم .

...

ومنها فى المدح :
عال على نظر الحسود كأنما جذبه أفراد النجوم بأجبل
ومنكر جداً جر النجوم بالآرسان موضعه إلى العلو ، والتسكف
فيه واقع (١) .

...

وقول ابن الرومى يهجو امرأة :
مَن شعرها من فضة وثغرها من ذهب
وقد كان بعض الأدباء يعيبه ويقول : إن التشبيه بالفضة والذهب
إنما ينفع فى المدح ، وكان يجب أن يهجو هذه المرأة بما يستعمل من ألفاظ
الذم وطرقه .

وقد عده الخفاجى من وضع الألفاظ فى غير مواضعها (٢) .
ونحن لانرى ذلك بل نعد البيت من أجود أنواع المهجاء ؛ لأنه مع
خبيث معناه ودقة مسلكه ، بعد عن ألفاظ القذف والسب التى عرف بها

(١) انظر قد الباقلا فى هذه القصيدة فى إعجاز القرآن - ١٧٥ .

(٢) سر الفصاحة - ١٥٥ .

ابن الرومي ؛ فهو يريد أن شعرها أبيض كالفضة ، وأسنانها صدف صفير كالذهب ، فعبر عن ذلك بهاتين الكنايتين اللطيفتين ، ولا معنى لقول بعضهم : إن التشبيه بالفضة والذهب إنما ينفع في المدح فقط ، لأن الألفاظ تصلح للاستعمال في المدح والذم معا ، بحسب إرادة المتكلم وتصريفه لوجوه الكلام .

• • •

وقول السرى الرفاء :

ويؤلف أوراقه الخضر تحتها بساط إليه أعين النجم شخص
وهو غير مختار الرصف ظاهر التكلف :

• • •

وقول الصابي :

نعم الله كالوحوش وما تألف م إلا الأخيار النساء
نفّرتها آثام قوم وصارت لأولى البر والتقى أشراكا
والمعنى جيد ، ولكن تشبيه نعم الله بالوحوش ، لا يصدر إلا من وحشى
الطباع ١

• • •

وقول المتنبي :

كأنى دحوت الأرض من خبرتى بها كأنى بنى الإسكندر السد من عزمى
ففيه نفسه بالخالق — تعالى عما يقوله الظالمون — ثم انحط إلى
الإسكندر مع ما فيه من الإغراق (١) .

• • •

وقوله :

وملومة سيفية ربعية يصيح الحصى فيها صياح اللقالق
يريد بالملومة : الكتيبة المجموعة ، وسيفية ربعية : منسوبة إلى سيف
الدولة ، وإلى ربعة التي منها تغلب قبيلته ، واللقاق : ضرب من الطير ،
وصياح الحصى : أراد به صوتها عند وقع حوافر الخيل ؛ شبهه بصوت
اللقاق .

واللقاق من الألفاظ العامة المتبدلة :

...

وقوله :

ومن الناس من تجوز عليه شعراء كأنها الخازباز
الخازباز ببناء الجزأين على الكسر : حكاية صوت الذباب ، ثم سمي
به الذباب نفسه .

يريد أن بعض الناس لغفلتهم ، تروج عندهم شعراء كالذباب في طنينه .
وقد عد ابن الأثير هذا البيت من مضحكات الأشعار ، وأنه من جملة
البرسام الذي ذكره في شعره حيث يقول :
إن بعضا من القريض هراء ليس شيئا وبعضه أحكام^(١)
منه ما يجلب البراعة والفهم م ومنه ما يجلب البرسام^(٢)
والبرسام : علة يهذى فيها .

...

(١) اللؤلؤ السائر — ٧٠ .

(٢) في الديوان : هذاء بضم الهاء وهو الهذيان .

(٣) ما يجلب : أى يجلبه ، وفي الديوان : البراعة والفضل .

وقوله :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه
قالوا : أراد التناهي في إطالة الوقوف فبالغ في تقصيره ، وكم عسى
هذا الشحيح بالغاً ما بلغ من الشح ، وواقعاً حيث وقع من البخل ، أن يقف
على طلب خاتمه ١ .

والخاتم أيضاً ليس مما يخفى في التراب إذا طُلب ، ولا يعسر وجوده
إذا قُتّش .

وقد اعتذر عنه القاضى الجرجاني بقوله : وأقرب ما يقال في هذا :
أن الشاعر حينما أراد أن يقول : أقف وقوف شحيح ضاع في الترب
خاتمه ، لم يرد التسوية بين الوقوفين في القدر والزمان والصورة ، وإنما
يريد : لأقفن وقوفاً زائداً على القدر المعتاد ، خارجاً عن حد الاعتدال ، كما
أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف في أمثاله ، وعلى ما جرت به العادة
في أضرابه .

وهو كقول الشاعر .

رُبَّ ليل أمدّ من نفس العا شوق طولا قطعت به بالتحاب
ونفس العاشق بالغاً ما بلغ ، لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل ، إنما
مراده أن هذا الليل زائد في الطول على مقادير الليالي ، كزيادة نفس العاشق
على الأنفاس (١) .

* * *

وقوله في وصف الحمى .

إذا مفارقتى غسّلتنى كأننا عاكفان على حرام

وهو معيب لأن الغسل غير مقصور على الحرام وحده ، بل هو من
الحلال والحرام جميعا ، فليس لتخصيص الحرام به وجه .

* * *

وقوله ؛

وفاؤكما كالربيع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه
وقد أغرب فيه حتى قال ابن رشيق : إن هذا يحتاج إلى الأصمعي
أن يفسر معناه (١) .

وقال فيه الثعالبي : وهو ما تسكف له اللفظ المتعقد ، والترتيب المتعسف
لغير معنى بديع بنى شرفه وغرابته بالتعب في استخراجيه ، ولا نقول :
تقوم فائدة الاتفاص به بأزاء التأذى باستماعه (٢) .

ومعنى البيت : يقول لصاحبيه اللذين عاهداه على مساعدته بالبكاء عند
ربيع المحبوب : وفاؤكما بمساعدتي على البكاء كهذا الربيع ، فإن الربيع كلما
درس كان أبعث على الحزن ، وكذلك وفاؤكما كلما ضعف ، ومساعدتكما كلما
قلت ، اشتد حزني لفقد من أنامى به .

وقوله : والدمع أشفاه ساجمه : بيان لعذره في البكاء ، وحجة على
صاحبيه بأنهما خاليان عما هو فيه من الوجد ، لأنهما لو كانا مثله لاستشفيا
بالدمع مثله كما هو شأن الحزين .

والغرابة والتعقيد جاءا من لفظة طاسم : بمعنى الطامس . وتعاق الباء
في : بأن تسعدا ، وبوفاء ، الواقع مبتدا ؛ وهو من الضرورات القبيحة ، لأن
الاسم لا يخبر عنه إلا بعد تمامه .

* * *

وقوله — يمدح عبد الله بن يحيى البحتري :

(١) المدة — ١ — ١٦٠ .

(٢) يتيمة الدهر — ١ — ١٢٣ .

ولو نقصت كما زدت من كرم على الورى لرأوى مثل شانيكا
يقول : لو نقصت أنا عن الناس كما زدت أنت عليهم ، لرأوى خسيسا مثل
عدوك .

ففرع عن وصف الممدوح بزيادة الكرم على الناس : أنه لو نقص بقدر
هذه الزيادة لعدّ كذلك مثل مبغضيه .

وهذا هو التفريع الملعون كما يقول ابن رشيق (١) .

وقوله :

العارض الهتن ابن العارض الهتن ابن العارض الهتن
وقد قال فيه الخفاجي : فأما قول أبي الطيب ، فمن أقبح ما يكون من
التكرار وأشنعه ، وإذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج ،
فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع .

وفيه يقول ابن الأثير : وقد زعم قوم من مدعى هذه الصناعة .
أن أبا الطيب أتى في هذا البيت بتكرير لا حاجة به إليه .

وليس في هذا البيت من تكرير ، فإنه كقولك : الموصوف بكذا
وكذا ، ابن الموصوف بكذا وكذا .

أى إنه عريق النسب في هذا الوصف .

وقد ورد في الحديث النبوى مثل ذلك كقول النبي في وصف يوسف
الصدىق - صلوات الله عليهما - « الكريم ابن الكريم ابن الكريم
ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . . . » .

ثم يقول : ولقد فلوضى في هذا البيت المشار إليه بعض علماء الأدب
وأخذ بطن فيه من جهة تكراره ، فوقفته على مواضع الصواب منه

وعرفته ، أنه كالخبر النبوى من جهة المعنى سواء بسواء ، ولكن لفظه ليس بمرضى على هذا الوجه الذى قد استعمله فيه ؛ فإن الألفاظ إذا كانت حسانا فى حال انفرادها ، فإن استعمالها فى حال التركيب يزيد لها حسناً على حسنها ، أو يذهب ذلك الحسن عنها .

ولو تها لآبى الطيب أن يبدل لفظة العارض بلفظة السحاب ، أو ما يجرى مجراها لكان أحسن .

وكذلك لفظة الهن ، فإنها ليست مرضية فى هذا الموضع على هذا الوجه .

ولفظه العارض وإن كانت وردت فى القرآن وهى لفظة حسنة ، فالفرق بين ورودها فى القرآن الكريم ، وورودها فى هذا البيت الشعرى ظاهر (١) .

وقد أخذ العلوى قول ابن الأثير واحتذله — وكثيراً ما يفعل ذلك — فقال : من الناس من صوبه فى تكريره ، ومنهم من قال : أساء فيما أورد من ذلك .

والأقرب أنه مجيد فى مطلق التكرير ؛ فإنه دال على إغراق الممدوح فى الكرم ، ولكن غير المحمود : أن لفظة العارض والهن ليستا واردتين على جهة البلاغة فيه لقلة الاستعمال لهما .

فن أجل ذلك كان ما قاله ليس بالغا فى البلاغة مبلغاً عظيماً ، إلا من جهة التكرير فإنه محمود لا محالة (٢) .

ونحن نخالفهما فيما ذهب إليه من استكراه لفظى « العارض » و « الهن » .

(١) المثل السائر — ٢٣٨ — ٣٣٩ .

(٢) الطراز — ٢ — ١٨٢ .

ولا نحمد من هذا البيت ما حمده ، بل نعدّه رديفاً مفسّفاً مرذولاً
أشبه ما يكون بعبث الأطفال ، سواء أكان من نوع التكرير أم لا .
والمدح بالعراقة في صفة من الصفات ، لا يستوجب هذا الإلحاح
الثقل على لفظ معين .

وللمتنبي أبيات مرقصة في ذلك منها قوله :

وجدت علياً وابنه خير قومه وهم خير قوم واستوى الحر والعبد
وأصبح شعري منهما في مكانه وفي عنق الحسناء يستحسن العقد
فقد قصر السيادة على الممدوح وابنه وأسرته ، ورفعهما فوق الناس جميعاً
في إيجاز بالغ ، لم يحتاج فيه إلى ملء الشدق بهذه الإعادة الثقيلة المملة .
والفرق بين التكرير في بيت المتنبي وبين الحديث الشريف ، كالفرق
بين الخنزف والدر ؛ فإن الذي حسّن تكرير الكريم في قول الرسول
الكريم : أن يوسف وأباه جميعاً أنبياء معروفون ، وقد جاءوا متابعين
في نسق واحد لا يقطعه فاصل ، فكل كريم يشير إلى واحد من هؤلاء
الأنبياء — عليهم السلام — بل كاد لقوة التصاق النبوة بهم ، وانطباعها عليهم
يجرى مجرى العَلَم ، ولهذا نرى الرسول — صلوات الله عليه — وقف
عند إبراهيم عليه السلام .

ولو كان والد إبراهيم نبياً لحسن أن يقول : ابن الكريم أيضاً :
وقد كان يحسن تكرير المتنبي لو أنه جاء على نسق التكرير في قول
الشاعر :

قيس العلا ، قيس الندى ، قيس السكرم :

على أني أستحسن مثل تكرير المتنبي إذا وقع هجاء كقول الشاعر :
ولقد هزنتك للبيد م فكنت ذا نفس لكيعه
أنت الرقيع ابن الرقيع م ابن الرقيع ابن الرقيع

وقوله يمدح سعيد بن عبيد الله الإنطائي :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بُعْرانا
وهذا موه ذوق منه ، وإزراء بالإنسانية ، لا يصح وقوعه من شاعر ،
ولا ينفع في الاعتذار عنه قول من قال : إنه يقصد بالناس ناماً بأعيانهم
أخذاً من قوله بعد ذلك :

فالعيس أعقل من قوم رأيتهم عما يراه من الإحسان عيانا
وفي هذا الشعر يقول صاحب : أراد أن يزيد على الشعراء في وصف
المطايا ، فأتى بأخزى الخزايا :

ثم يقول : ومن الناس أمه فهل ينشط لركوبها والممدوح لعله لا يريد
أن يركبوا إليه ! فهل في الأرض أخش من هذا التسحّب ، وأوضع من
هذا التبسط (١) .

والحق أن المتنبي كثيراً ما يتعسف في إيراد معانيه حتى ينزل إلى أحط
الدركات أحياناً ! ومن هذا النوع نفسه — وإن جاء على صورة أخرى —
قوله في رحيل سيف الدولة عن إنطاكية :

ليت أنا إذا ارتحلت لك الخيل م وأنا إذا نزلت الخيام
وقد عابوه بأن الخيام تعلو الممدوح (٢) :

وقال الواحدى في تفسيره : ليتنامعك تتحمل المشقة في مسيرك ونزولك
ولكنه أساء حيث تمنى أن يكون بهيمة أو جماداً ، ولا يحسن بالشاعر
أن يمدح غيره بما هو وضع منه .

* * *

وقوله في الموتى :

(١) بنية الدهر — ١٢٩

(٢) سر الفصاحة — ٢٤٨

يُخرس إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم خلال مطلق
أى كأنهم يظنون أن الكلام محرم عليهم .
قال الواحدى : لو وصفهم بالعجز عن الكلام ، لكان أولى وأحسن
بما قال ؛ لأن الميت لا يوصف بما ذكره .

وقوله :

يترشفن من فى رشفات هن فيه خلاوة التوحيد
فى الكلام تشبيه مضمرة : أى خلاوة التوحيد .
وفى بعض الروايات :
هن فيه أحلى من التوحيد .
والمراد على كل حال غامض ؛ فقد قيل : إن التوحيد نوع من النور
بالعراق .

وقيل : إنه توحيد الله — تعالى — .

وقوله فى عضد الدولة :

الناس كالعابدين آله وعبدُه كالموحد الله
يريد أن الناس فى خدمتهم لغيره كن يعبد آله باطلة من دون الله —
تعالى — ، لأنه — أى عضد الدولة — هو الملك على الحقيقة ، وغيره من
الملوك بهتان وزور .

ويريد بعبدُه : نفسه : أى إنه فى اقتصاره على خدمة عضد الدولة ، كن
يوجد الله ولا يشرك به شيئا !

ولا يخلو مثل هذا الكلام من مظنة التهاون بالدين والجرأة عليه !

وقوله في مدح بدر بن عمار :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدُّنى
والمعنى الظاهر : أن أفهام الناس تتقاصر عن الإحاطة بسعة إدراكه
وفسحة علمه ، كما تتقاصر عن الإحاطة بما وسع السموات والأرضين ، فإن
وراءها ما لا يعلمه إلا خالقه .

ونيته لا تدل عليه فأفرط وعمي !

وجمع دنيا على القول بالأدوار والتناهيخ (١) .

وبقي أن البيت ردىء النسيج ، ركيك الصياغة في جملة ، ثم إن النقاد
يعيبون استعمال لفظة « الدنى » ويعدونها من الألفاظ غير الشعرية .

* * *

وقوله - يمدح أبا الشعائر الحمداني - :

ليس قولى فى شمس فعلك كالشمس م ولكن كالشمس فى الإشراق
شبه قوله بنفس الشمس ، وشبه فعل الممدوح بأشعة الشمس التى تملأ
الكائنات .

أى إن قوله : فى فعل الممدوح الذى هو كالشمس ، ليس كالشمس
فيكون مكافئاً له ، ولكن نسبة قوله إلى فعل ممدوحه كالشمس بالنسبة إلى
إشراقها ، فإنه أوسع من جرمها أضعافاً مضاعفة .

وفى بعض الروايات :

ولكن فى الشمس كالإشراق .

والمعنى : أن قوله لا يبلغ فعل الممدوح فى الشرف والرفعة ، ولكن
يدل عليه فيكون بمنزلة الإشراق من الشمس .

وقد أورد العسكري هذه الرواية فقط ، وصرح بأن حقيقة هذا البيت لا يوقف عليها (١) .

* * *

وقوله - يمدح سيف الدولة ويصف نكايته بالروم - :
نثرهم فوق الأحيندب كله كما نثرت فوق العروس الدراهم
يريد : أنه مزقهم كل ممزق فوق هذا الجبل ، وبدد جثثهم أشلاء ، كما
تبدد الدراهم التي نثرت فوق العروس .

والتشبيه جيد من هذه الناحية ، ولكن يعيبه عدم التوافق في الجو
العاطفي ، فالشطر الأول يهيم بك في جو قابض كثيب عابس ، جو الموت
والجراح والدماء والأشلاء والآلئين والتوجع !

والثاني ينقلك إلى جو ضاحك مرح فرح بهيج ، جو العروس المجلوة
على المنصة في أبهى زينتها ، بين أترابها الناضرات يرقصن ، ويعنين ،
ويتخطرن ويسكنن فوقها النثار .

وأي هذا من ذاك ؟

* * *

وقوله - يمدح القاضي أحمد بن عبد الله الإنطاكي - :
وأما وحقك وهو غاية مقسم للحق أنت وماسواك الباطل (٢)
الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل
وتقديره : الطيب أنت طيبه إذا أصابك ، والماء أنت الغاسل له إذا
اغتسلت ؟

وقد ألم في البيت الأخير بقول القائل :

(١) الصناعتين - ٣٥٧ .

(٢) مقسم : بكسر السين وفتحها على أنه اسم فاعل أو مصدر ميمي .

وتزبدن أطيب الطيب طيبا إن تمسيه أين ملك أيننا
ولكنه تعسف في اللفظ :

وقوله — يمدح شجاع بن محمد الطائي — :
أني يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد
وتقديره : أني يكون آدم أبا البرايا ، وأبوك محمد ، وأنت الثقلان ؛

وقوله يصف الناقة :
فتيت مُسند مُسندا في نَيْبها إسادها في المهمة الإنضاء^(١)
وتقديره : فتيت تسند حال كون الإنضاء مسندا في شحمها إسادها
في الصحراء .
والمعنى : أن ناقته تبيت سائرة والزال يسير في شحمها ، كما تسير هي
في الفلاة .

وقوله :
حملتُ إليه من إنساني حديقه سقاها الحجا سقى الرياض السحاب
أي سقى السحاب الرياض ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه .

وقوله :
رما في خساس الناس من صائب استيه وآخر قُطن من يديه الجنادل

(١) الإساد : إدمان السير أو سير الليل بلا تمريس والقي : الشحم ، والمهمة : الصحراء .

والمعنى : رمانى رُذال الناس بمن يرى فينقلب رمية إليه ، ومن قصير
الصخور في يديه كالقطن عديمة الأثر .

وفيه ركافة ، وسفسفة ألفاظ العامة والسوقة ومعانهم .

* * *

وقوله :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

* * *

وقوله :

وأقسم لو صلحت يمين شيء لما صلح العباد له شمالاً

* * *

وقوله :

من بعد ما كان ليلي لا صباح له كان أول يوم الحشر آخره
وفي هذه الآيات إفراط في المبالغة ، وخروج إلى الإحالة .

* * *

وقوله في وصف الحمر :

هجرت الخمر كالذهب المصفى نخمى ماء مزن كاللجين
كان يياضها والراح فيها يياض محدد بسواد عين
والتشبيه في البيت الثانى غير متلائم ولا محكم إلا من حيث الإحداق
والإحاطة .

ولكن من حيث الشبه في اللون غير منسجم ، لأن الخمر ليست بسوداء
اللون إلا في بعض الحالات النادرة .

* * *

وقوله :

كبر العيان علىّ حتى إنه صار اليقين من العيان توهّماً

* * *

وقوله :

ولولا أنّي في غير نوم لـكنت أظنّني مني خيالا
وفيه استعمال كلمات الصوفية المعقدة ، ومعانيهم المغلفة .

* * *

وقوله - يصف خيل سيف الدولة في عدوها - :

خرجن من النقع في عارض ومن عرق الركض في وابل
وما بين كاذنّ المستغير كما بين كاذنّ البائل
السكاذبة : لحم الفخذ ، والمستغير : طالب الإغارة .

والمعنى : أن المستغير من هذه الخيل كان يفرّج بين رجله لشدة عدوه
كما يفعل البائل لثلا يصيبه البول .

أو أنه كان يعرق في عدوه فيسيل العرق من بين نخذه كما يسيل بوله .
والمعنى - كما ترى - فسل رذل ، وليس فيه كبير طائل ، بل فيه
إساءة الأدب بالأدب كما يقول الثعالبي^(١) .

* * *

وقوله :

كتمت حبيك حتى منك تكسرة ثم استوى فيه إسراى وإعلاني
كأنه زاد حتى فاض عن جسدى فصار مغمى به في جسم كتمانى
والمعنى : كتمت حبيك حتى غلب علىّ الوجد فظهر ، وتساوى فيه كتمانى

والفشائي ، فكأنه زاد حتى فاض عني ، وصار جسمي على جسمي ، وحينئذ سرى
سقم جسمي إلى جسم الكتمان فضعف ، وافتضح ما كان مكتوما عندي .
والتشبيه مستغلق مبهم لا يفهم بغير عسر وعناء .

* * *

وقول بعضهم :

شبيه أبيه خلقه وخلقة كما حذيت يوما على أختها النعل
وذكر النعل هنا أقبح القبح ، ومن يرضى مثل هذا الوصف ، يجب أن
يحكم عليه بالتجرد من الذوق .

* * *

وقول ابن فرناس :

رأيت أمير المؤمنين محمدا وفي وجهه بذر المحبة يُشمر
فقال له مؤمن بن سعيد : قبحا لما ارتكبته ! جعلت وجه الخليفة
حرثا يُشمر فيه البذر ! خجل (١) .

وقد كان من السهل أن يقتدى بأبي تمام في قوله :

هي البدر يُغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقته وإن لم تودد

* * *

وقول أبي نصر بن نباتة :

فأياكم أن تكشفوا عن رءوسكم ألا إن مغناطيسهن الذوائب
ومغناطيسهن كلمة غير مرضية ، لأنها من مصطلحات العلوم ، ثم لكثرة
حروفها وخروجها عن حد الاعتدال (٢) .

(١) تقيع الطبيب — ٢ — ٣٣٢ .

(٢) سر الفصاحة — ٨٠ .

فهى مثل سويداواتها ، وسراويلاتها فى قول المتنبي :
إن الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها
وقوله :

إني على شغفى بما فى خمرها لا عفا عما فى سراويلاتها
وقول أبى تمام :

العيس تعلم أن حوباواتها ربح إذا بلغتك إن لم تنحر
وكلمها مفرط فى الطول والثقل :

* * *

وقول بعض المولدين :

أسفرى لى النقاب يا ضرة الشمس

وقد استرذل :

قال الرماني : أترأى ظن أن الضرة لا تكون إلا حسنة^(١).

ونحن لانوافقهم على هذا رأى ؛ فقد لانكون الضرة حسنة دائماً ،
ولكن بما لاختلاف فيه أنها توحى بالمثلية على الأقل ، لأن الضرتين فى
الأصل : الآلية من جانبى عظمها .

فالضرة مساوية للضرة ، وكل ضرة ند للآخرى ، ومتى ثبت ذلك انتفى
الغيب عن ضرة الشمس ، لأنها تشا كل الشمس فى صفاتها حتى لتضاربها .
وفى شعر الحسن بن وهب ما يؤيد ذلك ؛ فقد ذكروا : أنه قدّم إليه
كانون وكان معه قينة يهاها ، فأمرت بإبعاد الكانون فأنشأ يقول :

بأبى كرهت النار حتى أبعدت فعرفت ما معنأك فى إبعادها

هي ضرة لك بالتماع شعاعها وبحسن صورتها لدى إيقادها (١)
وأرى صنيعك بالقلوب صنيعها بأراكمها وسيالها وعرادها (٢)
شركتك في كل الأمور بحسنها وضيائها وصلاحيها وفسادها
فهو يجعلها ضرة بكل ما تفيد هذه اللفظة من معاني الاشتراك بين
الضرتين ، حتى في الصلاح والفساد .

على أن المعروف أن الضرة الثانية ، تكون في الأعم الأغلب أكثر
شباباً أو جمالاً ، ومن ثم حدثت الرغبة فيها ولم يكتف بالاولى ، فكان
الشاعر حين قال هنا : يا ضرة الشمس ، قال ضمناً : يا من هي أشبه شباباً
وأجمل جمالاً .

وأقوال الشعراء تشير إلى ذلك ؛ فابن لنسكك يقول :

البدر والشمس المنيرة والضحا والكوكب
أضحت ضرائر وجهها من حيث يطلع تغرب
ويقول أبو محمد بن سفيان الأندلسي :

يا ضرة الشمس قلبي منك في وهج لو كان للنار لم تسكن حشا حجر
ويقول أبو العلاء بن أبي الندى :

يا ضرة القمرين من لمتيم أرديته وأحلت ذلك على القضا
وحياة وجهك لم ينم عن سلوة بل كان ذلك للخيال تعرضا
لأناسفي أن زار طيفك في الكرى ما كان إلا مثل شخصك معرضا
ويقول ابن محير بن البغدادى :

(١) هذه رواية المممة ، وفي أمالي القالي : بالتماع ضيائها .

(٢) السيل كسحاب : نباب له شوكة أبيض طويل ، والفراد كسحاب أيضا : نبت ،
والفليظ العاصي منه .

يا نساء الحى من مضر إن سلى ضرة القمر
 إن سلى - لاجعت بها - أسلمت طرفى إلى السهر
 فهى إن صدت وإن وصلت مهجى منها على خطر
 وسواد الشعر أسكنها فى سواد القلب والبصر
 ويقول آخر:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سهميه فاقوم أعداء له وخصوم
 كضرائر الحسنة قلن لوجهها حسدا وبغيا إنه لديم
 فهؤلاء الشعراء جميعا لم يصفوا هؤلاء الحسان بأنهن ضرات الشمس
 والقمر والنار ، إلا لما صح فى خيالهم من أن الضرة لاتكون إلا ذات
 مينة عن سالفاتها .

وقول كشاجم:

والزهر والقطر فى رباها ما بين نظم وبين نثر
 حدائق كفى كل ربح حل بها خيط كل قطر
 والبيت جميل المعنى ، رائع الوصف ، مصيب التشبيه ، ولكن صياغته
 جعلت نطقه ثقيلا على اللسان ، وشابته بالتناثر ، حتى قال فيه ابن الأثير:
 وهذا البيت يحتاج الناطق به إلى بركار يضعه فى شدقه ، حتى يدبره له^(١) .

وقول الحسن بن طباطبا الإصبهاني^(٢):

منع الجسم تحسكى الماء رفته وقلبه قسوة يحسكى أبا أوس

(١) المثل البائر - ١١٨ .

(٢) الصنائع - ٣٦٠ .

يريد بأبي أوس : الحجر ؛ إذ هو : أوس بن حجر الشاعر الجاهلي المعروف.

أى قلبه حجر فى قسوته فأبعد التناول .

وقد كتب إليه أبو مسلم :

أباحسن حاولت إيراد قافية مصلية المعنى لجاءتك واهيه
وقلت أبا أوس تريد كناية عن الحجر القاسى فأوردت داهيه
فإن جاز هذا فأكسرنه غير صاغر فى أبى القرم الهمام معاربه
ولأقننا بيننا لك جدء فتصبح بمنوءاً بصفتين ثانيه

يريد بأبى معاوية : أبو سفيان واسمه : صخر بن حرب .

ويريد بجده : حرب بن أمية .

أى أكسر فى بصخر ؛ ولأقننا بيننا حرباً نعيد وقعة صفين مرة
أخرى .

وقول آخر :

إن التى ملكتني فى الهوى ملكت مجامع الحسن حتى لم تدع حسنا
رنت غزالا وفاحت غنبرا وبدت شمسا وماجت غديرا وانثنت غصنا
ومثله فى قول آخر :

منوع الحسن ييدى من محاسنه لأعين الناس أوصافا وأشكالا
فاقترا درا وغنى بلبلًا وسطا عضبا وماس تقاواهن عسالا (١)
ولا مرية فى جمال صور البيان إذا نظر إليها على انفراد فى هذه
الآيات ، فقد شبه فيها المحبوب بأكل ما يشبه به ، ولكن الغيب جاء من

(١) النقا : الكتيب من الرمل ، والصال : الريح المتهز .

ازدحام التشبيهات وتراكمها، حتى لتشعر بالتكلف وقصد الصنعة .

وأخف من ذلك مثونة قول الثعالبي :

فدينك يا أتم الناس ظرفا وأصلحهم لمتخذ حبيبا
فوجهك نزهة الألاحظ حسنا وصوتك متعة الأسماع طيبا
رفا ظيبا وغنى عندليبيا ولاح شقاتقا ومشى قضيبا
ومن التشبيه المتجاوز حد الفسولة : ما حدثت الصولى : من أنه كان
لمحمد بن الحسن الحصنى ابن .

فقال لآبيه : إني قد قلت شعرا - وكان الحصنى سيداً ظريفاً - فقال :
أنشدنيه يا بنى لئلا يلعب بك شيطان الشعر !
قال : فإن أجدت أتهب لى جارية أو غلاما ؟
قال : بل أجمعهما لك .
فأنشد الابن :

إن الديار بيمسفا هيئجن حزنا قد عفا
أبكيته لشقاوقى وجعلن رأسى كالعفا
فقال : يا بنى ، والله ما تستأهل بهذا الشعر جارية ولا غلاما ، ولكن
أملك طالق ثلاثا إذا ولدت مثلك !

* * *

ومن الشعر الحديث على سبيل المثال قول إسماعيل صبرى :
أنت يَمُّ الحسن فيه ازدحمت سفنُ الآمال يزجها الرجاء
فلم تبحر العادة أن يقال للحسناء : أنت يَمُّ الحسن أو نهر الحسن أو بحر
الحسن ، وإنما غير منكور أن يقال لها : روضة الحسن مثلا .
هذا من حيث اللفظ ، وأما من حيث المعنى فإن الذوق ينفر من تصور

هذه الحسناء بجرأ زاحراً حشدت فيه سفن الآمال ، تشقه طولا وعرضا
وجيئة وذهوبا !

وكان الأفضل أن يصورها كعبة تطوف بها الآمال ، أو قبلة تتجه
إليها الرغائب !

ومع أنى لست من أنصار عصر الشعر ، وتطبيقه على قوانين المنطق ،
إلا أنى أرى أنه لا يصح أن يبلغ فيه التجوز ، إلى هذا الحد الصارخ المجانب
للذوق السليم !

وكثيراً ما يغزو القبح التشبيه من جميع جهاته ، حتى يحول قبحاً مجتداً
يغدش الحاسة الفنية من حيث نظرت إليه .

ولا أجد مثالا أنطق بذلك وأجمع له ، من قول ديك الجن الحمصى في
ابتداء قصيدة :

كانها ما كانه خلل الخلة م وقف الهلوك إذ بغما
ومن العسير فهم هذا البيت قبل شرح مفرداته .

فالضمير في « كانها » ، للمحبوبة ، وفي « كانه » ، للغزال :

« والخلة » ، بالضم : نبات يرعى ، والوقف بفتح الواو : السوار من
العاج وغيره ، والهلوك : الجارية الحسنة المشى ، المتهالكة فيه ، أو البغى
الفاجرة ، وبغم : صاح .

والمعنى : أن عشيقته في جيدها وعينها ، كانها الغزال الذى كانه بين
نبات الخلة ، سوار الجارية المتهالكة فى المشى أو البغى !

فأهذا كله ! وأى شئ تحته !

وقد أنشد ديك الجن شعره هذا دعبلاً الخزاعى فقال دعبل : أمسك
فوالله ما ظننك تم البيت الأول ، إلا وقد غشى عليك ! أو تشكيت فكيف
ولكأنك فى جهنم تخاطب الزبانية ، وقد تخبطك الشيطان من المس !

وإنما أراد ديك الجن أن يهول عليه ، ويقرع سمعه عسى أن يردعه ،
فسمع منه ما كره أن يسمعه ولعمري ما ظله دعبل ١ .

ولقد أبعد ديك الجن مسافة الكلام ، وخالف العادة ، وهذا بيت قبيح
من جميع جهات :

منها إضمار ما لم يذكر قبل ولا جرت العادة بمثله فيعذر ، ولاكثر
استعماله في شهر .

ومنها إحالة تشبيه على تشبيه ، وثقل تجانسه الذي هو حشو فارغ .

ومنها استدعاء قافيته لا شيء إلا لفساد المعنى واستحالة التشبيه ١

ثم ما الذي يريد ، يبعث ، في تشبيه الوقف — وهو السوار — ؟

ولم كان الوقف للملوك خاصة (١) ١

الفصل السادس

أثر البيئة في التشبيه

حينما ننعم النظر في التشبيهات التي تعرض لنا ، لا يُعِيننا كثيراً أن
نفسها إلى عصورها التي قيلت فيها ، كما نستطيع أن نقيّن مظاهر البيئة الطبيعية
التي أحاطت بأصحابها ، وألوان المعارف التي ألموا بها ، ومبلغ حظهم من الرقي
والتأخر ، والرفاهية والخشونة ، والغنى والفقر وما إلى ذلك .

وليس ذلك بمجيب ، فإن خيال المنشئ كاتباً كان أو شاعراً أو خطيباً
يستظهر في تأليف صورته وتخييرها بالمعلومات المخزنة لديه .

وهذه المعلومات يلقفها عما تقع عليه حواسه ، أو يقبسها من موارد
العلوم والآداب ، والثقافات المختلفة التي حصّلها ، أو يستملها من التجارب
الشخصية التي مرت به في الحياة ، وهذه كلها حقول خصيبة لا ينفد نتاجها
ولا يفنى محصولها .

فالبينة التي نعنيها هنا هي ما أرادته « مدام دي ستايل » : من أنها معنى
يتسع لكثير من الاعتبارات الاجتماعية ؛ مثل الدين والخلق والعادات
والقوانين التي تؤثر في الآداب ...

وقد كانت هذه الأدبية الكبيرة تعلّق على مسألة البيئة كثيراً ، وترى أنها
وحدها مبتكرة وأنها فنية ومُعينة على الفن ، ولا تفهمها على أنها طبيعية
فقط ، ولكن على أنها خصائص مادية وعقلية وروحية .

ثم هي ترى أن البيئة أوجدت أدبا ، وأوجدت الفروق بين الآداب ،
فإذا كان أدب الجنوب في أوروبا كلاسيكياً اتباعياً ، فلأنه قريب من الأدب

اليوناني واللاتيني ، وإذا كان أدب الشمال رومانسيا ابتداءيا ، فلأنه من أدب البحار ، استمد الغيوم والسحب ووصف المخاوف والمفاجآت ، ووصف المحيطات وما حولها من أقاليم .

ولعل نشأة أدب القصة في الشمال ينسب إلى البيثة أيضا ، وما ياتف حولها من أخيلة ، مسكنها الأحراش والأدغال ، ومسرحتها أخطار البحار وأخطار الأسفار ، وتصورات الملاحين^(١) .

وفي ظل البيثة الشرقية قامت فنون أدبية خاصة اتسمت بسمات خاصة ، كوصف الرياض والأزهار والأثمار والفواكه والنسيم ، ومظاهر الربيع الفاتنة البهجة في البلاد الشجرية التي تميز فيها الفصول تميزاً ملحوظاً .

وكوصف النار ومواقدها وآلات التدفئة ، والتلج والبرد في البلاد التي يقسو فيها الشتاء ، ويشتد الزمهرير ، ويكلب الصقيع .

وكوصف السحب والرياح والبرق والصواعق في البلاد القائمة الأجواء ، الغزيرة الأمطار .

وكوصف الأديار والخمر المعتقد واليسع والرهبان ، والنسيب بالرواهب ، الكتايات الجميلات في البلاد التي يكثر فيها المسيحيون واليهود والصابئة .
وكوصف المواسم الدينية وحفلاتها ومباهجها في عصر أيام العهد الفاطمي .

وكرثاء المدن الناهية ، والاستنجاد بالرسول والأولياء وملوك المسلمين في الأدب الأندلسي .

وكالحماسة الصارخة بالدم ، والدعوة إلى الجهاد ، والشغف بالاستشهاد في أدب الخوارج .

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب - ٢٧١ .

وكالاتها العميق والرئاء الفاجع والحزن الغامر في أدب الشيعة وهكذا.

ومن ثمَّ كان لابد أن تختلف التشبيهات في أساليبها ومعانيها وأخيلتها باختلاف صُوِّاغها الذين يختلفون في المربي والمنشأ والثقافة والزمن ، والنظر إلى الأشياء وتناولها وتقديرها والحكم عليها .

ولقد صدق أحد الفلاسفة في قوله : إني لا أسأل عن السبب في أن معنى من المعاني يدعو آخر ويأخذ بناحيته ، ولكنني أبحث في شيء آخر وهو أن المعنى الواحد قد يختلف تواليه باختلاف الأشخاص .

ثم يقول : ويمكن الجواب عن هذا : بأن الناس يختلفون في ميولهم وشُعَب وجهتهم في الحياة ، فكل معنى يدعو لصاحبه ما هو الصق بميله وأقرب إلى عمله ^(١) .

فثلاً إذا سمعنا هذا البيت :

وكلفتني ذنب امرئ وتركته كذى العريكوى غيره وهورائع ^(٢)
حكمتنا : بأنه من آثار الجاهلية ؛ فإنه يشير إلى عادة من عاداتهم ؛ وذلك أنهم كانوا يزعمون : أن الإبل إذا أصابها العر ، فأخذوا الصحيح وكووه زال العر عن السقيم ^(٣) .

والبيت للناطقة الذبياني

وقول شاعر :

بدلته الشمس من منبتها برداً أبيض مصقول الأشر ^(٤)

(١) الخيال في الشعر العربي — ١٨٠ .

(٢) العر بالفتح والضم : الجرب ، وبالضم : قروح في أعناق الفصان ، وداء يمسح عنه وير الإبل .

(٣) نهاية الأرب — ٣ — ١٢٣ .

(٤) الأشر بضمين ، وضم وفتح : التحزير في الأسنان خلقة واستعمالا .

وذلك أن غلبانهم كانوا إذا مقطط أسنانهم ، رموا بها في عين الشمس
بسبب آباتهم وأباهيمهم ، وقالوا : أبدلينا أحسن منها .

ولا يزال هذه العادة جارية في القرى حتى اليوم .

والبيت لطرفة بن العبد .

وقول آخر :

إني وقتلي سـليـكا ثم أعقـله كالثور يضرب لما عافت البقر
فقد كان من عاداتهم — إذا امتنعت البقر عن الشرب حين الورد —
ضربوا الثور ، لتخاف وترد الماء .

والبيت لأنس بن مدرك الخثعمي .

وكذلك إذا سمعت النشيبات الآتية لم تتردد في الحكم عليها : بأنها
نتاج الجاهلية ، أو نتاج الصحراء دون أن تعرف أسماء أصحابها ، كقول
أمرئ القيس :

تري بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل
والآرام : الظباء البيض الخالصة البيضاء ، وهي تسكن الرمل عادة .
وقوله :

كأنى غداة البين يوم تحمّلوا لدى سُمُرات الحى ناقف حنظل
وناقف الحنظل ينسقفها بظفـره ، فإن صوّتت علم أنها مدركة فاجتـهاها ،
فحينئذ تدمع لحدة الحنظل وشدة راحته ، كما تدمع عيننا من يدوف الخردل .
فشبه نفسه حين بكى بناقف الحنظل (١) .

وقول النابغة :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

(١) الشعر والشعراء — ٥٢ .

ونأخذ بعده بذئاب عيش أجب الظهر ليس له سنام
الاجب : المقطوع السنام من الإبل .
والتشبيه صورة واضحة من صور البداوة .
وقول حزار السعدى :

وإني وتهبى بزئب كالذى تطالب من أحواض صداه مشربا
وصداه ككتان : ركية أو عين ليس عندهم أعذب منها .
وقول العماس بن عقيل لأبيه :

أكلت بنبك أكل الضب حتى وجدت مرارة الكلاء الويل
وكانوا يقولون : إن الضب يأكل أولاده عقوقامنه لها ، والقطعة
تأكل أولادها حبا لها .

أما ترى القطعة من ودادها تأكل ماعز من أولادها
وقول أبي ذؤيب الهذلى - يصف حمر الوحش - :

بعثرن فى علاق النجيع كأنما كُسيّت برود بنى تزيد الأذرع
يصف أذرع الحمر الوحشية - وهى تعثر فى الدم - بأنها كسيّت هذه البرود
المنسوبة إلى بنى تزيد وهم بطن من قضاة .

وقول عبدة بن الطبيب فى الصعلكة :

نمّست قننا إلى جُرد مسوومة أعرافهن لأيدينا مناديل
وهو مأخوذ من قول امرئ القيس :

نمّش بأعراف الجياد كفننا إذا نحن قننا عن شواء مضمّ

المش : مسح اليد بالمشوش لتنظيفها وقطع دسمها ، والمضّم المشوى على
الحجارة المحماة ، والذى لم ينضج ، وقد كانوا يمسحون أيديهم بعد الأكل
فى أعراف الخيل .

وقول جيهاء الأشجعي :

كان أجيح النار إرزام شخبها إذا امتاحها في محاب الحو مانع
الشخب بالضم والفتح : ما خرج من الضرع من اللبن ، والإرزام :
الصوت .

شبه ضرع العز بالكبر ، وصوت الحلب بالآزين .

وقول سويد بن أبي كاهل اليشكسري :

وجفان كالجوابي مُلئت من سمينات الذرا فهي ترزع^(١)

وقول عوف بن عطيه بن الخرع - يصف فرسه - :

لها حافر مثل قعب الوليد يتخذ الفار فيه مُغارا

لها كفّل متن الطرا ف مدّد فيه البناء الحتارا

وقول عنقرة :

بطل كأنه ثيابه في سرحه يُحذى نعال السبّت ليس بتوم

السبت بالكسر : جلود البقر ، وكل جلد مدبوغ ، أو مدبوغ بالقرظ .

والنعال السبتية لم يكن يحتذيها بينهم إلا كل رجل شريف ، فوصف

عنقرة من قتله بأنه كان ملكا .

وقول مُزرّد أخى الشماخ :

وأصحم ريان القرون كأنه أساودرمان السباط الأطاول

الأساود : الحيات السود ، وorman بفتح الراء : موضع ببلاد طي .

والسباط : اللينة .

يشبه شعر محبوبته بحيات هذا المكان اللينة الطوال .

(١) الترع : الملوقة .

(٢) الطراف بالكسر : البيت من الأدم ، والختار بالكسر : الحبل .

وقوله يصف الريح :

أصم إذا ما هُزَّ مارت سَراته كما مار ثعبان الرمال المَوائِل

سَراته : أعلاه ، والموائِل : المحاذِر الذى يلتمس النجاة .

يشبه الريح — إذا اضطرب أعلاه لدى هزه — باضطراب ثعبان

الرمَل فى مشيه ، حين يبتغى الملجأ ويطلب السلامة .

وقول جِران العُود :

ألا لا يغرنَّ امرأً نَوفَليَّةٌ على الرأسِ بعدى أو نرائبُ وُضَّح

ولا فاحمُ يُسقى الدهانَ كأنه أساورُ يزهاها لعينك أبطح

النوفلية : ضرب من المشط ، أو شيء يتخذُه نساء الأعراب من صوف

يكون فى غلظ الساعد ، ثم يحشى ويعطف ، فتضعه المرأة على رأسها ثم تختمر عليه .

ويزهاها : يرفعها ويحركها .

شبه شعرها الفاحم الدهين ، بالحيات المضطربة فى المسيل الواسع ، به

دُقاق الحصى .

وقول الشيباني .

وللحلى وسواس عليها إذا مشت كما اهتز فى ريج من الصيف عِشْرَق

العِشْرَق بالكسر : شجر قدر الذراع ، لها حب صفار إذا جف صَوْت

بمرور الريح .

شبه وسوسة الحلى لدى مشيها ، بصوت هذا الشجر إذا حركته الريح .

وقول رجل من عبْد قيس :

تركت الريح يبرِّق فى صَلاه كأن سَنانه خرطوم نسر

الصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع ، والخرطوم :
المراد به منقار النسر .

شبه الرمح بمنقار النسر في دقته ونفاذه .

وقول عمرو بن الأيهم التغلبى في الخيل :
وتراهن مُشزَّبا كالسعالى يتطاعن من ثغور نقاب
الشزب : الضوامر : والسعالى : الغيلان ، أو ساحرات الجن جمع سعالاة
بالكسر ، والنقاب : طرق الجبال .

شبه الخيل في ضموورها وألوانها المختلفة بالسعالى .

وقول عويمر النهانى :

فبت معنىً بالهموم كائنى سليم نفي عنه الرقاد الجلاجل
شبه نفسه في همومه المنفرة للنوم عنه ، بالملدوغ تعلّق عليه الجلاجل
حتى لا ينام ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الملدوغ إذا نام سرى السم في جسمه
وقول شاعر يهجو كعب بن مجعيل التغلبى :

ومسميت كعبا بشرّ العظام وكان أبوك يسمى الجُعَل
وكان محلك من وائل مكان القُرَاد من است الجمل
يصفه بأنه ينزل من القبيلة أحط المنازل ، كما ينزل القُرَاد في أخس
المواضع .

والتشبيه ثابت في معاطن الإبل :

وقول عُروة بن الورد — يمدح صعلوكا مثله (١) — :

مُطلّا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيع المشهر
المنيع بالفتح : من قداح الميسر التى لاحظ لها كالسفيح والوغد (٢) :

(١) ديوان الحماسة — ١ — ١٦٠ .

(٢) الميسر والأزلام — ٣٧ .

والمعنى : أنه مطل على أعدائه بالغارة فيدفعونه عن ساحاتهم ؛ كالقذح
الذى لا حظ له ، ينفر منه كل واحد فهو مدفوع أبدا .

وقول أبي ثمامة الضبي :

كفأرك عند بينك لحم ظبي وجارى عند بيتي لا يرام
يقول له : إن جارك لضعفك ذليل معتدى عليه ، مثل ظبي يتناول كل
مفترس ، وجارى لقوته عزيز لا يستطيع أحد أن يصل إليه بأذى .
وقول يجمع بن هلال :

وخيل كأسراب القطا قد وزعها لها سبيل فيه المنية تلعب
السبل محركة : المطر ، ووزعها : كففها .
شبه الخيل في اجتماعها بأسراب القطا ، وتتابعها في الغارة بتتابع
المطر وتدفعه .

وقول الأحنس بن شهاب التغلبي :

ترى رائدات الخيل حول بيوتنا كعزى الحجاز أعجزتها الزرائب
الرائدات : التي ترعى ولا تغلف في البيوت .
شبه خيولهم بكثرتها حول بيوتهم ، بعزى الحجاز التي لا تنسج لها الزرائب :
وقول امرأة ترى أباهما :

إذا ما دعا الداعي عليتا وجدتي أراع كما راع العجول مهيب
العجول : الناقة التي فقدت ولدها ، والمهيب : الراعي الذي ينادى للإبل .
شبهت نفسها بأنها تراع — إذا سمعت اسم والدها — كما تراع الناقة
الفاقة إذا ناداها الراعي ؛ لأن فقدتها ولدها جعلها تفزع لأقل الأسباب .
وفي معناه يقول المجنون :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فمسيح أحزان الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ايلي غيرها فكأنما أطار بليلي طائرا كان في صدرى

وقول عبد الله بن عجلان الهذلى :

جديدة سربال الشباب كأنها سقيية بردى نمته غيوها

السقية : المسقية ، والبردى : نبت ناعم ، والغيول : الوديان تسيل فيها العيون ؛ جمع غيل بفتح الغين .

شبهها في نضارة ثيابها وميعة صباها ، بنبتة من البردى تسقى بماء الوديان .
وقول عروة بن حزام :

كان وشاحينها إذا ما ارتدتكما وقامت عنانا مهرة سلسان

شبه وشاحينها في حال قيامها بعناني المهرة المسترسلان .

وقول الشماخ بن يعمر الكنانى :

كلما حاربت خزاعة تحددو فى كانى لأمهم جمل

وقول الحارث بن وائلة الجسرى :

ووطئنا وطأ على حنق وطء المقيد نابت الهرم

الهرم : يأسكان الرء : شجر ضعيف :

شبه وطأهم بوطء البعير المقيد ؛ لأنه يكون أثقل لعدم تمكنه من

وضع قوائمه حسب إرادته .

وقول رشيد العنبرى :

باتوا نياما وابن هند لم ينم بات يقاسيها غلام كالزلم

ابن هند : شريح بن ضبيعة ، والزلم : واحد الأزلام ، وهى السهام التى كان أهل الجاهلية يستقسمون بها .

وقول متم بن نويرة - يصف حمار الوحش وأتانه - :

يعدو تبادره المخارم تمنحج كالذلو خان رشاوها المتقطع

الضمير في يعدو لحمار الوحش ، والمخارم الطرق في الجبال ، وأفواه
الفجاج ، والسمحج : الصلبة القوية يريد بها الاتان .

شبهها في سرعتها بالدلو حين انقطع رشاؤها فسقطت في البئر ، فهو
يعدو ، والاتان تسابقه .

وقوله - يصف السيف - :

ولقد ضربت به فتسقط ضربى أيدى السكاة كأنهن الخروع
شبه سقوط أيدى السكاة حين يضربها بسيفه بسقوط الخروع ، لأنه
شجر لين .

وقوله :

وأرملة تمشى بأشعث مُحَلَّ كفرخ الحُبَارَى رأسه قد تنضوعا
الأرملة : التي مات زوجها ، والأشعث المتلبد الشعر ، والمحَلَّ : الذي
أمى غذاؤه : يريد به ولدها ، والحُبَارَى : ضرب من الطير ، وتنضوع :
تفرق ؛ يريد شعره .

شبه ولد هذه الأرملة في مظاهر الضر البادية عليه ؛ بفرخ الحُبَارَى
المتفرق شعر الرأس .

وقول الشنفرى - يصف حركات السيوف - :

تراها كأذ ناب الحَسِيل صوادرا وقد نهلت منه الدماء وعلت
الحَسِيل : أولاد البقر جمع حَسِيلَة .

شبه السيوف بأذنان أولاد البقر ، حين تحركها إذا رأت أمثاتها .
وقول ثعلبه بن صُصَيْر المازني في وصف النعام :

فبنت عليه مع الظلام خيامها كالأحمسية في النصف الحاسر
الضمير في ، عليه ، لبيض النعام . والأحمسية : المرأة المنسوبة إلى

الحمس ، وهم : قريش ، وخزاعة ، وبنو عامر ، وكنانة ، وجديلة ؛ سمووا بذلك لتحمسهم في دينهم ، أو لالتجائهم إلى الحمساء وهي الكعبة ، والنصيف ؛ القناع ، والحاسر : الكاشفة لوجها ورأسها .

شبه النعامة في جثومها على بيضها ، بالمرأة الاحمسية الملتحفة بقناعها والحاسر عن وجهها ورأسها .

وقول المثقّب العبدى - يصف الخيل - :

وأمكن أطراف الأسنة والقنا يعاسيب قود كالشّنان خدودها

اليعاسيب : أراد بها كرام الخيل ، والقود : الطوال الأعناق جمع أقود وقوداء ، والشّنان : القرب البالية جمع شن بالفتح وتشديد النون .

شبه خدود الخيل في قلة لحمها بالقرب البالية .

وقول مُسَبِّع بن الحظيم التيمي - يصف المطر والنبات - :

تنفى الحصى حَجَرَاتِهِ وَكَأَنَّهُ بِرَحَالِ حَمِيرٍ بِالضُّحَا مُحْفُوفٍ

الحجرات بالفتح : النواحي : يريد أن شدة وقع السحاب تطير الحصى ورحال حمير : أراد بها ألوان النبات الناتج عن المطر .

شبه النبات في اختلاف ألوانه برحال حمير المختلفة الألوان ؛ لأنها رحال ملوك .

وقول بشر بن حازم في وصف الفرس :

كَأَنَّ سَرَائِهِ وَالْخَيْلَ مُشْعَثَ غَدَاةٍ وَجَيْفَهَا مَسْدُ مُمَغَارٍ

سرائه : أعلاه ، وشعث . غبر من طول السفر ، والوجيف ؛ المر السريع ، والمسد : الحبل ، والمغار ، الشدبد القتل .

شبه أعلى ظهره في شدته واملاسه واستوائه ، بالحبل الشديد القتل .

وقول المرقش الأكبر — يصف الطعن — :

لمن الطعن بالضحا طافيات شبهها الدوم أو خلايا السفين
الطعن : الإبل بهوادجها فيها النساء ، وطافيات : عاليات ، والخلايا :
السفن العظيمة .

شبه الهوادج المضروبة على النساء فوق ظهور الإبل عاليات — كأنها
تسبح في ضياء الضحا — بشجر الدوم ، أو بالسفن العظيمة فوق ظهر البحر .

وقول ذى الرمة :

حديث كوقع القطر في المحل يشتق به من جوى في داخل القلب لاطف
اللاطف : اللاصق .

يشبه أثر الحديث في إروائه الغلة ، وشفاته العلة ، بأثر الغيث في الأرض
المجدبة ، يحياها من الموت فتهتز وتربو .

وقول مسكين الدرامي :

كان قدور قومي كل يوم قباب الترك مُلبَّسة الجلال
كان الموفدين بها جمال طلاها الزفت والقَطِران طالى
بأيديهم مغارف من حديد أشبهها مُقَيِّرة الدوالى
شبه قدور قومة في عظمها واتساعها وسواد ظاهرها ، بقباب الترك التي
ألبست أغطية سودا .

وشبه الموفدين بها — أى المشرفين عليها — بالجمال المطلية بالزفت
والقطران لما أصابهم من السواد .

وشبه مغارف الحديد التي بأيديهم ، بالدلاء المغالية بالقار وهو الزفت

والصورة معرقة في البداوة والحشونة ، ويكفي أن تغرق في الزيت
والقطران إلى هذا الحد

وقول شاعر - يصف الصحراء - :

كان قلوب أدلائها معلقة بقرون الظباء

الأدلاء : الذين يهدون الناس ، والضمير فيها يعود إلى الصحراء .

وصف قلوبهم بالوجيب والاضطراب في أحوال الجزع والهلع .

ولأنما خص الظبي لأن قرنه أكثر تحركا واضطرابا ، لنشاطه ومرحه
ومرعه^(١) .

وقول آخر :

كان لون البيض في الأدحى لونك لولا صفرة الجادى

الأدحى : مكان بيض النعام في الرمل ، والجادى : الزعفران .

يريد : أن لونها أصفر لتضمنها بالزعفران ، وكانت العرب تحب ذلك^(٢) .

هذه التشبيهات كلها قفيء بصورها ومعانيها وأخيلتها ودلالاتها وانزعاجاتها
وبما تضمنته من أخلاق وعقائد وعادات ، بأن قائلها إما أن يكونوا من أهل
الجاهلية ، أو من سكان البوادي ، لأنها بكل شياتها وسماتها بعيدة عن منازع
الحضرين .

ولاربية أن كثيرا من أمثال هذه التشبيهات ، لا يحل في صدورنا ولا يندى
على أكبادنا ، لأن بينه وبين أذواقنا حجابا كثيفا يجعلنا نشبح عنه ونفر منه
لاختلاف الطبيعة والبيئة وبعد العهد ، إلى غير ذلك مما يلون النظر إلى الأشياء
ويوجب التنافر .

(١) أمالي المرتضى - ٢ - ٩ .

(٢) ديوان الصباية - ٦٩ .

فمثلا كانوا يشبهون الثغور قديما بالسَّيَال ، وهو نبت له شوك أبيض
طويل ، إذا نزع خرج منه اللبن ، أو هو ما طال من السَّمُر .
ومن ذلك قول نابغة شيبان :

فهى بيص حور تبسم عن غر م وأنيابهن شوك السيال
ونحن لانستملح تشبيه الثغور الرقيقة الوضیة بالشوك ؛ أيا كان حسنه
ومزیتة !

وبخاصة أننا لم نر هذا النوع من الشوك الذى استحسنوه فنأنس به ونألفه .
وكانوا يشبهون خصور الحسان بخصور الزناير كما قال عمر بن أبى ربيعة :
وثلاث لقيت فى الحج يوما كظباء المها ملاح ظراف
يتقابلن كالبدور على الأغصان م فى مثل من الأرداف
بخصور تحكى خصور الزناير م رفاق هممن بالانقصاص
وقد جرى كثير من الشعراء فى هذا النهج حتى الشاعر المصرى الموسوم
بالرقة والظرف البهاء زهير ، حيث يقول فى وصف مجلس أنس جمع غادات
مسيحيات :

وجوه كالتصاوير نصلى للتصاوير
ومن تحت الزناير خصور كالزناير

وخصور الزناير دقيقة رقيقة ناحله كأشد ما يكون النحول ، ولكن
أذواقنا العصرية المرهفة اليوم تضيق بهذا التشبيه ، ولا ترى فى الزناير إلا
أنها حشرات مزعجة مؤذية ضارة ، وأسمائها ثقيلة على السمع ؛ تشير إلى
أشياء يستحيا منها .

ولو أن إنسانا فى عصرنا قال لشوواء به حسناء : إن خصرك كخصر
الزناير ، ما استطاع أن يخلص منها سليم الأديم !

وكانوا يشبهون مشية المرأة بمشية الحية أو الثعبان أو الحباب — كما سبق — أو الأنيمة^(١) كقول بعض الشعراء :

تسيب انسياب الأنيمة أخصره الندى فرفّغ من أعطافه ما ترفعا
يعنى : أنها تندافع في مشيتها تدافع الحية التي يلذعها برد الندى ، فترفع
ما تقدر عليه من أعطافها .

ولا شك أن للحية انسيابا ، رهوا ، مع السرعة الغريبة ، ولا سيما إذا كلب
عليها برد المطر وغمز جلدها ، ولست نأمن مع ذلك لارضى للفيء الأماليد
تلك المشية ، ولا يرضيها لأنفسهم وإن رضى هذا الشاعر .
وبخاصة أن العرف جرى على تشبيه المرأة بالحية في المكر والدهاء
واللؤم والخبث والدس .

ومن ذلك أيضا : أنهم كانوا يسمون المرأة الجرباء
والجرباء في الأصل : السماء ، أو الناحية التي يدور فيها فلك الشمس
والقمر .

وقد سميت السماء بذلك تشبيها للنجوم بما آثار الجرب .
وسميت بهذا الاسم بفت قسامة الطائفة لحسنها الفائق ، فقد كانت لا تقف
إلى جنبها امرأة — وإن كانت جميلة — إلا استقبح منظرها لجمالها
فكان النساء يتحamen أن يقفن إلى جنبها ، فشبهت بالنافة الجرباء ، التي
تتوقاها الإبل مخافة أن تعديها .

ثم أطلق هذا الاسم على كل جارية حسناء^(٢) .
وآثار القدامى حافلة بالتشبيهات التي استمدوها مما أحاط بهم وأثر فيهم

(١) الأنيمة بفتح وسكون وبكسر الهمزة أيضا : الحية الأبيض اللطيف أو هو عام .

(٢) الأغاني — ١٨ — ٢٠٣ « ساسى » .

وقد حرصنا على إيراد صدر صالح منها فيما تقدم .
ونضيف إلى ذلك أن بعض الشعراء عرف بألوان من الأوصاف
والتشبيهات ، كوصف النور الوحشى ، وتشبيه النعام للطر مساح .
ووصف مغارز ريش النعام — إذا تساقط — للشماخ .
وتشبيه بيت العنكبوت بما يمتد من زبد الناقة تحت لحبيها في شعر الحظيئة
وتشبيه الذباب بالأجذم ، ولحي الغراب بالجم لعنترة .
وأشبه ذلك مما انفردت به الأعراب في البادية كعادتها ، مثل انفرادها
بصفات النيران والفلوات الموحشة ، وورود مياهها الآجثة ، وتعسف
طرقاتها المجهولة ، إلى غير ذلك مما لا يعرف عياناً إذ كان المحدث غير مأخوذ
به ولا محمول عليه .

على أن المحدثين قد شاركوا القدماء في كل ما ذكرته أيضاً ، إلا أن
أولئك أولى به ، وأحق بالتقدمة فيه ، كما خالطوهم في صفات النجوم ومواقعها
والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، وبكاء الحمام
وكثير مما لا يتسع له هذا الباب (١) .

ومن هذا ما يتعلق بالحيوان الذى شاهدوه وخبروا طباعه خبرة تنم عن
ملاحظة واسعة دقيقة ؛ كقولهم : أجزأ من الليث ، وأجن من الصافر (٢) ،
وأسخى من لانيظة (٣) ، وأصبر على الهوان من كلب ، وأحذر من عَقْعَق (٤)
وأزهى من غراب ، وأصنع من سُرقَة (٥) ، وأظلم من حية ، وأغدر من ذئب ،
وأخبث من ذئب ضَمَر ، وأشد عداوة من عقرب ، وأروغ من ثعلب ،
وأحق من حبارى ، وأهدى من قَطَاة (٦) ، وأكذب من فاختة (٧) ، والأم

(١) العمدة — ٢ — ١٨٦ — ١٧٧ .

(٢) الصافر : طائر جبان أو ما لا يصيد منها .

(٣) من معانيها الرحي لأنها تجود بالديق .

(٤) العَقْقَق : طائر أبيض يسود ويبيض يشبه صوته صوت العين والقاف .

(٥) السُرْقَة : دوبة تتخذ بيتاً من دقاق العيدان فتدخله وتموت فيه .

(٦) لأنها تصيح قَطَا قَطَا .

(٧) فاختة : طائر .

من كلب على جيفة ، وأجمع من ذرة^(١) ، وأعق من ضب . وأبر من هرة ،
وانفر من ظليم ، وأضل من حمار أهلى ، ومن ضب ، ومن حية .

فيعبرون عن هذه الأشياء بعبارة كالعبارة عن الناس في موضع الإحسان
والإساءة ، حتى كأنهم من الملمومين والمشكورين .

ثم يعبرون في هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير ، ويجعلون خيرهم
مقصوراً على ما في الخلقة من الغريزة والقوى ، فيقولون : أبصر من عقاب ،
وأسمع من فرس ، وأطول كدما من ضب ، وأصح من ظليم^(٢) .

وكانوا يقولون : ما هو إلا تيس في سفينة إذا أرادوا به الغباوة .
وما هو إلا تيس إذا أرادوا به زن الریح .

ويقولون : حية الأرض : للرجل المنيع الجانب ، كما يقولون : حية الوادى ؛
قال ذو الإصبع العدواني :

عذير الأرض من عدوا ن كانوا حية الأرض
ويقولون : أسرق من ذبابة .

وهي فارة صماء تضرب بها العرب المثل ، ويشبهون بها الجاهل .
قال ابن حنّـة اليشكري :

وهم ذباب حائر لا تسمع الأذان رعدا
وسميت النجوم بالعقرب تشبيها بها^(٣) .

ويشبهون السُّرَّ بقُرْاضة الذهب ، وبمناقير النِّغْران^(٤) ، والرماح
بالأشطان ، والأسنة بالشهبان .

(١) الذرة : النملة :

(٢) الذماء بالفتح : بقية النفس .

(٣) الحيوان — ١ — ١٠٤ .

(٤) أدب الكاتب — ١١٠ — ١١٦ :

(٥) النغران بالكسر : البلابل ، وأفراخ المصافير جمع نقر كمرود .

ويقولون للخطيب : كأن لسانه مبرد ، وللطويل : كأنه ربح ، وللهن
كأنه غصن تحت بارح^(١) .

ويشبهون الرجال الساقطين بالنساء الحيض ؛ قال الشاعر :
أفى السلم أعيارا جفءا وغلظة وفي الحرب أمثال النساء العوارك^(٢)
شبههم فى السلم بحمر الوحش فى جفائهم وغلظتهم على الأقارب لشعورهم
بالأمن .

وشبههم فى الحرب بالنساء الحيض لما يبدو عليهم من الذلة والانزواء .
ويقولون : أسخى من حاتم ، وأجود من كعب بن مائة ومن هرم ،
وأقرى من مطاعيم الریح ، وأشجع من ربيعة بن مكدم ، وأعز من كليب
وائل ، وأسود^(٣) من قيس بن عاصم ، وأحلم من الأحنف بن قيس ، وأذكى
من إياس بن معاوية ، وأفك من البراض بن قيس التميمي ، وأوفى من
الحارث بن عباد ومن عوف بن ملحان ، ومن هاني بن قبيصة ، ومن السموءل
ابن عادي ، وأجل من ذى العمامة^(٤) ، وأمضى من سليل المقائب ، وأغلى فداء
من حاجب بن زُرارة ، ومن إسطام بن قيس ، ومن الأشعث ، وأعدى من
الشنفرى ومن السليل بن السليلكة ، وأبطأ من فند ، وأنعم من عبود
ومن خريم الناعم ، وأبلغ من سحبان ، وأخطب من سحبان ، ومن قيس بن
ساعدة ، وأعيان باقل ، وأبر من العملاء ومن قنحس ، وأسأل من
قنحس ، وأبطش من دوسر^(٥) ، وأهدى من قيس بن زهير ، وأفرغ
حجام سابط ، وأندم من الكسعى ، وأمنع من الحارث بن ظالم ،

(١) البارح : الريح الشديدة ، وريح الصيف الحارة .

(٢) الأعيار : جمع عبر وهو حمار الوحش ، والعوارك : الخواض جمع عارك .

(٣) أكثر سوددا .

(٤) هو سعيد بن العاص الأموي .

(٥) كتيبة للنعمان .

وأخيـب صفقة من شيخ مهـو ، وأخسر صفقة من أبي غبـشان ، وأحمق
من راعي ضأن ثمانين ، ومن ربيعة البـكـاء ، وأنه من أحمق ثقيـف ،
والص من كـشـطاظ ، وأزنى من قرد ، وأمكر من قيس بن زهير ، وأبخل
من مادر ، وأضل من مـنـان ، وأكذب من مسيلة الخنـفي ، ومن المهلب ،
وأحمق من هـبـنـة ، وأمطل من عـرـقوب ، وأشأم من خوتعة ، ومن قـدار
ومن أهر ثمود ، ومن طـوـنـيس ، ومن البسوس ، وأنجب من مارية ، ومن
بنت الخرنـشـب ، ومن أم البـنـين ، ومن عانكة ، وأبصر من زرقاء اليمامة ،
وأمنع من أم قـرـفة . وأسرع من فسكاح أم خارجة (١) .

وقد جمع زيد بن جندب الإيادي عدة تشبيهات مأثورة عنهم في رثاء
داود بن جرير الإيادي حيث يقول :

فعمى نزارا بالبـكا والتـحـوُّب فعمى نزارا بالبـكا والتـحـوُّب
وكالبدر يغشى ضوءه كل كوكب وكالبدر يغشى ضوءه كل كوكب
وأصبر من عود وأهدى إذا سرى وأصبر من عود وأهدى إذا سرى
وأذرب من حد السنان لسانه وأضـى من السيف الحسام المشطب
ولأنك لتستطيع أن تعرف من الآيات الآتية على العصر الذي قيلت
فيه ، وعلى حظ أصحابها من الثقافة والمدنية دون أن تقف على أسمائهم .
قال شاعر :

عهدي بهم تستنير الأرض إن نزلوا فيها وتجتمع الدنيا إذ اجتمعوا

(١) انظر تفصيل ذلك وشرحه في نهاية الأرب — ٢ — ١٨٠ إلى ١١٤ .

(٢) البيان والتبيين — ١ — ٥١ .

(٣) التحوب . التوجع ، والموء بفتح فسكون : الجمل المسن .

(٤) المشطب : ما فية طرائق .

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة كأن أيامهم من أنسها يُجمع
فكلمة الجمع تدل على أن الشعر متأثر بالشعائر الإسلامية ، وأنه محال
أن يكون من آثار الجاهلية .

والشعر لأبي تمام الطائي .

وقال شاعر :

كانه وهو في البرج المنيّف به شمس البرية لا نار على علم
والبيت تبدو عليه شارة الحضارة ، وبخاصة إذا قسته إلى قول الخنساء :
أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فالأول : شمس في برج عال ، والثاني : جبل في ذروته نار .

فالاختلاف بين النظرة البدوية والحضرية واضح كل الوضوح .

والبيت الأول لابن الرومي يمدح به أبا الصقر الشيباني .

وقال شاعر :

كان خضرة نقش في معاصمها شباك مسك على كفّ من البرد
فن ملا مقلتيه من محاسنها كان الأمان لعينيّه من الرمد
وقائل الشعر غير معروف ، ولكنك تحكم مطمئناً بأنه قيل في حسناء
من حسان العصور القديمة ، أو حسناء قروية من حسان العصر الحاضر ،
ولكنها لن تكون على كل حال من حسان المدن المنهقات الأرستقراطيات
لأنهن يستنكفن من الوشم .

وقال شاعر :

وأنت أنذر من لاشيء في العدد

وهذا شعر عليه طابع الثقافة اليونانية ؛ فلا بد أن يكون عباسياً .

والبيت لأبي تمام .

وقال شاعر :

وكان عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنته
والشعر ينفتح بأريج الزينة والتجمل الذى نشرته الجوارى فى العصر
العباسى ، فقد كن يجعلن شعر أصداعهن على صورة الواو أو النون
أو العقرب .

والشاعر : ابن المعتز .

وقال شاعر :

أضحى ليوسف فى الجمال خليفة يخشاه كل العالمين إذا بدا
عرج معى وانظر إليه لكى ترى فى خده علم الخلافة أسودا
يريد بعلم الخلافة : الخال .

وعلم الخلافة الأسود دليل على أن الشعر عباسى لا أموى ؛ لأن شعار
بنى العباس كان السواد .

وقال الصولى — يصف الرمد فى العيون الجميلة — :

يكسر لى طرفا به حمرة قد خلطت الزجس فى ورده
ما احمرت العين ولكنى يكحلها من وردى خده
وقال آخر :

قالوا بدت فى عينه حمرة قد حازها من وردة الخد
فقلت لم يرمد ولكنه يصافح الزجس بالورد
فهذه العين الرمءاء فى كلا الشعرين لا يشك أحد فى أنها عين تنسب
إلى الشرق لا الغرب .

ولو كان لونها يخالف تلك الألوان الشرقية المألوفة ، لالتقى الشاعر إليها
بأله ، ولما فاته أن يشير إليها .

ولكننا حينما نقرأ هذا البيت :

والورد في شط الخليج كأنه رمد ألم بمقلة زرقاء
يغاب على ظننا أنه نتاج بيئة غربية ، وأن هذا الشاعر عاش في بلاد
تكثر فيها العيون الزرق ، فارتسمت صورتها في خياله .
وهذا هو الواقع ، فإن الشاعر أندلسي البيئة ، وهو صفوان بن إدريس
الأندلسي .

ثم تأمل فيما يلي قول الشاعر :

أحببته كالغصن كم شاعر له عليه نوح ورقاء
وثغره الصادى من حسنه يحار في تشبيهه الراني
الصادى : نسبة إلى حرف الصاد ، والفم يشبه بها .

وقول آخر :

ووجنة قد غدت كالورد همرتها وأشبه الأسـ ذاك العارض النضر
كان موسى كلم الله أقبسها نارا وجر عليها ذيله الخضر
وقول آخر :

قبلتها ورشفت خمرة ريقها فوجدت نار صباية في كوثر
ودخلت جنة وجهها فأباحني رضوانها المرجو شرب المسكر
فهذا الشعر المثل بالحلـ البديعية ، لا يمارى قارئه أنه أنشئ في العصور
التركية التي انحط فيها الشعر ، وولع فيها الشعراء بتصيّد المحسنات ستراً
لقصورهم .

والشعر الأول للصالح الصفدى ، والثاني لابن قرناص ، والثالث
لابن الساعاتى .

وقول شاعر :

والشعر مقصوص يرف كأنه فوق السوائف خالص العقيان
فذكر قص الشعر دليل على أن البيت لشاعري عصرى^(١) ، لأن هذا
اللون من التجميل ظهر أخيراً ، وقد كان النموذج العربي أن يكون الشعر
طويلاً كشيء كما قال امرؤ القيس :
أثيث كقنو النخلة المتعشك .
وكما قال النابغة :

كالكرم مال على الدعام المسند

ورصفه بصفرة الذهب ، دليل آخر على أنه شعر غادة غربية لشرقية ،
لأن شعر الشرقيات - وبخاصة العرييات - صورته لنا المتنبي في قوله :
ذات فرع كأنما ضرب العنبر م فيه بماء ورد وعود
حالك كالغداة جئش دجوجي م أثيث جمعد بلا تجعيد
وقول شاعر : - يصف الشمس ببعض البلاد - :

شمسهم غادة عليها حجاب فهي شرقية حوتها الخدور
شمسنا غادة ابت أن توارى فهي غربية جلاها السفور
وقوله :

وتخذتم موج الأثير بريدأ حين خاتم أن البروق كسالى
وقوله :

وليل كمطل القوم كبدت طوله وأيقنت أنى لا محالة صاحبه
فالشعر الأول يفصح عن أن هذه الشمس تطلع في بلاد يقنع جوها

(١) من نظم المؤلف .

(٢) الغداف : بالضم : الغراب ، والجئل : الكثير المتلف ، والدجوجي : المظلم ،
الأثيث : الكثيف .

الغيم والضباب ، فلا ترى الشمس سافرة ضاحكة كما هي في بلادنا إلا في أوقات خاصة .

وهذه حقيقة أعرب عنها الشاعر حافظ إبراهيم ، والبلاد هي إيطاليا وقد كان رحل إليها في بعض السنين .

والبيت الثاني لا يمتري إنسان أنه من قجاج العصر الحديث ، فقد عرض فيه لذكر الآلات اللاسلكية ، ولم تكن معروفة في غير هذا العصر .

والبيت لحافظ يخاطب به الأمريكان من قصيدة له .

والبيت الثالث من الشعر السياسي ، والقوم الذين يريدونهم الإنجليز والذين عانوا مطلبهم هم المصريون بخاصة .

وإذن لابد أن يكون هذا الشاعر مصرياً .

والشاعر هو حافظ إبراهيم أيضاً .

وهكذا يستطيع الشاعر الصادق الأداء ، المنتزع معانيه من البيئة والعصر انتزاعاً أميناً ، أن يمثل الجيل الذي يعيش فيه أصدق تمثيل .

الفصل السابع

جمال الجسد في التشبيه

قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع ، نرى من المناسب أن نبين معنى الجمال في نظر القدماء ؛ لما له من الصلة الوثيقة بالموضوع الذي نحن بسبيله .

لا تسكاد اللغة تفرق في المعنى بين الجمال والحسن والملاحة وما إليها ، في المعجمات اللغوية : الجمال : الحسن في الخلق والخلق .
والحسن : الجمال .

والملاحة : الحسن .

وملح الشيء بالضم ملاحة : بهج ، وحسن منظره .
ولكن علماء الجمال يعرفون كلا منها تعريفاً يميّزه من الآخر ، وإن بقي عليه ظل من الغموض .

فقالوا في الحسن^(١) : إنه تناسب الخلقة ، واعتدال البشرة ، وصفاء المادة .

وقيل : إنه مركب من الوضاعة ، والتناسب ، والصباحة .
وقيل : إنه بياض اللون ، وسواد الشعر ، وكل منهما شرطه .
ومن ذلك قول سيدنا عمر - ض - : إذا تمَّ بياض المرأة ، وحسن شعرها ، فقد تمَّ حسنهما .
وقول السيدة عائشة : البياض : شطر الحسن .

(١) تزيين الأسواق - ١٨٦ - ديوان الصبابة - ٣٤ - ٣٥ .

وقالوا في الجمال : إنه ما أخذ البصر : أى ما استرعى النظر وجذبه إليه .
وقالوا : إنه السَّمَن ، لأن اشتقاق الجمال من الجميل — على وزن
كريم — وهو الشحم المذاب .

يقال : اجتمع الرجل : إذا أذاب الشحم وأكله .
والجميل : الودك بعينه^(١) ، ووصف الرجل به : معناه : أن ماء السمن
يجرى في وجهه^(٢) ؛ فالجميلة إذن : هى السمينة .
ومما أثر عن أفلاطون قوله : الجمال هو الانسجام بين مختلف أعضاء
الجسم .

وقد فرقوا بين الجمال والملاحة فقالوا في الجارية : جميلة من بعيد ، مليحة
من قريب .

فالجميلة : هى التى تأخذ بصرك جملة على بعد ، فإذا دنت لم تسكن كذلك .
والمليحة : هى التى إذا كررت فيها بصرك زادتك حسنا :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

وقالوا أيضاً المليحة : هى البياض ؛ لأنها مشتقة من الملمحة بالضم وهى : البياض .
ومثلها الصبيحة ؛ تشبهاً لها بالصبح فى بياضه .

ويقول خالد بن صفوان لامرأته — وقد قالت له : — ما أجملك !

أتقولين ذلك وما لى عمود الجمال ، ولا على رداؤه ، ولا برنسه ؟

قالت : ما عمود الجمال ، وما رداؤه ، وما برنسه ؟

قال : أما عمود الجمال : فطول القوام وفى قصر .

وأما رداؤه : فالبياض ولست بأبيض .

(١) الودك بالفتح : الدسم .

(٢) أدب الكاتب — ٤٩ .

وأما برنسه : فسواد الشعر وأنا أصلع .

ولكن لو قلت : ما أحلاك وأماحك لكان أولى^(١) .

وهو بذلك لا يفرق بين الجمال والحسن ، ولكن يفرق بينهما وبين الملاحظة .

ومن حقائق الصوفية : الجمال ريش ، والحسن صورة . والملاحظة روح ، فذلك ستره عليك ، وهذا سره فيك ، فإذا سويته ونفخت فيه من روجي^(٢) . .

وصفوة أقوال الأقدمين : أن الجمال عندهم : ما يدرك بالنظرة الأولى . ويتعلق بالشكل العام ؛ كبسطة الجسم ، واعتدال القوام ، وجهارة المنظر ، وحسن السمات

وأن الحسن يتناول كل الأجزاء بالتفصيل ويعرف بتريده النظر ، وفضل التأمل .

وأن الملاحظة هي : ما يسمونها بعذوبة النفس ، وخفة الظل والدم والروح ، وبراعة الظرف ، وقوة الجاذبية ؛ وهي تستغنى عن الجمال ، ولا يستغنى الجمال عنها .

وقد تكون المرأة جميلة ، غير أنها ليست جذابة ؛ إن بعض النساء كمنظر الشتاء ، نخات إلا أنهن باردات ، ينقصهن الكثير من سحر الأنوثة وجاذبيتها ، ورب امرأة جميلة بينها وبين الفتنة هوة سحيقة^(٣) .

ومن قول ابن المقفع : لا يصلح الجمال بغير حلاوة^(٤) .

ومن مأثور أقوالهم : على وجه فلان غسّله : إذا كان حسنا ولا ملّح عليه .

(١) عيون الأخبار ٤ - ٢٣ .

(٢) فتح الطيب - ٣ - ١٤٦ .

(٣) حكيم البيت - ٦٣ .

(٤) رسائل البلغاء - ٤٥ .

ويقال في ضده : على وجهه حَفْلة (١) .

والذى تطمئن إليه النفس : أن الجمال ، والحسن ، والملاحة ، والصباحة والقسامة ، والوسامة إلى آخر هذه الالفاظ : أسماء لمعنى واحد لا يمكن تعريفه ؛ لأن مقاييسه تختلف باختلاف الأزمنة والامكنة ؛ فلكل عصر جمال ، ولكل أمة جمال ، ولكل ذوق جمال ، ولعل هذا هو السر في أن الشارع الحكيم أباح للخطاب أن يرى من مخطوبته وجهها وكفيها وقدميها ؛ فالوجه : عنوان الجمال ، والكفان والقدمان : مرآة البدانة والنحافة ، وبرؤيتها جميعاً ، يتحقق للإنسان الشكل الذى يصبر إليه .

وفى الأقوال المأثورة ما يؤيد مذهبنا : من أن الجمال أو الحسن لا يحد بحدود .

قالوا : الحسن الصريح : ما استنطق الأفواه بالتسييح .

وفى ذلك يقول بشار :

تَلَقَّى بِتَسْلِيحَةٍ مِنْ حَسَنِ مَا خُلِقَتْ وَتَسْتَفْزِ حَشَا الرَّاى بِإِرْعَادِ
كَأَنَّمَا صَوَّرَتْ مِنْ مَاءِ لَوْلُؤَةٍ فَكُلِّ جَارِحَةٍ وَجْهَهُ بِمِرْصَادِ
وبقول الوداعى :

بدر إذا ما بدا بحياه أقول ربى وربك الله
ويقول ابن المعتدل :

نظرت إلى من زين الله وجهه فيا نظرة كادت على عاشق تَقْضِى
وكبرت عشراً ثم قلت لصاحبي متى نزل البدر المنير إلى الأرض
ويقول البهاء زهير :

بهت محاسنه العقول فما بدا إلا وسبح من رآه وكبرا

وقالوا : الحسن : معنى لا تناله العبارة ، ولا يحيط به الوصف .

وقالوا :

شيء به فتن الورى غير الذى يدعى الجمال ولست أدرى ما هو
ويقول « جاريت » : لفظة جميل ، نستعملها كلنا بمعنى غير محدود شأنا
في معظم الألفاظ .

ويقول : ليس أمامنا فيما أرى إلا القول بأن تفسير الجمال لما يكشف
بعد ، أو فسلفم بأنه لا تفسير للجمال على الإطلاق ، وأن الأشياء الجميلة
ليست لها صفة مشتركة خاصة تجعلها جميلة ، وأن الجمال إنما هو حقيقة مطلقة
لا يُسبر غورها .

ويقول : والآن لناخذ صورة مألوفة جداً ، صورة « العذراء » وطفلها
ف نجد قبل كل شيء أن من الواضح جداً أن تأثير هذه الصورة في المسيحيين
يختلف عن تأثيرها في المسلمين ، أو البوذيين الذين لم يسمعوا بالمسيحية قط ،
أو سمعوا بها كما يسمعون بدين أجنبي عجيب .

ونجد ثانياً : أنها إذا كانت صورة إيطالية قديمة ، اختلف تأثيرها
في المبتدئ عنه في شخص ألف روبة مثل هذه الصورة ، فلا تزججه تماثيل
عصرها وبساطته .

وقد يرى بعض الناس في هذه الصورة إمتاعاً وفتنة ، لمجرد أنها قديمة
وخيالية ، ومنتمية إلى بلاد يحبونها ، وتهفو نفوسهم إليها^(١) .
ولم يفت الأقدمين أن يخلصوا كل عضو بهفة .

قال ابن الأعرابي : تقول العرب : الحلاوة في العينين ، والجمال في الأنف
والملاحة في الفم .

وزاد آخر : والظرف في اللسان .

وقال بعضهم : الظرف في القد ، والبراعة في الجيد ؛ والركة في
الأطراف والخصر ، والشأن كله في الكلام ، وأحسن الحسن ما لم يجلب
بتزيين .

وفي المعنى الأخير يقول بعض الشعراء .

إن المليحة مَنْ تزيّن حليّها لا من غدت بحليّها تزيّن
وقال غيره :

منعمة لم تلبس الوشى زينة ولكن أحببت أن تزان الملابس
وقال المتنبي :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصنّ به الجمالا
وضفّرن الغدائر لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا
وأخذه صاحب بن عباد فقال :

لبسن ثياب الوشى لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود
وذهب بعضهم^(١) إلى أن الصباحة في الوجه ، والوضاءة في البشرة ،
والرشاقة في القد ، واللباقة في الشمائل ، وكمال الحسن في الشعر .
وهو يتفق مع الآخرين في أن الحلاوة في العينين ، والجمال في الأنف ،
والملاحة في الفم ، والظرف في اللسان .

ومن البديهيّات المسلّمة : أن للبرأة هذا المخلوق الضعيف سحراً أخاذاً
وفتنة خالبة ، جعلت لها سلطاناً على الرجال لا يغالب وثيراً لا يقاوم ،
لا نستثنى من ذلك الأباطرة أهل الدولة والصولة ، والملوك ذوى النفوذ
والسيطرة ، وجباة الحرب الذين دوّخوا البلاد وقهروا العباد .

وحسبنا أن نعرف أن الحجاج الطاغية المتجبر لم يستح أن يصرح :
بأنه يقبل باطن أقدام نسائه ! والبهاء زهير يقبل أقدام إحدى زائراته :

فقبّلت أقداما لغيري مامشت ووجهاً مصوناً عن سوای مُحجّبا
والطغرائي يقبل الأرض :

وزائرة وافت فأجللت خدها وقبّلت إكراماً لموردها الأرض
وكلا الشعاعين كان وزيراً خطيراً .

وهذه منحة من الطبيعة للمرأة تقابل بها قوة الرجل وشوكته ليتعادلا
في ميزان الحياة ، ويدوم بينهما الوفاق والوثام ، وتقوى الألفة والانسجام
مصدقا لقوله - تعالى - : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا
لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وليس من ههنا أن نفصّل القول في هذا الشأن ، وإنما نريد أن نقرر
أن الرجل لا يتصور الحياة بدون المرأة ، غير صحراء جرداء موحشة لا أنس
فيها ولا بهجة ولا صفاء !

وأنه لا عار عليه في الميل إليها ، والانجذاب نحوها ، والسكف بها ،
والحرص على أن ينعم في ظلها الرطب ، ويتملّي سعادة الحياة بجانبها ،
ويتذوق رحيق المتعة من مفاتها الجسدية في ظل الحلال المباح !
ولقد صدق من قال : إن أصدق بيت قيل في هذا الصدد :

ونحن بنو الدنيا وهنّ بناتُها وعيشُ بني الدنيا لقاء بناتها

وليس في هذا نشوز على السنن الكونية ، ولا خروج على نواميس
الفطرة المركوزة في نفوسنا ، بل غير هذا هو الشذوذ ، أو الضعف ، أو المرض
والانسلاخ من الطبيعة القويمة ! .

إن أرواحنا في هذا العالم لا تتخلل المادة فقط ، بل تجد ما يعبر عن رغائبها وعواطفها ومشئياتها بواسطة المادة نفسها ، والمادة وحدها هي وسيلة هذا التعبير ، في هذه الدنيا .

وما دمنا بشريين فلا بد أن نكون لنا أبدان ، والأبدان خاضعة للسنن الكيمية والفسولوجية ، كما هي خاضعة للسنن الروحية أيضاً .

فن جسم المرأة المحبوب الملحمي البسيط المستلذ الذي ، تحررنا سلبقتنا البشرية الأزلية إلى أن نبغيه ونتوق إليه ، لا ينشأ عجب الحياة الجسدية الجديدة فقط ، بل يستمع أفق العاطفة الإنسانية الروحانية ، ويستطع نور التفاهم الروحاني الذي لا تستطيع الروح المنعزلة وحدها أن تبلغ إليه^(١) .

والحق أن هذا الجسم الذي نحتة الله بيده القادرة المبدعة ، كان مثار الفتنة للرجل منذ أن تفتحت عينه عليه ، ولم يستطع حتى الشعراء العذريون أن يُصموا آذانهم عن ندائه المغري المعسول !

فنسمع المجنون - والخسرة تنهش فؤاده - يقول لزوج ليلاه :
ربك هل ضمنت إليك ليلي قيثيل الصبح أو قبّلت فاها
وهل رفقت عليك قرون ليلي رفيف الأقحوانة في نداها
ويقول زعيم المدرسة العذرية جميل بثينة :

ذكرت مقامي ليلة البان قابضاً على كف حوراء المدامع كالبدر
تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرضاب من الثغر

ويقول :

سبني بعيني جؤذر ومطر ربرب وصدر حكى لون اللجين وجيد

(١) أسرار الحياة الزوجية - ٢٦ - ٢٨ .

كما أن هذا الجسم البديع ، كان - ولم يزل - أكبر مصدر لإلهام الفنانين من جميع الألوان والمشارب ، وإلهاب عبقرياتهم - وإذ كاه عواطفهم .

ومما نلاحظه أن الرسامين التقليديين يفضلون رسم جُسوم البشر ووجوههم ، وهى مادة - إذا كانت قد فقدت بالآلفة بعض جدتها ولذتها - فإنها لا تزال تمثل فى دقة وتفصيل حياتنا وحياة من نراهم من بنى الإنسان^(١) وإذا كانت المرأة فتنة للناس جميعا ، فقد كان حظ العربى من هذه الفتنة أعظم رأشدا .

فالعربى بطبعه رقيق الحس ، مرفف الشعور ، متوقد العاطفة ، يُصبية الجمال ، ويقيسه الحسن ، وتميل به الملاحظة كل تميل ، حتى ليتبدل له ، ويجن جنونه حيناً ، وتتلّف نفسه حيناً آخر ! وحتى رأينا من قومه قبيلة كاملة تتخصص فى الحب ، وفى أشعار الحب ، وفى الموت فى الحب ، وتعدّه استهاداً كالموت فى سبيل الله ، وهى بنو عذره .

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأىّ جهاد غيرهن أريد
لكل حديث يذهن بشاشة وكل قتيل يذهن شهيد
والعربى لإنسان قوى البنية ، سليم الأعضاء ، جمّ الحيوية ، مكتمل الرجولة ، وكل ذلك يهيج رغبته فى المرأة ، ويدّكى حنينه إليها !

والعربى قد كان يحيا حياة فطرية ، بعيدة عن شوائب الحضارة ، وآفات المدنية ، ومزاق الترف والنعيم ، فسلمت نفسه من الانحراف الجفسى ، والتواء المزاج ، فاتجه بنوازع الجبلة القاهرة ، ودوافع البيئة النقية إلى بنات حواء يلتمس المتعة عندهن ، ويقصر الميل عليهن .

هذا إلى أن الطبيعة قسمت عليه بحجب الموطن ، وشظف العيش ، وضيق الرزق ، فكانت المرأة راحة وريحانه ، وعزاه وسلوانه ، وأنسه وبشره

وزهره وعطره : فانطلق وراهما مشبوب اللوعة يتغنى بها ، ويفنى لها هذه
الأناسيد العذبة الشاجية ، ويفتن في وصفها من قه رأسها إلى أخمص قدميها
وصفا كاشفا ، يستنده الواقع ، ويجسمه الحب ، ويرقصه الخيال ؟

شبهها بالشمس ، والقمر ، والكوكب ، والهلل ، والغزال ، والظبي ، والرثم
والخشف ، والمهاة ، والجوذر ، والزهرة ، والريحانة ، والبيضة ، والدره ،
والؤاؤه ، والصنم ، والنخال ، والدمية ، والبردية ، والرمح ، والسحاب ،
والغمام ، والطفل ، والقطة .

وقد يأتي التشبيه جامعا لعدة معان^(١) ، كالجمال والبركة والحسن والصفاء
والبياض في نحو قولهم : ماء السماء .

وبه سميت أم المنذر اللخمى ملك الحيرة ؛ تشبيها به في الحسن والصفاء
والطهارة .

وقد فاز الوجه وأعضاؤه البسيطة والمركبة ، بالنصيب الأوفى من
التشبيهات ، لأنه أشرف وأبهج وأعلى والطف من غيره .

وأما ماعدها فنادر أن تيسر لشاعر بيت أو بيتان أو أكثر في عضو
بعضه ، أما في ضمن غيره فكثير^(٢) .

وما زال الوجه كما بقول جويو : أجمل ما في الإنسان بالنسبة إلى أبناء
هذا العصر^(٣) .

ولا شك أن الوجه خائق بذلك ، فهو عنوان الجمال ، ومظهر الصبابة ،
وموطن الجاذبية ، ومجلى الصحة والشباب .

وفيه جملة من الأعضاء النفيسة يتركز فيها السحر ، ويتبلور الفتون
فيه ما قاله بعض العذريين لرجل من بني قزارة — لأمه في الحب — :

(١) الحيوان — ٥ — ٤٧ — ثمار القلوب — ٦٤٦ .

(٢) تزيين الأسواق — ٢٢٨ .

(٣) تعليقات الدروبي على مسائل في فلسفة الفن المعاصرة — ٨١ .

أما والله لو رأيتم المحاجر الباسج، ترشق بالعبون الدُّعج، من تحت
الحواجب الزُّج، والشفاه السَّمر، تبسم عن الشيا الغر كأنها شذر الدر،
لجعلتموها اللات والعزى، وتركتم الإسلام وراء ظهوركم !

ثم الوجه إلى ذلك سمة الوراثة النقية الراقية، والمواهب الناضجة المكتملة.
فهنالك تقابل وثيق بين ملامح الوجه والدماغ، والعلامات النفسيةولوجية
للدماثة تبدو مرتبطة حتماً بانحطاط عقلي ونفسي للجنس، فنجدها أبرز
ما تكون عند المتوحشين، وزاها تزول متى انتقلنا من الهمجية إلى
الحضارة، وحين تظهر فجأة على بعض الأفراد تبدو نوعاً من الرجوع
الوراء « At avisme » فمن الممكن إذاً أن نأمل أنها ستزول شيئاً فشيئاً في
الاجناس العليا بتأثير التقدم العقلي.

وأهم الخصائص التي تميز الوجه القبيح في رأى علماء الجمال والفسيولوجيا:
بروز الفكين، وتواء الوجنتين، وفطس الأنف أو قنصه، وتباعد العينين
وسعة الفم، وغلظ الشفتين (١).

وقد شبهوا الوجه جملة بكل منير وضاح بهيج؛ كالقمرين والكواكب
والصباح والمنارة والمصباح والسراج والصحيفة والمرأة والمرأة الغريبة والدينار.
وبكل صاف رقيق كالدر والبرد والياسمين.
وشبهوه تفصيلاً بأشياء كثيرة مناسبة.

فشبهوا الجبهة بالصباح والمرأة.

وشبهوا الحاجب بالقوس، والنون.

وشبهوا العين بعين الغزال والمهاة، وبالنرجس.

وشبهوا نظراتها بالسيف والسهم والنبل والسمحر والخمر.

وشبهوا أهدابها بريش السهام وقوادم الطير.

وشبهوا الخد بالورد، والشقائق، والأرجوان، والجُلستار، والعندم،

(١) مسائل في فلسفة الفن المعاصرة ٨٠.

والفتح ، والخمر والجر ، والماء والنار معا .

وشبهوا الأنف بحمد السيف ، وقصبة الدر .

وشبهوا الفم بالخاتم في صغره وضيقه .

ولكن يجب أن يلاحظ أن ضيق الفم كان مستملاحا في النساء فقط لا الرجال ؛ فالجاحظ يقول (١) : ومدحوا سعة الشفم وذموا صغره ؛ قيل لأعرابي : ما الجمال ؟ قال طول القامة ، وضخم الهامة ، ورحب الشدق وبعد الصوت .

ومن وصف أبي المخش لاينه : كان والله أشدق خُرطانيا : أى واسع الشدق ، واسع الخرطوم ، وهو ماضم عليه الحنكان .

ويقول ويدل على تفضيلهم سعة الأشداق ، وهجائهم ضيق الأفواه قول الشاعر :

لحائته أفواه الدَّبِّي من قبيلة إذا ذكرت في النائبات أمورها
ولما شبه أفواههم بأفواه الدبى - وهى صغار الجراد - أصغرها وضيقها .
وشبهوا الأسنان بالآفاحى واللؤلؤ والبرد والطلع والحب والبلور .
والسيال (٢) والشعاع .

وشبهوا الربق بالخمرة الصرف ، أو الممزوجة بالماء البارد ، وبالشهد والعسل والقند (٣) ، وبالماء الفرات ، وماء السحاب ، أو الماء الممزوج بالمسك أو الزنجبيل .

وشبهوا حديثها ونفمها بوسواس الحلى ، وزجل الحمام ، وبُغَام الظباء وقطع الرياض ، والدر المنشور ، والوشى ، والعسل ، والسحر الحلال .
وشبهوا ابتسامها بوميض البرق .

(١) البيان والتبيين - ١ - ١١٣ - ١١٥ .

(٢) السيال بالفتح : نبات له شوك أبيض طويل .

(٣) القند بالفتح : عسل قصب السكر الجماد .

وشبهوا نكمتها بالمسك ، والعنبر ، ونشر الرياض ، وريح الخزامى ،
وعُرف العود .

وشبهوا شعرها بالليل والفحم ، وأذنان الخيل ، والحيات ، والكرم ،
وعناقيد الكرم ، وأعذاق النخل ^(١) والحبال ، وبالغدير تصفقه الرياح
في حال الجعودة .

وشبهوا شعر أصدائها بالغوالى والعقارب والصواجل والمسك
والسَّبَج ^(٢) وجناح الغراب .

وشبهوا فرق الرأس بالصبح .

وشبهوا جيدها بجيد الظبي والغزال وإبريق الفضة .

وشبهوا الصدر والترائب ، بالعاج والمرآة ، وصدر الدمية .

وشبهوا نديها بحقاق العاج والكافور والمان وأنف الظبي وقلب الظبي .

وشبهوا قدها بغصن البان ، وقضيت الرند والآس ، والخيزران والريح .

وشبهوا بطنها بالقباطي ^(٣) المطوية المدبجة ، وعُكبتها بالقراطيس
المدرجة ، والسَّرة بمُدُّهن العاج .

وشبهوا ظهرها بالجدول .

وشبهوا ردفها بالكثيب ، وبالكثيب المهيل ، وأمواج البحر في حال
المشي .

وشبهوا خصرها بالعنان المجدول ، وبخصور المها والزناير ، وحلقة
الخاتم .

وشبهوا أوراكنها بأنقاء الرمل ، وموارى العاج والرخام .

(١) الأعذاق جمع عذق بالسكسر وهو القنو ، والعذق بالفتح النخلة نفسها .

(٢) السج محرّكة : الخرز الأسود .

(٣) القباطى : ثياب بيضاء اللون ، كانت تنسج في مصر فنُسبت للقط .

وشبهوا ساقها بأنبوب البردى والجثار والبرد .

وشبهوا القدم باللسان مطلقاً ، وبلسان الحية خاصة .

وشبهوا أصابع يديها بالأساريح^(١) والمساويك والعنم والعنساب والبلع .

وشبهوا كعبها بأصل أذن الجؤذر - وهو الصغير من أولاد بقر

الوحش - .

وشبهوا مشيتها بمشية القطاة والمهاة والحية والوجى الوحل ، والظافر

في الحزب ، والمزوف^(٢) ، والراسف في القيد ، والسائر على البيض وقطع

الزجاج ، والرمح المهتز ، والغصن المروح ، والفن الممطور .

وشبهوا رائحتها بالأترجة ، والمسك ، وفارة المسك^(٣) والعنبر

والقرنفل والغالية والملاب والزعفران والرائد والنَّد .

هذا بعض ما قالوه في المرأة ، وقد عرضنا فقط لما يتصل بما نحن بسبيله

من التشبيه ، ويبدو من هذا مبلغ عاطفتهم الجمالية ، ومقدار تعلقهم بالمرأة

وقوة انفعالهم بمفاتنها البدنية ، ولا يضيرهم هذا النزاع إلى الحسن المادى

كما لا يضيرهم أن تنسب أوصافهم بالاشتياؤ الجنسى ، فغير هذا نفاق ورياء

ومغالبة للطبيعة الغلابة .

وجمال المرأة أرفع أنواع الجمال - مهما يقلد كانت ، - والصفات

التي تعجبنا في المرأة أكثر من غيرها ، هي بعينها الصفات التي تتصل بالشهوة

أكثر من غيرها ، وتمت إلى غريزة الجنس بأسباب وثيقة .

إن المرأة الجميلة في نظر ابن الشعب هي المرأة الفارعة البضة الزاهية

ألوانها ، العريضة أردافها ، وهذه هي المرأة التي تروى شهوة الجنس إلى

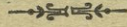
أبعد حد .

(٢) الأساريح : دود أحمر يشبه الأصابع الخضوبة .

(٣) المزوف : السكران .

(٤) فارة المسك : وعاءه .

ولئن كانت صورة الجمال في الطبقات الاجتماعية العليا ، لا تقابل اليوم على هذا النحو الدقيق الحاجات الأولى التي تسيطر على الجنس والفرد ، فذلك لأن هذه الحاجات نفسها قد تطورت بصورة عامة ، فضعفت على مر الأيام ، وراقت شيئاً بعد شيء ، فأجمل النساء اليوم هي التي تناسب صبوات حياتنا الفردية ، وتتفق مع هذه العواطف والميول التي نشارك فيها أبناء العصر^(١) .



الفصل الثامن

الخطأ في التشبيه

الخطأ في التشبيه نوعان :

١ - خطأ في اللفظ ؛ وهو مخالفة قواعد النحو والصرف ، أو استعمال الألفاظ العامة ، أو الأجنبية بدل الألفاظ العربية الصحيحة .

٢ - خطأ في المعنى ؛ كأن يكون فاسداً ، أو محالاً ، أو متناقضاً ، أو مخالفاً للعادة أو الواقع ، إلى غير ذلك .

وفي التنبيه على خطأ المعاني وصوابها يقول العسكري : إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها وتعبر عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى ، كحاجته إلى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعدد على إصابة المعنى ، ولأن المعاني تحمل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة .

ثم يقول : والمعاني بعد ذلك على وجوه :

١ - منها ما هو مستقيم حسن نحو قولك : قد رأيت زيدا .

٢ - ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك : قد زيدا رأيت .

وإنما قبيح ؛ لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير

٣ - ومنها ما هو مستقيم النظم وهو كذب ، مثل قولك : حملت

الجيل ، وشربت ماء البحر .

٤ - ومنها ما هو محال كقولك : آتيك أمس ، وأتيتك غدا .

والفرق عنده بين المحال والفاسد : أن كل محال فاسد ، وليس كل فاسد

(م - ١٥ فن التشبيه)

محالا ، ألا ترى أن قولك : قام زيد بالكسر فاسد وليس بمحال .
والمحال : مالا يجوز كونه « وجوده » ألبتة ، كقولك : الدنيا في بيضة .
وأما قولك : حملت الجبل وأشياهه فكذب وليس بمحال ؛ لجواز أن
يزيد الله في قدرتك فتحمله !

ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذبا محالا وهو في قولك : رأيت
قائما قاعدا ، ومررت بيقظان نائم ؛ فتصل كذبا بمحال ، فصار الذي هو
الكذب هو المحال بالجمع بينهما ، وإن كان لكل واحد منهما معنى على حiale .
وذلك لما أعقد بعضهما ببعض حتى صارا كلاما واحدا .

ومنها الغلط ، وهو أن تقول : ضربني زيد ، وأنت تريد ضربت زيدا
فغلطت ، فإن تعمدت ذلك كان كذبا^(١) .

ويرجع الخطأ في اللفظ إلى الجهل بمفردات اللغة ، وعدم الإحاطة
بالعرف اللغوي في قواعد الإعراب والبناء والاقيسة .
ويرجع الخطأ في المعنى إلى أسباب كثيرة .

١ — منها وصف شيء لم يره الواصف أصلا ، أو رآه رؤية عابرة ،
أو سمع بوصفه ، كقول أبي نواس في وصف الأسد :
كأنما عينه إذا نظرت بارزة الجفن عين مخنوق

ألا تراه — وهو مقدم في المحدثين — لما وصف الأسد وليس من
معارفه ، ولعله ما شاهده قط إلا مرة في العمران إن كان شاهده ، دخل
عليه الوهم فجعل عينيه بارزتين ، وشبههما بعيون المخنوق ، وقام عنده أن هذا
أشنع وأشبهه بشتامة^(٢) وجه الأسد ، وذهب عنه من صفة أبي زيد^(٣)
وغيره لغثور عينيه ، لما هو أعلم به بمن أخذه عنه .

(١) الصنائع ٦٦ — ٦٧ — ٦٨ .

(٢) الشتامة : كراهة الوجه وعيوسه .

(٣) شاعر معروف بوصف الأسد .

وأكبر ظنى - والله أعلم - أن أبانواس إنما رجع بالصفة إلى الرجل المشبه بالأسد ، وجعل ازورار عينيه وبروز جفنيه ، من علامات الغيظ والحق على أقرانه في الحرب (١) .

والصواب ما وصفه به ابن عبد ربه في قوله :

ليث تطير له القلوب مخافة من بين همهمة له وزئير
وكأنه يومى إليك بطرفه عن جمرتين بجلد منقور
وكما وصفه أبو زيد الطائي من قبل :

كان عينيه في وفتين من حجر - قيضا اقتياضا بأطراف المناقير (٢)
وقوله :

وعينان كالوقبين في قلب صخرة يرى فيهما كالجرتين تسعّر
وكقول الراجز :

كأنما ينظر من خرق حجر .

٢ - ومنها أن يكون الوصف رأى الشيء عيانا غير مرة ، ولكنه لم يمعن النظر ، ولم يدقق الملاحظة في رؤية الأجزاء ، فيقع في الخطأ حينما يعرض للوصف التفصيلي ، وقد وقع في ذلك كثير من الشعراء كالنابغة في قوله :

كان حجاج مقلتها قليب من الشيقين حلق مستقاها

الشيقين : موضع ، وحلق : غار ، ومستقاها : ماؤها .

شبه حجاج مقلتها بقلب في هذا الموضع المذكور ، الذي نصب ماؤه ليكون أبعد غورا .

(١) المدة - ٢ - ١٨٧ .

(٢) الوقب : النقرة في الحجر ، وقيضا : تقرا ، والمناقير : آلات النقر .

والحجاج لا يغور ؛ لأنه العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب (١) .
 ٣ -- ومنها الوصف بالظن دون اليقين كقول أبي جبلة الأعرابي (٢) :
 برية لم تأكل المرققا — ولم تذق من البقول الفستقا
 تعاظى ما لا يعرف — يقول ابن رشيق — فجعل الفستق بقلا على
 ما في نفسه من لعاع (٣) البقل .

وأراد بقوله : برية ؛ أنها من سكان البادية لم تأكل مطاعم الحضرة
 كالمرقق والفستق الذي ظنه بقلا .
 وقول رؤبة :

هل يعصفي كحاف سخيت أو فضة أو ذهب كبريت (٤)
 قال ابن الأعرابي والأصمعي وغيرهما : ظن رؤبة أن الكبريت ذهب .
 وفي العقد الفريد : سمع بالكبريت أنه أحمر ، فظن أنه ذهب .
 وفي شفاء الغليل : وذكره رؤبة في شعره بمعنى الذهب وخطي . فيه ،
 لأن العرب القدماء يخاطمون في المعاني دون الألفاظ .
 وقال ابن دريد في الجهرة : وهذا ما غلط فيه رؤبة ، فجعل الكبريت
 ذهباً (٥) .

وقد قال العلامة تيمور « باشا » معاقا على ذلك : قلنا : ولا يخرج
 ما في اللسان عن ذلك ، وإن كنهه ذكر تفسير الكبريت بالذهب في قول
 لبعضهم ، وهو كما لا يخفى يناقض ما اعترض به هؤلاء الأئمة ، فلعله حدث

(١) الموشح — ٨٧ .

(٢) رواية العقد الفريد — ٣ — ٣٤٤ : أنه أبو نخيلة الراجز .

(٣) اللعاع كغراب : النبت الناعم ، أو أول ما يبدو منه .

(٤) السخيت بكسر فسكون : الشديد .

(٥) الزهر — ٢ — ٣١٣ .

بعد نظم البيت ، وبنى على ما فيه وثوقا من قائله بالشاعر ، وليحقق (١) .

وقول شاعر :

كأنه مبسط من الأسباط .

ظن السبط رجلا ، وإنما السبط : واحد الأسباط من بنى يعقوب (٢) .

٤ — ومنها قياس شيء على شيء من غير تثبت ولا تبين ، كوصف العرب لمنازل النجوم دون أن يفتنوا إلى أنها في تغير مستمر .

وفي ذلك يقول ابن رشيق (٣) : ولما رأيت العرب — وهم أعلم الناس بهذه المنازل وأنوائها ، لأنها سقف بيوتهم ، وسبب معاشهم وانتجاعهم — غلطوا فيها فقال أحدهم :

من الأنجم العُزْل والراححة .

وقال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فأني بتعرض الجوزاء .

ورأيت كل من عني بالنجوم من المحدثين ، واستوفى جميع المنازل ، مخطئا لا شك في خلافه ؛ لأنه إنما يصف نجوم ليلة سهرها ، والنجوم كلها لا تظهر في ليلة واحدة ؛ لذلك قلت أنا احتياطا في ذلك الليل من نسيب قصيدة مدحت بها السيد الحسن :

قد طال حتى خلته من كل ناحية وسط

وتكررت فيه المنا زل منه لأمى الغلط

(١) أوهم الشعراء — ١١ .

(٢) الزمر — ٢ — ٣١٢ .

(٣) العمدة — ٢ — ١٩٦ .

على أن المبرد يقول في بيت امرئ القيس المتقدم : وقد أكثر الناس في الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ . وقد عيب عليه فليل : الثريا لا تتعرض في السماء ، وقال من يعذره : إنه أراد الجوزاء وهي التي تمر متعرضة في جنب غير مستقيمة ، فلما لم يستقيم له الوزن وضع الثريا موضعها ، كاحمر عاد في شعر زهير ، وضعه موضع أحمر ثمود^(١) .

ويعنى بشعر زهير قوله :

فَتُنْجِ لَكُمْ غِلْمَانِ أَشَامَ كَشْهَمِ كَاحِرِ عَادِ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتُفْطِمِ
ويقول السيوطي : قالوا : أراد بالثريا : الجوزاء فغلط ، وتأوله آخرون على أن معنى تعرضت : أعرضت قال : ويقال : إنها تعرض في آخر الليل .

ويقال : إنها إذا طلعت طلعت على استقامة ، فإذا انتقلت تعرضت^(٢) .

وقال بعضهم ممن يعذره : أراد الجوزاء لأنها تتلوها^(٣) .

وقال بعضهم في تصحيحه : الثريا تعرض أول ما تطلع ، كما أن الوشاح يلقاك بعرضه وهو ناحيته .

وقال أبو عمرو : يعنى إذا أخذت الثريا في وسط السماء كما يأخذ الوشاح في وسط المرأة .

وقال الباقلاني : والأشبه عندنا : أن البيت غير معيب من حيث عابوه به ، وأنه من محاسن هذه القصيدة ... ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو ، ويستولى على الأمد^(٤) .

(١) الكامل « شرح المصنف » - ٦ - ١٤٥ .

(٢) المزه - ٢ - ٣١٤ .

(٣) الموشح - ٣٦ .

(٤) إعجاز القرآن - ١٤٠ .

هذه أقوالهم في بيت امرئ القيس ، ونفهم منها أنهم غير مجمعين على خطئه فيه .

وكذلك يقال : في « أحرر عاد » .

فالزوزني يقول : أراد بأحرر عاد : أحرر ثمود وهو عافر الناقة ، واسمه قدار بن سالف (١) .

ويقول ابن قتيبة : وإنما أحرر ثمود عافر الناقة (٢) .

ويقول المرزباني : قال أبو سعيد الضرير : سمعت الأصمعي يقول : لا أحب قول زهير البيت ، .

إن ثمود لا يقال لها : عاد ؛ لأن الله — عز وجل — إنما نسب قداراً عافر الناقة إلى ثمود .

قيل : فقد قال : « وأنه أهلك عاداً الأولى » .

فقال معناه : التي كانت قبل ثمود لا أن ههنا عادين (٣) .

ويرد ابن رشيق على الأصمعي بقوله : ولا أدري لما خطاه . وقد سمع قول الله — عز وجل — : « وأنه أهلك عاداً الأولى » ،

فهل قال هذا إلا وائتم عاد أخرى كما قال قيس بن سعد بن عبادة :

سراويل عادى نمته ثمود

وكان يقال لثمود : عاد الصغرى (٤) .

ه — ومنها الغلو في الوصف زيادة في المدح أو التحسين إلى غير ذلك فينقلب الأمر إلى ضده كقول امرئ القيس :

(١) شرح المملقات — ٨٧ .

(٢) الشعر والشعراء — ٤١ .

(٣) تلويح — ٤٥ .

(٤) العمدة — ٢ — ١٩١ .

وأركب في الروح خيفانة كسا وجهها سعف منتشر^(١)
أراد المبالغة في وصف ناصية الفرس بالطول ، فشبهها بسعف النخلة ،
وإذا غطى الشعر العين لم يكن كريما^(٢) .

وقول الحكم الخضرى يمدح :
كانت بنو غالب لآمتها كالغيث في كل ساعة يكف
وليس في المعهود أن يكون الغيث واكفا في كل ساعة^(٣) .

وإن كان البيت يحتمل من التأويل أن يكون معناه : كان هؤلاء القوم
كالغيث ؛ إلا أنه غيث يكف كل ساعة ، وإن لم يدل لفظه على هذا المعنى
دلالة واضحة^(٤) .

٦ - ومنها قصد تقويم البيت فيضطر الشاعر إلى الكذب ، كهذا
الشعر الذى أنشده السكيت نصيبيا من قصيدة له ؛ مطلعها :
أبت هذه النفس إلا ادكرا

فلما بلغ إلى قوله :

إذا ما الهجارس غنيها يجاوبن بالفلاوات الوبارا
قال له نصيب : الفلاوات لا تسكنها الوبار .

فلما بلغ إلى قوله :

كان الغطامط في غليها أراجيز أسلم تهجو غفارا
قال له نصيب : ما هجت أسلم غفارا قط .

(١) الخيفانة . التى لها عين زرقاء وأخرى سوداء .

(٢) الصنائع - ٩٩ .

(٣) الموشح - ٢٣٢ .

(٤) سر الفصاحة - ٢٤٠ .

(٥) الصنائع - ٩٤ - الموشح - ١٩٢ مع اختلاف يسير .

فانكسر الكميت وأمسك^(١).

الوبار بالكسر : جمع وبرة بإسكان الباء : حيوان أصغر من السنور
مغبر اللون ، لا ذئب له ، يحبس في البيوت ويعلف فيها .
والغطامط بضم الغين : صوت غليان موج البحر ؛ والمراد هنا :
صوت غليان القدر .
شبه صوت غليان القدر في شدته واحتداه ، بارتجاز قبيلة أسلم في هجومها
قبيلة غفار .

وفي هذا يقول الخفاجي : وما يحتاج إليه التشبيه : أن يكون الأمر
المشبه به واقعا مشاهداً معروفاً غير مستنكر ؛ ليوافق ذلك المقصود
بالتشبيه والتثيل من الإيضاح والبيان .

وقد أراد نصيب من الكميت : أن يكون شبيه بشيء واقع معروف
وهذا كما قال : كأن مناقضة فلان وفلان مناقضة جريرو والفرزدق ، فيكون
هذا الكلام صحيحا .

ولو قيل : كأن مناقضتهما مناقضة الأحوص وعمر بن أبي ربيعة ، لم
يكن التشبيه صحيحا إذ كان المشبه به لم يقع^(٢) .

ويتصل بذلك أن يضطر الشاعر إلى التعميم في موضع التخصيص
كقول ذي الرمة في وصف الوتر :

كأنه في نياط القوس حلقوم

وقد أنكر عليه الأصمعي ذلك وقال : حلقوم ماذا ؟

إذ كان يجب عليه أن يقول : حلقوم طائر ، أو حلقوم قطاة أو غيرهما

(١) سر الفصاحة — ٢٤٠ .

(٢) الموازنة بين الطائيين — ١٧٤ :

مما يشبه الوتر ، وإلا فقد يكون الحلقوم حلقوم فيل ، أو حلقوم بعير ؛
وهذا من الأصمى إنكار صحيح ، وإن كان الخطب يسيراً ؛ لأن العرب
لا تشبه الوتر إلا بحلقوم الطائر .

أو يضطر إلى القلب كقول النابغة الجعدي :

كانت فريضة ما تقول كما كان الزَّناء فريضة الرجم
والأصل : كان الرجم فريضة الزناء .
وكقول الشَّماخ في أبيه :

منه وُلدت ولم يؤشَّب به حسي ليلاً كما عُصب العلباء بالعود
العلباء بالكسر : عصب العنق ، ويؤشَّب به : يخلط .
والوجه : كما عصب العود بالعلباء .

أو يضطر إلى حذف ما ينعكس به المعنى كقول جميل :

لاحسناً حسن ولا كدلالها دَلّ ولا كوقارها توقير
حذف كاف التشبيه ؛ فصار المعنى : كأنه ليس حسناً حسناً^(١) .

أو يضطر إلى حذف بعض حروف الكلمة ، كقول امرئ القيس
في وصف فرسه :

لها متنتان خطا ، كما أكبَّ على ساعديه النَّمير
الأصل خطا تان فحذف النون .

والخطاة : المكتنزة ؛ أراد : لها متنتان ممتلئتان لحماً ، كساعدي النمر البارك
على الأرض في الضخامة .

وليس هذا من صفات الجياد الجيدة ، فلمستحسن فيها قلة اللحم في المتن
والوجه كقول الشاعر :

قد أشهد الغارة الشعواء تحملني

جرداء معروقة اللّحين مَرْحوب^(١)

وقول طُفَيْل الغنَوِي :

معروقة الأَلْحَى تلوح متونها .

وقد وقع في هذا الخطأ أبو ذؤيب الهذلي حيث يقول :

قَصِيرُ الصَّبُوح : لها فُشْرُجٌ لَحْمها بالسَّيِّ فَمَي تَنُوح فيها الإصْبَع

قصر الصَّبُوح لها : اقتصر لها على اللبن عوضاً عن الماء ، وشرح لحْمها :
عولى بعضها فوق بعض ، والتي : الشحم .

قال الأصمعي : هذه الفرس لا تساوى درهمين ؛ لأنه جعلها كثيرة

اللحم ، رخوة تدخل فيها الإصْبَع^(٢) |

أو يضطر إلى وضع كلمة مكان أخرى كقول عدى :

ولقد عدّيت دوسرة كَعَلَاة القَيْنِ مذكّارا

الدوسرة : الناقة الضخمة ، والعلاة بالفتح : السَّندان .

جعلها مذكّراً ، والمتنات عندهم أحمد ، وأراد مذكّرة فلم يتفق له^(٣) .

٧ - ومنها ذهول الشاعر عن صواب المعنى ، لانغماره في لجة الشعر

وسبحه في آفاق الخيال ، فيقع في الزلل والخطأ ؛ لأن عقله الباطن يكون

مسيطرأ على إدراكه ، وعقله الواعي يصبح في شبه شلل ، والشعراء

(١) المرحوب بالضم : الطويلة .

(٢) الصناعتين — ٨٥ .

(٣) الموشح — ٨٨ .

يعرفون ذلك بالتجربة ، ويعجبون كيف يقعون في هذه الأخطاء حينما
يثوبون إلى وعيهم .

وفي ذلك يقول ابن رشيقي : ولا بد أن يُؤتى على الشاعر المفلق ، والعالم
المتفنن ؛ لما بنى عليه الإنسان من النقص والتقصير ، وخير ما في ذلك أن
يرجع المرء إلى الحق إذ سمعه ، ولا يتمادى على الباطل لجاجة وأنفة من الخطأ ،
فإن تمارده ، زيادة في الخطأ الذي أنف منه (١) .

وهذه الحال التي تعترى الشعراء تسبب وقوعهم في أشياء معيبة كالتمناقص
في قول المسيب بن علس :

فقل حاجتها إذا هي أعرضت بخميسة سُرح اليمين وساع (٢)
وكان قنطرة بموضع كُورها ملساء بين غوامض الأنساع (٣)
وإذا أظفت بها أظفت بكامل فبعض الفرائض يُجفّر الأضلاع (٤)
فكيف تكون خميسة ، وقد شبهها بالقنطرة ، والقنطرة لا تكون
إلا عظيمة .

ثم قال : بجفّر الأضلاع : أي عظيمها وواسعها - وكل هذا ينقض
ما ذكره (٥) .

أو الإحالة كقول عبد الرحمن بن حسان :

وإن مال الضجيع بها فدعص من الكُشبان مُلتبدا مهيل
قالوا : وكيف يكون ملتبدا مهيل !
هذا مستحيل متناقض !

(١) الممددة - ٢ - ٢٠٧ .

(٢) سُرح بضمين : سريح .

(٣) الأنساع : سيور عريضة جمع نسع بالكسر .

(٤) الجفّر : العظام الجنين من كل شيء .

(٥) اللوشح - ٩٠ .

غير أن ابن رشيق يقول : والذي عندى فيه أنه صواب ؛ لأنه إنما أراد بالتبادء : صلابة ملمس العجيزة ، وأنها غير مسترخية ، وجعله مهيباً لارتعاده واضطرابه من العظم كما قال ابن مقبل :

يمشين هَيْل النَّقَا سالت جوانبه ينهال طوراً وينهاه الثرى حيناً
فقد جعله مرة ينهال ، ومرة ينهاه الثرى عن التفتى الذى فيه (١) .

أو الفساد كقول أبي تمام (٢) :

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعه لم يضق عن أهله بلد
وذلك أن البلد التى تضيق بأهلها لم تضق بأهلها لضيق الأرض .

ومن اختط البلدان لم يختطها على قدر ضيق الأرض وسعتها ، وإنما اختطت على حسب الاتفاق ، ولعل المسكون منها لا يكون جزءاً من ألف جزء ؛ فلاى معنى تصديره ضيق البلدان الضيقة من أجل ضيق الأرض .

والصواب أن يقول : ورحب صدر لو الأرض واسعة كوسعه لم يسعها الفلك ، أو لضائق عنها السماء ، أو يقول : لو أن سعة كل بلد كسعة صدره لم يضق عن أهله بلد .

والجيد فى هذا المعنى قول البيهقى :

مفازة صدر لو تُطَرَّق لم يكن ليسلكها فرداً سلك المقاب (٣)

أى لم يكن يسلكه إلا بدليل لسعته ، وأيضاً فإن الجزء من الأرض هو ما يكون فيه الحيوان والنبات ، وإنما مقداره على ما يقول أهل الهندسة الربع من الأرض وأقل من الربع ، والمسكون من جملة ذلك ؛ له لا يكون

(١) العمدة — ٢ — ٢٠٧ .

(٢) الصنائع — ١٢٠ — الموازنة — ١٨٠ — ١٨١ .

(٣) المقاب : جمع مقنب كبير : جماعة الخيل والفرسان ، وسالك : أحد العدائين

جزءاً من ألف جزء من ذلك ، فما معنى ضيق البلدان الضيقة ، إنما هو
من أجل ضيق الأرض

فإن قيل لا يدل قوله : « الأرض » ، — وهو لفظ عموم — على
البلدان التي هي مخصوصة .

قيل : لا يكون الخطأ إلا هكذا ؛ أن يريد القائل لفظة تدل على معنى
فيأتي بأخرى ليست فيها على ذلك المعنى دلالة .

أو وضع الشيء في غير موضعه كقول جرير — يصف بقر الوحش — :
يمشى بها كلّ موشى أكارعه مشى الهرايد حجوا بيعة الزون
الأكارع : قوائم الدابة ، والهرايد : سدة بيت النار للهند ، أو عظام
الهند أو علباؤهم أو خدم نار المجوس ، والبيعة معبد النصارى ، والزون :
الصنم .

وعلى هذا فالغلط في ثلاثة مواضع : أحدها أن الهرايد : المجوس
لا النصارى ، والثاني : أن البيعة للنصارى لا للمجوس ، والثالث : أن
النصارى لا يعبدون الأصنام ولا المجوس (١) .

الفصل التاسع

أخطاء الشعراء في التشبيه

يذهب الجمهور : إلى أن العربي الصريح لا يجوز عليه الخطأ ، بل إنه لا يستطيع ذلك لو أراد (١) .

ويصرح ابن جني : أن العربي لا يخطئ ، وأنه يصيب ولا يفهم (٢) .
ويرون في هذا : أنه قيل لعمر بن كَلْبَة : قل إنا من المجرمون منتقمون ،
فقال : إنا من المجرمين منتقمون (٣) .

ويقول الجاحظ : روى أصحابنا : أن رجلا من البلديين قال لأعرابي :
كيف أهلك بكسر اللام ؟ قال : صلبا !

لأنه أجاب على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله (٤) .
ومن أشد اللغويين المحدثين تعصبا لهذا الرأي : المرحوم الشيخ حمزة
فتح الله ؛ يقول في بيت زهير :

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطيع العوالي رُكبت كل لَهْذَم
بسكون الياء في «العوالي» ونحوه إهمال أن الناصية والجزم بها ، وتأكيد
الماضي ، وإثبات حرف العلة ، أو نون الرفع مع الجازم ، إلى غير ذلك مما حقيقة
الحال فيه أنه مبني على لغات أخرى ، أو ضرورات سائغة ؛ لأن الحق أن

(١) ذيل الأمل إلى لقالى — ٤٠ .

(٢) الخصائص — ١ — ٢٤٢ — ٢٥١ .

(٣) البيان والتبيين — ١ — ١٤٧ .

(٤) المصدر السابق — ١ — ١٤٦ — ١٤٧ .

العرب معصومون من الخطأ واللعن في الألفاظ ، حتى قيل : إن البدوي لا يطاوعه لسانه في ذلك .

ثم يقول . ولا التفات لما نقل في المزهري عن ابن فارس ، ولا إلى ما ذكره الزنجشري في المفصل : من أن تحريك هاء السكت في قوله : وارحمناه لحن ، ولما أطل به فارس أفندي صاحب الجوائب في مقدمه ديوانه وجاسوسه (١) .

ولكن يعارض ذلك أن اللحن وقع من بعض العرب الخالص .

فقد ذكروا : أنه قيل لأعرابي أتهمز الريح ؟

قال : نعم .

فقيل له : قلها مهموزة ، فقالها مهموزة .

فقيل : أتهمز الترس ؟

قال : نعم .

فلم يدع سيفاً ولا ترساً إلا همزه !

فقال أخوه - وهو يهزأ به - : دعوا أخى فإنه يهز السلاح جملة (٢)

وكان عيسى بن عمر يقول : أسماء النابغة في قوله :

فبت كأنى ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

ويقول : موضعها ناقعا (٣) .

وذكر أبو زيد أنه سمع أعرابيا يقول : نُسَيَّاه بالمد .

فقال : والواحد إذا أتى بشاذ نادر ، لم يكن قوله حجة مع مخالفة الجميع (٤) .

(١) الواهب الفتحية ٢ — ٨٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢ — ١٧٥ .

(٣) طبقات الشعراء ١٢ — اللوشح ٤١ .

(٤) المزهري ١ — ١٥٢ .

وكان ذو الرمة يخطئ رؤبة في اللغة ، ويقبل رؤبة منه ذلك ^(١) .
 وكان عبد الله بن إسحاق الحضرمي يكثر الرد على الفرزدق فهجاه ^(٢) .
 وفي شرح الفصيح لابن خالويه : كان الفراء يحيز كسر النون في «شتان»
 تشبيهاً بسيّان وهو خطأ بالإجماع .

فإن قيل : إن الفراء ثقة وعله سمعه ، فالجواب : إن كان الفراء قاله
 قياساً فقد أخطأ القياس ، وإن كان سمعه من عربي فإن الغلط على ذلك العربي
 لأنه خالف سائر العرب ، وأتى بلفظة غير مرغوب فيها ^(٣) .

وكان أبو عمرو بن العلاء أشد تسليماً للعرب ، وكان ابن إسحاق وعيسى
 بن عمر يطعنان عليهم ^(٤) .

وقد لحّن الأصمعي ابن قيس الرقيات في بيت من قصيدته في الندبة :
 تبكيكم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيتيه
 وقال : كان ينبغي أن يقول : وارزيتاه كما تقول : واعماه وأخياه ^(٥) .
 وكان يقول : السكيت تعلم النحو وليس بحجة ، وكذلك الطرّح ،
 وكان يقولان ما قد سمعاه ولا يفهما نه .

وقال رؤبة عنهما : كانا يسألانني عن غريب شعرهما ^(٦) .

وقال الأصمعي : أنشدني عقبة بن رؤبة :

ودغبة من خطيل مُغدودن .

ولأنما هي دغوة ، يقال : فلان ذو دغوات ، أي سقطات ^(٧) .

(١) الأغاني ١٦ ص ١٧ « الساسي » .

(٢) الشعر والشعراء — ٢٥ .

(٣) المزهري ٢ — ٣١ .

(٤) الموشح — ٤١ .

(٥) المصدر السابق — ١٨٧ .

(٦) المصدر السابق — ٢٠٩ .

(٧) المصدر السابق والرقم .

والدغوة أيضا : الخلق الرديء ، والخطيل كفرح : الكثير الكلام
الفاسد ، والمغدودون : الشاب الناعم .

وقال : أخطأ أبو النجم في قوله :

كالشمس لم تعد سوى ذرورها

أى لم تتجاوز ذرورها ، فأدخل سوى لأجل الإعراب .

والعداء : الظلم وتجاوز الحق^(١) .

وقد نسبوا الخطأ إلى رؤية في أشياء كقوله في وصف الخمر :

وشقها اللوح بمأزول ضيق

ففتح اليا ، والصواب ضيق أو ضيق .

وقوله

صوادق العتق مهابيب الولق

ففتح اللام ، وإنما هو الولق ، وهو سير سريع .

وقوله — يصف الراى — :

لا يلتوى من عاطس ولا نغق

وإنما هو التغيق والتغاق ، وجاء بشيء بينهما .

وقوله في وصف القوس .

نعية سنورها بين النيق

قال النيق : جمع نيقة ، ولا يقال : نيقة وإنما هو النيق ، وهو رأس

الجبيل .

وقوله :

إذا دنا منهم أنقاض النشَق

يعنى الضفادع .

وكان ينبغي أن يقول : نُشَق جمع نقوق .

وقوله :

أقفرت الوعساء والعشاءت من بعدهم والبُرَق البراث
الوعساء والعشاءت : موضعان ، والبُرَق : جمع برقة ، موضع فيه
حجارة سود وبيض ، ومنه يقال : جبل أبرق

قال : البراث ، وإنما هي البراث جمع برث ، وهي الأرض اللينة^(١) .
ومما تجب ملاحظته أن بعض ما خطئوا فيه رؤية ، وهو : فتح الياء من
« ضيق » وفتح اللام من « الولق » لا يعد خطأ ، بل جاء على القاعدة
المعروفة وهي إتياع الحرف الثاني للأول في الحركة ، أو نقل الكلمة إلى
صيغة « فعل » بكسر العين .

وهذا الخطأ مرجعه إلى الاختلاط بالآعاجم ، لا إلى تقدم الزمان وتأخره
وفي ذلك يقول الخفاجي : فلعل من يجدنا نستدل بكلام العرب المتقدمين
على لغتهم ، ولا نستدل بكلام المتأخرين ، من يتخيل أن هذا شيء يرجع إلى
الزمان وليس الأمر كذلك ، وإنما العرب الأول لما كثر الإسلام واتصلت
الدعوة وانتشرت ، حضر أكثرهم ، وسكنوا الأرياف ، وفارقوا البدو
وخالطهم الباقي ، فامتزج كلامهم بمن جاوروه من الأنباط ، وعاشروه من
الآعاجم ، وعدم منهم الطبع السليم الذي كانوا عليه قبل هذه المخالطة ،
فهم الآن لا يحتاج بكلامهم لهذه العلة ، لا لأن القدم والحدوث سييان
في الصواب والخطأ ، ولهذا كان الأصمعي ينكر أن يقال في لغة العرب :

(١) الشعر والشعراء ٢٧٨ — ٣٧٩ .

مالح ، فلما أنشد في ذلك شعر ذى الرمة ، قال : إن ذا الرمة قد بات
في حوانيت البقالين في البصرة زمانا .

أراد بذلك أنه بمخالطتهم سمعهم يقولون : مالح فقاله ، فلم يحز أن
يحتج بكلامه لهذا السبب .

ولو فرضنا اليوم أنه في بعض الصحارى النائية عن العمارة قوما على عادة
المتقدمين في البدو ، وترك الإمام بأهل المدر ، متمسكين بطبعهم وجارين
على سجيتهم ، كان على هذا الفرض قولهم حجة واتباعهم واجبا^(١) .

ومهما يكن من شأن اختلافهم في جواز الخطأ اللفظي على العربي
الصريح ، فهم متفقون على جواز الخطأ عليه في المعنى .

يقول الجاحظ : وليس الأعرابي بقدوة إلا في الجر والنصب والرفع
وفي الأسماء ، وأما غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب^(٢) .

ويقول ابن جنى : المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء
في الألفاظ^(٣) .

ويقول الشهاب الخفاجي : إن العرب القدماء يخطئون في المعاني دون
الألفاظ^(٤) .

ويقول الحموى : إذا نظرت في الكلام العربي إما أن تبحث عن المعنى
الذي وضع له اللفظ وهو علم اللغة ، وإما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب
ما يعتريه وهو علم التصريف ، وإما أن تبحث عن المعنى الذي يفهم من
الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلام ، وهو علم العربية «النحو»

(١) سر الفصاحة — ١٢٢ .

(٢) الحيوان ٢ — . .

(٣) الممددة ٢ — ١٨٣ .

(٤) شفاء القلب — ١٦٩ .

وإما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوى وهو علم المعانى ، وإما أن تبحث عن طريق دلالة الكلام إيضاحا وخفاء بحسب الدلالة العقلية وهو علم البيان ، وإما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع .

فالعلوم الثلاثة الأولى يستشهد عليها بكلام العرب نظما ونثرا ، لأن الاعتبار فيها ضبط ألفاظهم .

والعلوم الثلاثة الأخيرة يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم ، لأنها راجعة إلى المعانى ، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذ كان الرجوع فيها إلى العقل ^(١) .

أخطاء العرب والمولدين :

وسنورد فيما يلى جملة من أخطاء العرب والمولدين فى التشبيه وحده لأنه غایتنا من هذا الفصل ، معقبين عليها بالشرح والإيضاح والنقد بقدر ما يتسع له المقام .

قال امرؤ القيس — يصف الفرس — :

لها ذنب مثل ذيل العرو س تصدُّ به فرجها من دُبُر
قالوا : ذيل العروس مجرور ، ولا يجب أن يكون ذيل الفرس طويلا
مجرورا ولا قصيرا .

ولم قال : من دبر ؟

ومن أين تسد بذنبها فرجها من قُبُل ؟
فليس هذا من كلام الخذاق ، والصواب قوله :

(١) خزنة الأدب ص ٥ — ٦ .

ضليع إذا استدبرته مد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل
الفرج : الفضاء الذي بين الرجلين ، والأعزل : الذي يميل عظم ذنبه
إلى أحد الشقين .

وشرط كونه فويق الأرض ؛ لأنه إذا بلغ الأرض وطئه برجليه
وذلك عيب ؛ لأنه ربما عثر به ، واستواء عظم ذنبه من دلائل العتق والسكرم
كسبوغ ذنبه .

وقد رد ذلك المرتضى ، بقوله : وما أرى العيب يلحق امرأ القيس ؛
لأن العروس وإن كانت تسحب أذيالها وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض
عييا ، فليس بمنكر أن يشبه به الذنب وإن لم يبلغ إلى أن يمس الأرض ،
لأن الشيء إنما يشبه الشيء إذا قاربه أو دنا من معناه ، فإذا أشبهه في أكثر
أحواله فقد صح التشبيه ولاق به ؛ وامرؤ القيس لم يقصد أن يشبه طول
الذنب بطول ذيل العروس فقط ؛ وإنما أراد السبوغ والكثرة والكثافة
ألا ترى أنه قال :

تسد به فرجها من دبر

وقد يكون الذنب طويلا يكاد يمس الأرض ، ولا يكون كثيفا ولا
يسد فرج الفرس ؛ فلما قال : تسد به فرجها علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ
مع الطول ، فإذا أشبه الذنب الذيل من هذه الجهة كان في الطول قريبا منه
فالتشبيه صحيح وليس ذلك بموجب للعيب (١) .

ومثل قول امرئ القيس قول خدش بن زهير :

لها ذنب مثل ذيل الهدى إلى جؤجؤ أيد الزافر

(١) الموضع — ٣٦ .

(٢) أمالي المرتضى — ٤ — ١٢ .

الهدى : العروس التى تهدى إلى زوجها ، وأيد : شديد ، وزافر : صفة
لجؤجؤ وهو الصدر لأنها تزفر منه .

أراد بذيل العروس طوله وسبوغه ، فشبه الذنب السابغ به ؛ وإن لم
يبلغ فى الطول إلى أن يمس الأرض^(١) .

* * *

وقال طرفة - يصف الناقة - :

كَأَن جَنَاحِي مَضْرَحِي تَكْنُفَا حَفَافِيهِ تُشَكُّا فِي الْعَسِيبِ بِمَسْرَدِ
المضرحى : الأبيض من النسور أو العظيم ، والحفاف ككتاب :
الجانب ، والشك : الغرز ، والعسيب : عظم الذنب ، والمسرد كمبرد :
الإشنى « المثقب » .

يقول : كَأَن جَنَاحِي نَسْرٍ أَيْضَ غَرَزَا بِإِشْنِي فِي عَظْمِ ذَنْبِهَا فَصَارَا
فِي نَاحِيَةٍ .

شبه شعر ذنبها بجناحي نسر أبيض ، والنجائب توصف برقة شعر
الذنب وخفته ، وجعله طرفة كشيئا طويلا عريضا^(١) .

* * *

وقال - يصف عنق الناقة - :

وَأَتْلَعَ نَهَاظَ إِذَا صَعَدَتْ بِهِ كَسُكَّانُ بُوصَى بِدَجَلَةٍ مُصْعِدِ
الأتلع الطويل ، والبوصى : ضرب من السفن ، والسكان : ذنب
السفينة .

يقول : هِيَ طَوِيلَةُ الْعُنُقِ ، سَرِيعَةُ النُّوْضِ بِهِ ، فَإِذَا رَفَعَتْهُ وَنَصَبَتْهُ
أَشْبَهَ ذَنْبَ سَفِينَةٍ مِنْ هَذَا النَّوْعِ الْمُسَمَّى بِالْبُوصَى حِينَ يَصْعَدُ فِي نَهْرٍ دَجَلَةٍ .

(١) الموازنة - ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢) الموشح - ٨٩ .

هذا تفسير الروزنى للبيت (١) .

وذهب القاضى الجرجانى : إلى أنه أراد الدَّقْل ، الصارى ، وهو الخشبة التى تحمل الشراع ؛ فأخطأ وذكر بدله السكبان .

* * *

وقال النابغة — يصف الناقة — :

تحميد عن أَسْتَن سود أسافله مثل الإمام الفوادى تحمل الحزماً
الاستن : شجر إذا نظر الناظر إليه من بعيد ، شبهه بشخص الناس ، وهو بشعر المنظر تسميه العرب : رموس الشياطين .

قال الأصمى : إنما توصف الإمام فى مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو ، لأنهم يحنن بالخطب إذا رحن .

وقال العسكرى : وإنما تحمل الإمام حزم الخطب عند رواحهن ، فأما فى غدوهن إلى الصحراء فإنهن يُخَفِّتْنَ ، وفى ذلك يقول الأحنس بن شهاب التغلبى :

تظل بها رُبْد النعام كأنها إماء تُزجى بالعشى حواطب (٢)
وإنما شبه النعام بالإماء الحواطب ؛ لأن النعامة إذا خففت عنقها ومشت ، كانت أشبه شئ بمماش وعلى ظهره حمل (٣) .

* * *

وقال النابغة — يصف الناقة أيضاً — :

مقدوفة بدخيس النَّخَض بازها له صريف صريف القَعْنو بالمسد

(١) شرح الملقات — ٥٦ .

(٢) فى المقد الفريد — ٣ — ٤٣٠ . إماء يرحن بالعشى حواطب .

(٣) الصناعتين — ٨٢ — الموشع ٤٤ .

الدخيس : ما دخس بعضه في بعض ، والنحض : اللحم ، والبازل :
الناب ، والقعو : البكرة .

شبه صوت ناهها بصوت البكرة بالحبل .

قال الأصمعي^(١) : قرأت على أبي عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبياني ،
فلما بلغت قوله :

مقدوفة

قال لي : ما أضرَّ عليه في ناقتة ما وصف !

قلت : وكيف ؟

قال : لأن صريف الفحول من النشاط ، وصريف الإناث من الإعياء
والضجر ، كذا تكلمت العرب .

قال : فرآني بسكوتي مستزيداً فقال : ألم تسمع قول ربيعة بن
مقروم الضبي :

كناز البضييعُ جُمالية إذا ما بغمَن تراها كتوما

كناز البضييع : كثرة اللحم صلبة ، وجُمالية : تشبه الجمل في خلقتها ،
والبغام بالضم : الصوت .

يعنى إذا صوتت النوق من الآين والتعب لم تصوت لقوتها وجَلدها .

* * *

وقال ساعدة بن جؤية — يصف السهام — :

كساها رطيب الريش فاعتدلت له قِداح كَأَعناق الظباء الفوارق
الفوارق : التي أخذها المخاض فندت في الأرض .

(١) المصدر السابق ٤٢ .

شبه السهام بأعناق هذه الظباء — في هذه الحال — وليس بينها شبه ،
ولو وصفها بالدقة لكان أولى (١) .

* * *

وقال قيس بن الخطيم :

كأنها عود بانه قصف .

والمرأة إنما تشبه بالعود المتثنى لا المتقصف (٢) .

وقد أخذه ابن أبي فتن فقال في « وصيف » الخادم الصغير :

أيها الظبي المليح القدم مجسول مَهْفَف

أنا من ميلك في مشيك م مرعوب مخوَّف

لا تَمِلَنَّ فَإِنِّي خائف أن تنقصَف

ويقول ابن الرومي في بيت ابن أبي فتن هذا : إنما أراد أنه يميل من
لينه ونعومة أعضائه ، فأسرف حتى أخطأ ، وذلك أنه جعل اللين المفرط
يتقصف ، وإنما كان ينبغي أن يقول : لو عقد لانعقد من لينه ، فضلاً عن
أنه يميل وهو سليم من التقصف ، وأنشد لنفسه يعارض ذلك :

أيها القائل إني خائف أن تنقصف

ليس هذا الوصف إلا وصف مصلوب مجفف

* * *

وقول أوس بن حجر :

كان ريقها بعد الكرى اغتبت من ماء أذن في الحانوت نضاح

ومن مشعشة كالمسك تشربها أو من أنايب رمان وتفتح

(١) الصناعتين — ٢١٧ — الموشح — ٨٧

(٢) المصدر السابق — ٣٤٧ — ٣٤٨ .

ظن أن الرمان والتفاح في أنابيب .
وقيل : إن الأنابيب : الطرائق التي في الرمان ، وإذا حمل على هذا
الوجه صح المعنى ^(١) .

* * *

وقول بشامة بن الغدير — يصف راحلته — :
وصدرها مهيبيع كالخليفة تخال بأنَّ عليه شليلا
المهيبيع : الواسع ، والخليفة : الطريق في الجبل ، والشليل : المسح
من الصوف أو الشعر .
شبه صدرها في اتساعه بالطريق في الجبل ، ولشكثرة ما عليه من الوبر
يظن أن عليه مسحا من صوف أو شعر .

وقد خطأه الأصمعي في ذلك لأن من صفة النجائب قلة الوبر ^(٢) .
وقال المسيب بن علس :

وكان غاربها رباوة مخرم وتمدثني جديلمـا بشراع
الرباوة : الراية ، والمخرم : طريق الجبل ، والجديل : الزمام المجدول .
أراد تشبيه العنق بالدقْل « الصارى » فشبهه بالشراع .
والجيد منه قول ذى الرمة :

وهاد كجزع الساج سام يقوده معرق أحناء الصبيين أشدق
الهادي : العنق ، والمعرق : ما عرى من اللحم ، والأحناء : الجوانب ،
والصبيان على وزن فعلان : طرفا اللحمة ، والأشدق : الواسع

(١) الصنائع — ٧٠ .

(٢) العمدة — ٢ — ١٩ .

وقال أبو حاتم : الشراع : العنق ، ويقال للعنق : شراع وتليل ، فإذا
صحت هذه الرواية فالمعنى صحيح^(١) .

* * *

وقال بشر بن أبي خازم — يصف سفينة — :
ونحن على جوانبها قُعود نغص الطرف كالإبل القهاج
أجالد صفهم ولقد أرائ على زوراء تسجد للرياح
إذا ركبت بصاحبها خليجا تذكر ما لديه من جناح
غض طرفه : كسره وأطرق ولم يفتح عينيه ، والقهاج : الارتفاع
الروس من قبح البعير قوحا : رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب
كتقمّح وانقمح فهو قاح .

فكيف يشبه المطرق بالرافع رأسه ١٩

* * *

وقال الشماخ — يصف ناقته — :
فنعم المعتزى رحلت إليه رحي حيزومها كرحى الطحين
المعتزى : المنسوب إليه ، والحيزوم : الصدر ، ورحى الحيزوم :
ما يمس الأرض من صدر البعير إذا برك ، ويسمى : السكر ككرة .
وفي النخوص واللسان :
فنعم المعتزى ركدت إليه .
شبهه رحي حيزومها برحي الطحين في عظمها وكبرها .
ولأنما توصف النجائب بصغر السكر ككرة ولطف الخُف^(٢) .

(١) شفاء القليل — ١١٨ .

(٢) الثمر والشمر — ١٤٦ .

وقال العسكرى : السَّمدانة ، السكركرة ، توصف بالصغر .

وقال من احتج للشماخ : إنما شبهها بالرحى لصلابتها كما قال :

قلائص يطحن الحصى بالكرakra^(١) .

ويقول ابن رشيق : وخطاه الأصمى ، فقد ظنه يصفها بالكبر وهو

عيب لا محالة ، وإنما وصفها بالصلابة لا غير^(٢) .

* * *

وقال النابغة الجعدي — يصف المطى — :

كان تواليسها بالضحى نواعم جعل من الأثاب

توالى الخيل والإبل : مآخيرها ، والأثاب : شجر يفت في بطون

الأردية في البادية ؛ وأحدثها : أثابة ، والجعل : صغار النخل .

شبه مآخير المطى بصغار النخل ، والصواب وصفها بالعظم .

ففي البيت مأخذان : أولهما تشبيه المطى بالجعل ، وثانيهما جعل الجعل

— وهو صغار النخل — من الأثاب .

ويقول القاضي الجرجاني : وإنما المراد الكبير ، وبه يصح الوصف

كما زعموا^(٣) .

ويقول ابن قتيبة : أخذوا عليه أن الجعل صغار النخل ، فكيف جعله

من الأثاب !

ثم يقول . ولا أراه إلا صحيحا على التشبيه ؛ كأنه أراد نواعم أثاب

كالجعل .

(١) الوساطة — ١٧ .

(٢) الصناعتين — ١١١ .

(٣) العمدة — ٢ — ١٩١ .

وقد تسمى العرب باسم الشيء إذا كان له مشبهها ، ولعل الأثأب أن يكون
أفأؤه تسمى جملاً كما تسمى أفأء النخل وقصاره جملاً (١) .

• • •

وقال حميد بن ثور :

لما تخاللت الحمول حسبتها دَوماً بأيلة ناعما مكموما (٢)

الدوم : شجر المقل وهو لا يكف ، والمكوم لا يكون إلا النخل ؛
فظن أن الدوم النخل (٣)

شبه الحمول بالدوم المكوم في هذا الموضع ، قياساً له على النخل وهو
قياس خطأ ؛ لأن الدوم لا يحتاج إلى التكميم كما تحتاج أعداق النخل خشية
تساقط ثمرها .

• • •

وقال خفاف ابن نُدبة :

كنواح ريش حمامة نجدية ومسحت باللشئين عصف الإمد
يريد : كنواحي فنقص من الكلمة .

وهذا النوع يسمى : التثليم .

وهو أن يأتي الشاعر بأسماء يقصر عنها العروض ، فيضطر إلى ثلثها
والنقص فيها .

ومثله قول علقمة بن عبدة :

كان إبريقهم ظبي على شرف . فقدم بسبنا الدكتان مرثوم

(١) الشعر والشعراء - ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) أيلة بالفتح : جبل قرب ينبع ، وبلد بين ينبع والشام على ساحل البحر الأحمر .

(٣) الزهر - ٢ - ٣١٣ .

أراد بسبائب الكتان فحذف للعروض
والسبائب : الشقق الرقيقة ، والمرثوم : الذى فى أنفه بياض .
أو يجتزى* بالضمّة عن الواو فى مثل كأنه وله وبيناه كقول الشاعر .
له زجل كأنه صوت حاد إذا طلب الوسيقة أو زمير
أورد الإعراب إلى أصله كقول الشاعر :
ما إن رأيت ولا أرى فى مدق كجوارى يلعبن فى الصحراء
وقد صرح ابن الأثير بقبح هذا النوع وعدم جواز استعماله لنا ، وإن
كانت العرب قد استعملته ^(١) .

* * *

وقول آخر :

تنقى يداها الحصى فى كل هاجرة نقى الدراهم تنقاد الصياريف
يريد : الدراهم والصياريف فزاد فى الكلمة ^(٢) .

* * *

وقال الخطيئة :

صفوف وماذى الحديد عليهم وبيض كأولاد النعام كشيء
الماذى : الحديد كله : الدرع والمغفر والسلاح أجمع .
شبهه البيض الذى يلبس على الروم بأولاد النعام ، وأراد به بيضه ^(٣) .
وقال متمم بن نويرة :
وكأنه فوق الحبال جانباً ريم تضايقه كلاب أخضع

(١) المثل سائر - ١٢ .

(٢) شر الفصاحة ٧٥ .

(٣) الصناعتين ١٠٧ - الموشع - ٧٩ .

وصف ذكر الأطباء بالخضوع ، وإنما يجب الاستشراف كما يقول
القاضي الجرجاني .

* * *

وقال المرار بن منقذ العدوي — يصف النخل — :

كأن فروعها في كل ريح عذاري بالنواب ينتصينا^(١)
وقد خطاه الأصمعي وقال : لم يكن له علم بالنخل ، وإذا تباعد النخل
كان أجود له وأصلح لثمره .

وبما كانت تقوله العرب عن الأشياء : قالت نخلة لأخرى : أبعدى
ظلي عن ظلك أحمل حملي وحملك^(٢) .

ويؤخذ من تحقيق العلامة تيمور د. باشا ،^(٣) : أن المذموم تقارب
ما بين الأصول ، فأما أن يمتد جريده ، ويكثر خوصه ، ويتصل بعضه ببعض
حتى لا ترى منه الشمس ، ويمنع الطير من أن تشقه ، فهو من نعمته الجيد ، وأن
رواية أبي حاتم عن الأصمعي : أنه قال : في مثل للفرس والنبط : تقول
النخلة لأختها : تباعدى عني وأنا أحمل حملي وحملك ، ولم يذكرفيه تباعد الظل .
ثم صوب قول المرار وقال : لاشيء أحسن من هذا الوصف للنخل
واستشهد على صحة كلامه بقول ذكوان العجلي :

نواضر غائباً قد تدانت رومها من النبت حتى ما يطير غرابها
ترى الباسقات العُصم منها كأنها ظمائن مضروب عليها قبابها^(٤)

• • •

(١) الانتصاء : الأخذ بالناصية في الخصومة .

(٢) الشعر والشعراء — ٤٤٠ .

(٣) أوامام الشعراء — ٣٣ .

(٤) الم من النخل : التامة في طولها والتفافها .

بعيدة بين الزرع لازدات حُشوة قصار ولا صُعل سريع ذهابها (١)

وقال أيضا — يصف الخال — (٢)

وخال على خديك يبدو كأنه سنا البدر في دجاء باد دجونها
وهو من مخالفة العرف ، وذكر ما ليس في العادة .

والمعروف أن الخيلان سود أو سمر ، والحدود الحسان إنما هي البيض
فأق الشاعر بقلب المعنى .

وكذا قول الشاعر الآخر :

كأنما الخيلان في وجهه كواكب أحرقن بالبدر
ويمكن أن يحتج لهذا الشاعر بأن يقال : شبه الخيلان بالكواكب من
جهة الاستدارة لا من جهة اللون .

والجيد فيه قول العباس بن الأحنف :

خال بذاك الخد أحسن عندنا من النسكة السوداء في وضح البدر
وقبله قال مسلم :

وخال كخال البدر في وجه مثله لقينا المنى فيه فحاجونا البذل
وقال الطرّح ماح — يصف ناقته — :

...

تُمسّح الأرض بمُغنُونس كمثل مِثْلة النياح القيام

المغنُونس : الذنب الطويل ، والمِثْلة : واحدة المآلى ، وهي خرق
تمسكها النساء بأيديهن إذا قن للنياحة .

فأفصح : بأن الذنب يمس الأرض ، وأساء في التشبيه أيضا (٣)

(١) الحفوة بالضم والكسر : دغل الأرض ، والصمل : الدقيقه الرأس وما فيها عوج
جمع صملاء .

(٢) الصناعتين ٩٣ — ٩٤ .

(٣) للوضع — ٢٠٩ .

ففي البيت عيبان : وصف ذنب الناقة بالطول حتى تسمح به الأرض وهو عيب فاحش مع مخالفته للواقع .

ثم تشبيهه إياه بخرقة النائحة ، وهي ليست طويلة حتى تصل إلى الأرض وصاحبها قائمة ، ولا تغدو أن تكون متديلا كما نشاهده في المساء .
ففي التشبيه مخالفتان صريحتان للواقع .

* * *

وقال رجل — يرثى عمر بن عبد العزيز — .
ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور
والصحيح أن يقول : منشور ؛ لأنه يقال : أنشرا الله الموتى فنشروا^(١) .
والحق : أن « منشور » صحيحة فليس في البيت ما يعاب ، وفي المعجمات .
نشره فنشّر ، وأنشره : أحياه .

* * *

وقال عبد الله بن عبد الرحمن القسّ :
أرى هجرها والقتل مثلين فاقصرا ملامكا فالقتل أعنى وأيسر
قال قدامة : هذا الشعر من التناقض ، فإن هذا الشاعر أوجب للهجر والقتل أنهما مثلان ، ثم سلبهما ذلك بقوله : إن القتل أعنى وأيسر ، فكأنه قال : إن القتل مثل الهجر وليس مثله^(٢) .
وقال العسكري : إن الهجر والقتل مثلان ، ثم سلبهما ذلك فقال : إن القتل أعنى وأيسر .

فكأنه قال : إن القتل مثل الهجر وليس هو مثله ، وذلك متناقض .
ولو كان استوى له أن يقول : بل القتل أعنى وأيسر لكان الشعر

(١) ديوان اللطاعي — ٢ — ١٧٤ .

(٢) نقد الشعر — ٨٢ .

مستقيماً ، لأن لفظة دبل ، تنفي الماضي وتثبت المستأنف كما قال زهير :
حتى الديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم
على أنهم عابوا هذا البيت على زهير ، ولكنه بمجيء بلى فيه لم يكن
عندي فاسداً (١).

• • •

وقال زياد الأعجم ليزيد بن المهلب :
هل لك في حاجتي حاجة أم انت لها تارك طارح
أمشها لك الخير أم أحياها م كما يفعل الرجل الصالح
إذا قلت قد أقبلت أدبرت كمن ليس غاد ولا رانح
وكان ينبغي أن يقول : غاديا ولا رانحا .
وزياد كثير اللحن في شعره ؛ ولهذا قيل له : الأعجم ، ولفساد لسانه
بفارس (٢) .

• • •

وقال أيمن بن خريم — يمدح بشر بن مروان — (٣) .
وإنا قد رأينا أم بشر كأم الأسد مذكارا ولودا
فأق في البيت بما هو أقرب إلى الذم منه إلى المدح ؛ لأن الناس يجمعون
على أن تتاج الحيوانات الكريمة أعسر وأولادها أقل كما قال الأول (٤) :
بغات الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات تزور
المقلات : الناقة تضع واحداً ، والمرأة لا يعيش لها ولد .

(١) سر الفصاحة — ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) الشعر والشعراء — ٢٥٩ .

(٣) الصناعتين — ٠٩٧ .

(٤) هو كثير عزة .

ورواية قدامة :

وإنا قد وجدنا أم بشر .

* * *

وقال أبو النجم العجلي :

أخنس في مثل الكظام مخطمه

الأخنس : القصير المشافر ، والكظام ككتاب : ممداد الشيء ،
والمخطم : الأنف .

وصف مشافره بالخنس ، وإنما توصف المشافر بالسبوبة .

ومن وصف أعرابي للإبل : . . عظام الحناجر ، سباط المشافر ^(١)

* * *

وقال أيضاً في وصف الفرس :

كانها ميجنة القصار

القصار : محور الثياب ، والميجنة : أداة من الحجر يدق عليها الأدم
« الجلد » .

والميجنة لصاحب الأدم وغيره ^(٢) .

والحق أنه لا معنى للاعتراض عليه ، فإن الميجنة — كما في كتب اللغة —
مدقة القصار ، وصانع الجلد .

* * *

وقال عدي بن الرقاع العاملي :

لهم راية تهدي الجموع كأنها إذا خطر في ثعلب الرمح طائر

(١) الصناعتين — ٨٨ — ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ٩٠ — الشعر والشعراء — ٣٨٦ .

الثعلب : طرف الرمح الداخل في جُبة السنان .
والراية لا تخطِر ، وإنما الخطِران للرمح^(١) .

* * *

وقال عمر بن كَلْبَا من أرجوزة وصف فيها إبله فجعلها كالجبال في عظم
الخلق ، ثم قال في خلقها .

كالظَّرَبِ الأسود من ورائها
الظرب : الجبل الصغير أو الغليظ من الأرض ، ولا يوصف الفعل بأنه
أصغر من إنائه في الخلقة .
ثم قال :

جر العروس الثَّنى من رداها
وقد عابه جرير : بأنه وصف إبله حتى جعلها كالجبال ، ثم جعل خلقها
كالظرب .

ثم قال في الجزء الثاني ، والله ما شعره من نمط واحد وإنه لمختلف الميرون
وبلغ عمر قول جرير فقال : أيعيب قولى .

جر العروس

ولمّا أردت لينه ولم أرد أثره .

وكان ذلك هو سبب وقوع الشر بينهما^(٢) .

* * *

وقال رؤبة :

(١) الصناعتين — ٩٣ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي — ٢٦٢ .

كنتم كن أدخل في حجر يدأ فأخطأ الأفعى ولاقى الأسود
جعل الأسود دون الأفعى في المضرة وهي فوقه فيها^(١) ، لأن الأسود :
الحية العظيمة .

* * *

وقال العمّاني الراجز منشدا « الرشيد » في وصف فرس :
كانّ أذنيه إذا تشوّفا قادمة أو قلبا محرّفا
فقال الرشيد : دع كان ، وقل : تخال حتى يستوى شعرك ، وكان قد
لحن ولم يعرف ، ولم يفطن له أهل المجلس حتى قال الرشيد ذلك فتعجبوا
من عليه وفضله^(٢) .

قال المبرد : والراجز - وإن كان لحن - فقد أحسن التشبيه^(٣)
ونسب الشنقيطي البيت إلى أبي نخيلة الراجز ، وذكر : أنه قد أجيب
عنه بأجوبة .

- ١ - أن الشاعر قد لحن .
- ٢ - أن خبر كان محذوفة وقادمة مفعول ، والتقدير : تحكيان قادمة .
- ٣ - أن الرواية : قادمة أو قلبا بألفان من غير تنوين ، على أن
الأصل قادمتان أو قلمان محرّقان ، غدفت النون لضرورة الشعر .
- ٤ - أن الرواية : تخال أذنيه^(٤) .

* * *

وقال أبو نواس - يصف الناقة - :

(١) الصناعتين - ٨٨ - الشعر والمعرء - ٣٨٦ .
(٢) ديوان المعاني ص - ٣٦ - ٣٧ .
(٣) السكامل « شرح المرسفي » - ٧ - ٤٧ - ٤٨ .
(٤) الدرر اللوامع - ١ - ١١٢ .

كأنما رجلها قفا يدها رجل وليد يلهو بدبوق
الدبوق : لعبة .

وإذا كانت كذلك كان بها عُقَّال ، وهو من أسوأ العيوب (١) .

* * *

وقال في وصف الكلب :

كأنما الاظففور من قنابه موسى صناع رُدِّ في نصابه
القناب ككتاب : المخلب .

شبهه بموسى اخلاق الحاذق حين يدخله في قرابه ، لأنه ظن أن مخلب
الكلب كمخلب الأسد والسنور الذى ينسحق إذا أرادا حتى لا يتبين ،
وعند حاجتهما تخرج المخالب حجتنا محددة يفرسان بها ، والكلب مبسوط
اليدين أبدا غير منقبض (٢) .

* * *

وقال يصف الحباب — وهو أبداع ما قيل فيه — (٣) .

قامت ترينى وأمر الليل مجتمع صبحا تولد بين الماء واللهب
كأن صغرى وكبرى من فواقها حصباء در على أرض من الذهب
وقد أخذه ابن المعتز فقال :

يا خليلي سقياني فقد لا ح صباح وأذن الناقوس
من كُمِيت كأنها أرض تبر فى نواحيه لؤلؤ مغروس
وقد خطأ النحاة أبا نواس فى قوله المتقدم ، وفى ذلك يقول ابن الأثير :

(١) العقول كرماني : داء فى رجل الدابة .

(٢) الموشح — ٢٧٣ .

(٣) ديوان المعاني — ٣٠٨ .

ولا شك أن قلة المبالاة بالامر واستشعار القدرة عليه ، توقع صاحبه فيما لا يشعر أنه وقع فيه فيجهل ما يكون عالما به ، ألا ترى أن أبا نواس كان معدودا في طبقات العلماء مع تقدمه في طبقات الشعراء ، وقد غلط فيما لا يغلط مثله فيه ، فقال في صفة الخمر :

كان صغرى

وهذا لا يخفى على مثل أبي نواس ؛ فإنه من ظواهر علم العربية ، وليس من غوامضه في شيء ، لأنه أمر نقلي يحمل ناقله فيه على النقل من غير التصرف وقول أبي نواس : صغرى وكبرى غير جائز ؛ فإن فعلى أفعل لا يجوز حذف الألف واللام منها ، وإنما يجوز حذفهما من فعلى التي لا أفعل لها نحو حبل إلا أن تكون فعلى أفعل مضافة ، وههنا قد عريت عن الإضافة ومن الألف واللام ، فانظر كيف وقع أبو نواس في مثل هذا الموضع مع قربته وسهولته (١) .

والصحيح : أن أبا نواس لم يخطئ ؛ لأنه أراد هنا ثبوت الوصف لمحله من غير نظر إلى تفضيل ؛ كقولهم : نصيب أشعر الحبشة : أى شاعرهم إذ لا شاعر غيره فيهم .

والأمر هنا كذلك : أى كأن صغيرة وكبيرة . . .

وذكر محمد بن سلام الجمحي عن يونس بن حبيب ؛ قال : جاء رجل إلى رؤبة بن العجاج فسأله عن قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول
فقال له : أقعد .

فلما أذن المؤذن وقال : الله أكبر ، قال : ما يقول هذا ؟

قال : الله أكبر من كل شيء .

قال : وكذا ذاك أطول من كل شيء .

ويقول ابن سنان الخفاجي : تأولوا قول الفرزدق على وجهين .

أحدهما : أن يكون أعز وأطول بمعنى عزيمة طويلة .

والثاني : أعز وأطول من يبتك يا جرير .

ثم يعقب على هذا : بأن ذلك من التعسف في التأويل ، ومراد الشاعر أوضح من أن يخفى ، وأشهر من أن يجهل ، وهو أعز وأطول من السماء التي ذكرها في أول البيت .

وإنما جاء بها لهذا الغرض ، وهذه مبالغة في الشعر معروفة مستعملة ، وليست بالمسكروهة ولا الغريبة (١) .

* * *

وقال أبو الشَّيْص الخزاعي :

وجناح مقصوص تحيِّف ريشه ريبُ الزمان تحيِّف المقراض

قالوا : ليس المقراض من كلام العرب .

وتبعه البحتري فقال :

وأبت تركي الغديَّات والآصال حتى خضبت بالمقراض

فما بوه عليهما جميعا .

قال الخفاجي : وقد تكون الكلمة عربية إلا أنها قد عبر بها عن غير

ما وضعت له في عرف اللغة (٢) .

وفي اللغة قرضت الشيء قرضا من باب ضرب : قطعته بالمقراضين .

والمقراض أيضا بكسر الميم ، والجمع مقاراض .

ولا يقال : إذا جمعت بينهما مقراض كما تقول العامة ، وإنما يقال عند

(١) سر الفصاحة — ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه — ٧٢ — ٧٧ .

اجتماعهما : قرضته بالمقراضين ، وفي الواحد قرضته بالمقراض ، وقرض
الثوب بالمقراض .

فالكلمة من كلام العرب كما ترى ، ولا ترى وجها لتخطئة استعمالها .

...

وقال محمد بن عبد الملك الزيات - يصف ناقته في قصيدة مدح بها
الحسن بن سهل - مطلعها :

كانها حين تنهأى خطوها أخنس مطوى الشوى يرعى القمل
الأخنس : ذكر البقر الوحشى ، والشوى : الأطراف .

والعيب الأول فى البيت : مخالفته العادة فى بدء القصيدة بالتشبيه ، فلم
يجر الشعراء على هذا الرسم الغريب !

والعيب الآخر : أنه خالف جميع الشعراء فى وصف الناقة ، لأنهم إنما
يصفون الناقة بالظلم والحمار والثور بعد الكلال ، غلوا فى الوصف ومبالغة .

هذا هو الجيد ، فإن لم يفعلوا لم يذكروا : أنها بذلت جهدها واستفرغت
جميع ما عندها بل يدعون التأويل محتملا للزيادة .

ثم قال : يرعى القمل ، والثور لا يرعى قمل الجبال ، وإنما ذلك الوعل
فإنه لا يسمل ، والثور فى السهول والدماث ومواضع الرمال ، إلا أن يريد
بقمل النبات أعاليه .

وربما أن تكون القمل نباتا بعينه أو مكانا فقد يمكن وما سمعت بهما^(١) .

وهذا الخطأ وقع فيه ابن الزيات على علمه وفضلته لتعاطيه ما لا يحسن ،
فمثلثه وهو الحضرى المسترف ليس من ركاب النوق وليس له عهد بمزاولة
شئونها حتى يخبر أحوالها كالأعراب أو بعض الشعراء الذين اعتادوا

الرحله في الفيافي ، كالمثني الذي يقول في مدح عبد الله بن يحيى البحتري :
إليك ابن يحيى بن الوليد تجاوزت في البید عيس لحمها والدم الشمر^(١)
نضحت بذكركم حرارة قلبها فسارت وطول الأرض في عينها شبر
فجاء بضد ما جاء به ابن الزيات من وصفها بالقوة والنشاط والمرح على
ما تسكبه من الجهد والمشقة في قطع المفاوز كلفا يبلوغ الممدوح وشوقا
إلى لقائه !

• • •

وقال أبو تمام :

يوم كطول الدهر في عرض مثله ووجدى من هذا وذلك أطول
فجعل للدهر — وهو الزمان — عرضا ، وذلك محض المحال .
وعلى أنه ما كانت إليه حاجة ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله : كطول
الدهر ، فأتى على الغرض في المبالغة^(٢) .

• • •

وقال :

كالأرجى المذكى سيره المرطى والوخد والملع والتقريب والخبب
الأرجى من الإبل : منسوب إلى أرحب : حى من همدان تنسب
إليهم الإبل .
والمذكى : الذى قد انتهى في سنه ، والمرطى من عدو الخيل فوق

(١) يروى الشعر بفتح الشين : أى يرى السير جسدها فلم يبق فيها غير الوبر على الجلد ،
وهى رواية الخوارزمي ، ويروى الشعر بكسر الشين : يعنى أن أبقعائها على السير مستعد من
الشعر الذى كان يحدها به فيوفر لها لحمها ودمها . ويفنيها عن استهلاكه ، والبيت الثانى يؤيد
هذا المعنى .

(٢) للوازنة — ١٧٥ .

التقريب ودون الإهذاب ، والوخد : الاهتزاز في السير مثل وخد النعام
والملع : من سير الإبل السريع ، والتقريب : من عدو الخيل معروف ،
والخبب دونه .

جمع هذا البيت أنواعا من العدو، ووفق في ذلك مع البعد عن التكلف
ولكن عيبه أنه خلط بين ما يخص الإبل وما يخص الخيل .

فليس التقريب من عدو الإبل ، وهو في هذا الوصف مخطئ .
وقد يكون التقريب لأجناس من الحيوان ولا يكون للإبل ، وإنا ما
رأينا بعيراً قط يقرب تقرب الفرس .

والمرطى أيضا من عدو الخيل لم أره في أوصاف الإبل ولا سيرها (١) .

• • •

وقال - يصف الفرس - :

وبشعلة أبـذ كأن فـليلها في صهوتيه بدء شيب المـفرق

الشعلة بالضم : البياض في ذنب الفرس والناصية والقذال ، والفليل :
ما تفرق منها بصهوتيه ، والصهوة موضع اللبد ، وهو مقعد الفارس
من الفرس .

وذلك الموضع أبداً ينحت شعره لغمز السرج إياه فينبت أبيض لأن
الجلد هنا يرق ، وأنت تراه في الخيل كلها على اختلاف شياتها ، وليس
بالبياض المحمود ولا الحسن ولا الجميل .

فهذا خطأ من هذا الوجه ، وهو خطأ من وجه آخر ؛ وهو أن جعله
شعلة ، والشعلة لا تكون إلا في الناصية أو الذنب ، وهو أن يبيض عرضها
وناحية منها فيقال : فرس أشعل وشعلاء ، وذلك عيب من عيوب الخيل

الشعلة

الشعلة

فإن كان ظهر الفرس أبيض خلقة فهو أرجل ولا يقال أشعل .
وقد أخذ البحترى قوله : بدء شيب المفرق ، فجاء به حسنا جدا ثم سلم
من العيب فقال :

وبشعلة كالشيب مرَّ بمفرقي غزل لها عن شيبه بگرامه
فقال « بشعلة » ولم ينص على موضعها ، ومعلوم أنه أراد بياضا
في الناصية ،

وقال : « مر بمفرقي غزل » فأوضح أنه ذلك الموضع أراد .

وقال : « لها عن شيبه بگرامه » فأق بشيء يفوق كل حسن ؛ إلا أن
البياض في الناصية من عيوب الخيل ، وكذلك البياض في الذنب ؛ ليس بين
الناس في ذلك اختلاف (١) .

* * *

وقال في الفرس أيضا :

مسودّ شطر مثلها اسود الدجي مبيض شطر كابيضااض المهرق
شطر الشيء : جانبه وناحيته ، قال الله — عز وجل — : « فول
وجهك شطر المسجد الحرام » : أي ناحيته .

وقد يراد بالشطر : نصف الشيء ؛ يقال قد شاطرتك مالى : أي ناصفتك
فهذا هو الأكثر الأعم فيما يستعملونه ، وذلك من أقبح شيات الأبق على
ظاهر هذا المعنى ، ولم يرده أبو تمام ، وإنما أراد بالشطر ههنا : البعض أو
الجزء : أي مسود جزء مبيض جزء ، فجاء بالشطر لأنها لفظة أحسن من
الجزء ومن البعض في هذا الموضوع (٢) .

(١) الموازنة — ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق — ٢٢٥ .

وقال - يصف فرساً أيضاً - :

هاديه من جذع الأراك وما تحت الصلا منه صخرة جالس
الهادى : العنق ، والصلا : وسط الظهر ، والجلس : العظيمة .
أنكر عليه أبو العباس أحمد بن عبيد الله : أن يشبه عنق الفرس
بالجذع ، وأن يكون الجذع جذع أراك .
فتى كان للأراك جذوع ؟ لأن عيدان الأراك لا تغلظ حتى تصير
كالجذوع ، ولا تقاربها .

وقد سلم الآمدي بجواز تشبيه عنق الفرس بالجذع استدلالاً من كلام
العرب ، ووافق أبا العباس في إنكاره أن تكون عيدان الأراك جذوعاً^(١) .

* * *

وقال :

شهدت لقد أقوت مغائكم بعدى وحثت كما حثت وشائع من برد
حث : بليت .

جعل الوشائع : حواشى البرد أو شيئاً منها وليس الأمر كذلك ، إنما
الوشائع : غزل من اللحم ملفوف ، يحرقه الناسج بين طاقات السدى عند
النساجة ، قال ذو الرمة :

به ملعب من مُعصفات نسجه كنسج اليماني برده بالوشائع
فأما قول كثير عزة :

ديار عفت من عزة الصيف بعدما تُجد عليهن الوشيع المُممنما
إنما أراد بالوشيع هنا : ما تسد به الخصاصة بين الشيتين ، وهذه
وشائع الغزل .

والمنعم : مأخوذ من النّام ، وهو نبت طيب الريح (١) .

أى بعد ما كانت هذه الديار تجدد بالوشيع : أى ينهض جنابها .
ومثل أبى تمام لا يسوغ له الغلط فى مثل هذا لأنه حضرى ، وإنما
يسامح فى ذلك البدوى الذى يريد الشىء ولم يعاينه ، فيذكر غيره لقلة خبره
بالأشياء التى تكون بالأمصار .

وأما أبو تمام فليست هذه حاله ، بل ما جهل هذا ولكنه سامح نفسه
فيه ، ألا ترى إلى قوله فى موضع آخر - يصف قصيدة - :

الجِدُّ والهزل فى توشيع لمُتِّها

والنبيل والسُّخف والأشجان والطرب

فقال : فى توشيع لمُتِّها (٢) .

* * *

وقال :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت فى أنه بُرد
أنكر عليه أبو العباس أحمد ذلك ، وقال : هذا الذى أضحك الناس
منذ سمعوه إلى هذا الوقت .

ولم يزد على هذا شيئاً .

وقال الأمدى : والخطأ ظاهر ، لأنى ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية
والإسلام وصف الحلم بالركة وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل
ونحو ذلك (٣) .

وأورد على قوله أمثلة من كلام الشعراء .

(١) هذا رأى الأمدى ، وأرى أنها مأخوذة من النّمة ، وهى : الزخرفة والنقش .

(٢) الموازنة - ١٧ - ١٧١ .

(٣) المصدر السابق - ١٢٦ - ١١٧ .

ويرى الأستاذ الدكتور طه حسين : أن وصف الحلم بالبرقة في شعر أبي تمام وقع موقعه ؛ لأن الشاعر متأثر برقة العيش ولين الحياة في عصره ، فالحلم في العصر العباسي رقيق رقة هذا العصر ، بخلاف الحلم في العصر الجاهلي .
وأقول : إن وصف الحلم بالبرقة جاء في شعر الأعراب البداة أيضا .
يقول بعضهم في وصف إسماعيل بن صبيح الكاتب — وكان من أحسن الناس خطا — :

رقيق حواشي الحلم حين تبسوره يريك الهويني والامور تطير^(١)
تبوره : تحته به .

فليس بصحيح ما قاله الآمدي : من أن وصف أبي تمام للحلم بالبرقة لم يأت في جاهلية ولا إسلام !

وقد أنكر العسكري هذا الوصف على الأعرابي كما أنكره الآمدي على أبي تمام فقال : إنه ردى . لأن الحلم يوصف بالرجحان والرزانة لا بالبرقة .

وعقب على ذلك بقوله : لا ، بل أحسبني سمعت بيتا لبعض المحدثين يصف فيه الحلم بالبرقة ليس بالمختار^(٢) .

ثم قال : واستعمل أبو تمام هذا اللفظ فعيب عليه^(٣) .
فالامر كما ترى لا يعدو اختلاف وجهات النظر .

* * *

وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي :
كان بنى نهـان يوم وفاته نجوم سماء خـر من بينها البدر

(١) زهر الأدب ٢٠ — ١٠٩ .

(٢) الصناعتين — ١١٧ .

(٣) ديوان المعاني ٢ — ٧٧ .

وقد قال له أحمد بن عبيد بن ناصح : أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟

فقال أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم ، لأن قرم قد ذهب .
فقال : والله ماتكون الكواكب أحسن ماتكون ، إلا إذا لم يكن معها قر !

ألا قلت كما قال أبو يعقوب إسحاق بن حسان الخريبي :
بقية أقمار من العز لو خبت لظلت معدة في الدجى تتسكع
إذا قر منها تغوّر أو خبا بدا قر من جانب الأفق يلع
قال : فوجم وسكت (١) !

والحق أن هذه مغالطة صارخة ؛ فإن أبا تمام لم يرد وصف حالهم الحسية من إشراق وبهجة ورفعة حتى يقال : إن سناهم وسناهم يتضاعف إذا غاب القمر ، ولكنه وصف حالهم المعنوية ، فشبه فقيدهم بالقمر في سيادته الكواكب ، وشبههم بالكواكب بالنسبة إليه ، فكأنه قال : غاب قرم الذى هو موضع زهوم ، وواسطة عقدهم ، وبجلى زينتهم ، فأصبحوا بعده كواكب مجردة من غير قر ، وما حسن كواكب لا تحف بأقار ؟

ولا شك أن هذا معنى جميل مستقيم ، ولا يعيبه إلا جاهل أو متعصب !
وقد سبق أبو تمام بهذا المعنى في قول صفية الباهلية كما يقول العسكري : (٢)
أخنى على مالك ريبُ الزمان ولا يُمِيقُ الزمان على شيء ولا يذّر
كنا كأنجم ليل بيننا قر يجلو الدجى فهوى من بيننا القمر

* * *

وقال - يصف الصلة - :

(١) الموشح - ٣٠٧ .

(٢) ديوان المعاني - ١٧ .

حَلَّتْ محل البكر من مُعْطَى وقد زُفَّتْ من المعطى زِفَاف الأيِّم
فوضع الأيِّم مكان الثيب وليس الأمر كذلك ، فليس الأيِّم : الثيب
في كلام العرب ، إنما الأيِّم التي لا زوج لها بَكَرًا كانت أو ثيبًا ،
قال الله — عز وجل — : « وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ
وَأِمَائِكُمْ » .

وليس مراده — تعالى — نِكَاح الثيبات من النساء دون الأَبكار ،
وإنما يريد النساء اللاتي لا أزواج لهن .

وقد قال الشبَّاخ :

يُقِرُّ بعيني أن أحدثُ نَهْمًا وإن لم أنلها أيِّم لم تزَّوج
وليس يسره أن تكون ثيبًا .

وقد وقع البحتري في هذا الخطأ نفسه فقال :

تَشَقُّ عليه الريح كلَّ عَشِيَّة جِوِب الغمام بين بكر وأيِّم
وقد حكى أن بعض كبار الفقهاء وهو محمد إدريس الشافعي غلط
في ذلك ، والصحيح ما ذكرناه (١) .

* * *

وقال البحتري — يصف الفرس — :

ذَنبٌ كما تُسحب الرِّداء يذُبُّ عن عُرْفٍ وعُرْفٌ كالقناعِ المسبَّل
قال الأمدى : هذا خطأ في الوصف ، لأن ذنب الفرس إذا مس
الأرض كان عيبًا فكيف إذا سحبه ؟

وإنما الممدوح من الأذنان ما قرب من الأرض ولم يمسه (٢) .

(١) سر الفصاحة — ٧٣ .

(٢) الموازنة — ٣٤٨ .

وقد اعتذر له المرتضى بكلام طويل . زبدته : أن الشاعر لا يصح أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد ، لأنه مبنى على التجوز والتوسع والإشارات الخفية ، والإيحاء إلى المعاني ، وإلا بطل الشعر جميعه ، لأن المخاطب به يعرف أوضاعه ويفهم أغراضه ، لا الفلاسفة وأهل المنطق .

والبحتري لم يرد بقوله غير المبالغة في وصف الذنب بالطول والسبوع وأنه قد قارب أن ينسحب ، وكاد يمس الأرض ، ومن شأن العرب أن تجري على الشيء الوصف الذي كان قد يستحقه ، وقد قرب منه القرب الشديد ، وياتوا بالفاظ المبالغة صنعة وتأنقا ، لا لتحمل على ظواهرها تحديداً وتحقيقاً بل لتفهم منها الغاية المحموده ، والنهاية المستحسنة ، ويترك ما وراء ذلك ، فلا ننسکر على البحتري أن يريد أنه في غاية الطول الممدوح المحمود ؛ لا أنه ينجر في الأرض على الحقيقة (١) .

* * *

وقال البحتري أيضاً :

بدت صفرة في لونه إن حـمـدم من الدرما أصفرت نواحيه في العقد
وحرّت على الأيدي بحسنة جسمه كذلك موج البحر ملتهب الوجد
ولست ترى شوك الأراكه خائفاً سموم رياح القادحات من الزند
وصف في البيت الأول الدر بالصفرة ، وإنما يوصف بشدة البياض ،
وإذا أريد المبالغة في وصفه وصف بالنصوع ، ومن أعيب عيوبه الصفرة
وقالوا : كوكب درى لبياضه ، وإذا أصفر احتيل في إزالة صفرة
ليتوضاً .

وامتعمال الحواشي في الدر أيضاً خطأ ، ولو قال : نواحيه لكان
أجود ، والحاشية للبرد والنوب فإما حاشية الدر فغير معروفة .

وفي البيت الثاني وصف موج البحر بالالتهاب وهذا غلط ، لأن البحر
غير ملتهب الموج ولا متقد الماء ، ولو كان متقدداً أو ملتهباً لما أمكن ركوبه
وإنما أراد أن يعظم أمر الممدوح فجاء بما لا يعرف .
والخطأ في البيت الثالث : أنه شبه العليل بشوك القتاد ، لصلابته
على شدة العلة .

وزعم أن شوك القتاد لا يخاف النار التي تقدح الزناد ، وقد علمنا أن
النار تغلق الصخر وتلين الحديد ، فكيف يسلم منها شوك القتاد !
وليس لذكر السموم والرياح أيضاً فائدة^(١) .

* * *

وقال أبو المعتصم - يصف جرى الفرس -
كأنما أربعه إذا تناهين الثرى
ريح القبول والدبور روالشمال والصبأ
قال الأصمعي : والقبول والصبأ واحد .

وفي كتب اللغة : القبول كصبور : ريح الصبا ، لأنها تقابل الدبور
رياح الغرب ، أو لأنها تقابل باب السكبة ، أو لأن النفس تقبلها .
فجاء بتكرار لا فائدة فيه .

* * *

وقال المتنبي - يصف الحمى -
إذا ما فارقتنى غسّلتني كأننا عاكفان على حرام
وليس الحرام أخص بالاغتسال من الحلال^(٢) .

(١) الصناعتين - ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) البيضة - ١ - ١٤١ .

يعنى أن الحرام والحلال يغتسل منهما على السواء ، لأن الغسل من مطلق الجنابة ، بغض النظر عن الحل والحرمه .

• • •

وقال :

قالت وقد رأت اصفرأى من به وتنهدت فأجبتها المتنهد
فمضت وقد صبغ الحياء بياضها لوني كما صبغ اللجين المسجد
ذكر أن الحياء يصفّر اللون ، وهو لا يصفره بل يحمره ، وهو جمل
بطبائع الأشياء .

وقد اعتذر له الواحدى : بأن هذا الحياء كان مختلطاً بالخوف من
الفضيحة ، أو الخوف من أن يسمع الرقيب هذا الكلام ، فغلب الخوف
على الحياء فأكسبها صفرة^(١) .
ولا يخفى ما فى ذلك من التهاوت .

• • •

وقال السرى الرفاء :

قم يا غلام فهايتها فى كأسها كالجللنارة فى جنى نمرين
أو ما رأيت هلال شهر كقد بدا فى الأفق مثل شعيرة السكين
جعل الزجاج كأساً ، ولا يقال : كأس إلا إذا كانت مملوءة^(٢) .

• • •

وقال المعرى :

ولقد سلوت عن الشباب كما سلا غيرة ولكن للحزين تذكر

(١) العرف الطيب ١ — ٤١ .

(٢) ديوان المغانى ١ — ١٤٣ .

فيقال : كيف يجوز أن يسلو وهو حزين يتذكر .

ويقول ابن سنان الخفاجي : وقد قرأت عليه هذا البيت في جملة شعره .
ولم أسأل عنه .

والذي يحتمل عندي من التأويل : أنه أراد بالسلو ههنا اليأس ورفض
الطمع ، فكأنه قال : قد يئست من الطمع في الشباب يأس غيري ، ولكني
حزين أتذكر ، وهذا وجه قريب (١) .

* * *

ولا يخلو شعر العصريين من الأخطاء بالرغم من ثقافتهم الرفيعة ،
وما أمدتهم به العلوم من المعارف الوثيقة ، فمن ذلك على سبيل التمثيل قول
أميرهم « شوقي » يصف تصعيد الطائرات في الجو :

ذهبت تسمو فكانت أعقباً فنسورا فصقورا فخماما
بعضها في طلب البعض كما طارد النسور على الجو القطاما
وكان الترتيب الواقعي في البيت الأول أن يقول : فكانت نسورا
فأعقباً ، فصقورا ، فخماما .

لأن النسور أضخم من العقبان أجساما ، وإن كانت أقل منها قوة
وبطشا ، والعادة أن الطيارة تصغر حين تصعد في الجو شيئا فشيئا ؛ فمن
المعقول أن تبدو بادية ذى بدء في نظر العين نسرا ثم عقابا لا العكس ،
ولكنه هنا يقول : إنها بدأت صغيرة ثم صارت كبيرة وهذا محال .

وفي البيت الثاني : ذكر أن النسور يطارد القطام بالضم والفتح وهو
الصقر ، وذلك جهل فاضح بطبيعة كل منهما .

فالنسر من الطيور التي تأكل من صيدها، وتقع على الجيف
المطروحة كالحدأة .

والصقر من عتاق الطير وأحرارها كالعقاب والشاهين والباز ، وهي
بمثابة الأسود من الحيوان المفترس ، تصيد وتترك بقايا فرائسها للنسور
وغيرها من كلاب الطيور .

فالنسر لا يفكر في مطاردة الصقر ! وهو أعجز وأجبن وأضعف من
أن يطارده .

وكان يصح البيت لو قال :

بعضها في طلب البعض كما طارد الصقر على الجو الحماما

الفصل العاشر

أ - أدوات الكتابة ومعروف المهرجاء في التشبيه :

ب - تسمية أعضاء الجسم ١٧٧ :

هذه ألوان طريقة من التشبيه ، بل لعلها أطرف ألوان التشبيه جميعاً ، وبديهي أن هذه الضروب من صور التشبيه لا تروج إلا في العصور التي ترقى فيها الحضارة المادية ، وتنتشر الكتابة والثقافة حتى يمكن انتزاع هذه الصورة منها .

وحين نتصفح آثار الجاهليين والمخضرمين تطالعنا بعض هذه الألوان على قلة ، وفي إطار محدود ، تجري بها السنة شعراء بعضهم كان ملها بالكتابة أو خالط الحضرة ، وبعضهم كان أمياً بدوياً ولكن لم يعيه التشبيه اعتماداً على الرؤية .

يقول مرقش الأكبر :

الدار قمر والرسوم كما رقتش في ظهر الأديم قلم^(١)

وكان مرقش يكتب ؛ فقد دفعه أبوه هو وأخاه حرمة إلى نصراني من أهل الحيرة فعلمهما الخط^(٢) .

وقد عظم اتصاله بالحارث بن أبي شمر الغساني ؛ حتى روى أنه اشتغل كاتباً له^(٣) .

(١) الترقش: التزيين والتحصين أو الكتابة ، والأديم : الجلد .

(٢) معاهد التنصيص — ١ — ١٦٣ .

(٣) شعراء النصرانية — ١ — ٢٩٢ .

ويقول طرفة في وصف النافاة :

وخذ كقرطاس الشامي ومشفّر كسبت اليماني قدّه لم يُجرّد
السبت بالكسر : جلود البقر المدبوغه بالقرظ ، والتجريد : اضطراب
القطع وتفاوته .

شبه خدها في ملاصقه بقرطاس الرجل الشامي ، وشبه مشفرها في لينه
وامتقامة قطعه بسبت الرجل اليماني .

ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي :

ولابنة حطّان بن عوف منازل كما رّش العنوان في الرّق كاتب^(١)
ولم يكن طرفة ولا الأخنس يعرفان الكتابة .

ونجد ذلك أيضاً في قول ثعلبة بن عمرو :

لمن دمن كأنهن صحائف قفار خلا منها الكثيب فوا حف^(٢)
وقول الحارث بن حلّزة أليشكّرى :

لمن الديار عفّون بالحبس آياتها كهـارق الفرس^(٣)

وقول المرءار بن منقذ الحنظلي العدوي :

وترى منها رسوما قد عفّت مثل خط السلام في وحي الزُّبر^(٤)

وقول معاوية بن مالك :

من الأجزاء أسفل من مُنمّيل كما رجّعت بالقلم الكتابة^(٥)

(١) الرق بالكسر والفتح : جلد رقيق جداً ، أو الصحيفة البيضاء .

(٢) الكثيب وواحف : موزمان .

(٣) الحبس مثلث الحاء : موضع ، والمهارق : الصحف جمع مهرق بضم فكون ففتح .

(٤) الوحي : نقش الكتاب ، والزبر : الكتب جمع زبور .

(٥) الأجزاء : منقطعات الوديان جمع جزع بالكسر .

وقول عبد الله بن عَنَمَة الضبي :

فلم يبق إلا دمنة ومنازل كارد في خط الدواة مدادها

وقول حاتم الطائي :

أتعرف أطلالا وتؤيا مهدهما كخطك في رق كتابا منمنيا^(١)

وقول كعب بن زهير :

أتعرف رسامين دهمان والرقم إلى ذى مراھيط كما خط بالقلم

وفي العصر الأموي نعت لها على أمثال لا توصف بالكثرة في كلام بعض الأعراب والرهجاز والشعراء .

فن ذلك ما أنشده ابن سلام لأبي النجم العجلي الراجز ، يصف صديقا كان يسقية الشراب فينصرف من عنده ثملا :

أخرج من عند زياد كالحرف تخط رجلاى بخط مختلف^(٢)
كأما تكتبان لام الف

وقول ذى الرمة — يصف عين ناقته — :

كأما عينها شئها وقد ضمرت وضمها السير في الأضا، ميم^(٣)

يريد : كان عينها في هذه الحال ميم لتدويرها وغنورها .

ومن الغريب أنه أخذ على أبي النجم وذى الرمة أنهما يعرفان الكتابة ؛ قال الصولي : وقد عيب أبو النجم بهذا ف قيل : لولا أنه يكتب ما عرف صورة لام ألف وعناقها لها ، كما عيب ذو الرمة ف قيل : لولا أنه يكتب ما عرف الميم^(٤)

(١) النوى كقفل : الحاجز من التراب يقام لمنع السيل عن البيوت والتمنمة : الزخرف والنقش .

(٢) الحرف : ككتف : فاسد العقل .

(٣) الأضا : كقطا : الغدران جمع أضاة .

(٤) الموشع — ١٧٧ .

وذكر الأصمعي^(١) : أنه قيل لذي الرمة : من أين عرفت الميم ؟ لولا
صدق من نسبك إلى تعليم أولاد الأعراب في أكتاف الإبل !
فقال والله ما عرفت الميم إلا لأنني قدمت من البادية إلى الريف ، فرأيت
الصبيان وهم يحوزون بالفجرم^(٢) في الأوق^(٣) ، فوقفت حيالهم أنظر
إليهم ، فقال غلام من الغلبة قد أزقمت^(٤) هذه الأوقه فجعلتموها كالميم .
فقام غلام من الغلبة فوضع منجّمه^(٥) في الأوقه ؛ فنجنجه^(٦)
فأفهمها^(٧) .

فعليت أن الميم شيء ضيق فشبهت عين ناقتي به وقد اسلمهمست^(٨) وأعيت .
وحكوا : أن هشام بن عبد الملك قال لأعرابي : انظر كم على هذا
الميل من عدد الأميال ؟

ولم يكن الأعرابي يحسن القراءة فضى ينظر ، ثم عاد فقال : رأيت شيئاً
كرأس المحجن^(٩) متصلاً بحلقة صغيرة تتبعها ثلاث كأطباء^(١٠) السكبة ،
تُفضى إلى هنة^(١١) كأنها قطاة بلا منقار .
فقيم هشام بالصفة أنها خمسة^(١٢) .

(١) أمالي القالي - ٢ - ٦ .

(٢) الفجرم بكسر الفاء والراء : الجوز .

(٣) الأوق : الحفر وزنا ومعنى ، مفردا أوقه بالضم .

(٤) أزق بتشديد الزاي : ضيق .

(٥) المنجّم كمنبر : العقب والسكب .

(٦) نجنجه : حركه .

(٧) أفهمها : ملأها .

(٨) اسلمهم : تفر .

(٩) المحجن كمنبر ومكفسة : العصا المعوجة .

(١٠) الأطباء : حلقات الضرع جمع طبي بالكسر والضم .

(١١) الهنة : الشيء اليسير .

(١٢) ديوان المعاني - ٢ - ٧٢ .

وقد كانت مكتوبة بالخروف خمسة .

فرأس المحجن : الحاء ، والحلقة الصغيرة : الميم ، وأطباء الكلبة
الثلاث : أسنان السين ، والهنه : التاء المربوطة .

وهو من البراهين الناصعة على حدة ذكاء الأعراب .

ولما جاء العصر العباسي وعم الترف ولان جانب العيش ، وفشت القراءة
وانتشر العلم والثقافة ، كثر هذا اللون في آثار المحدثين قولاً وكتابة وشعراً .

فن ذلك قول أبي نواس — يصف البط — :

كأنما يصفرن من ملاعق صرصرة الأقلام في الممارق
وقوله في المنسر :

ومنسر أكلف فيه شغاً كأنه عقد ثمانينا (١)
ألبسه التطير من حوله وشياً على الجؤجؤ موضوعاً
له جراب فوق قفازه بجمع تأنيقاً وتسفيناً
كل سنان عيج عن مقته تحال محنى عطفه نونا
وقوله يهجو الرقاشيين :

رأيت الرقاشيين سوداً من الصلّى وقدز الرقاشيين بيضاء كالبدر (٢)
يبيّننها للبعثى بفنائهم ثلاث كخط التاء من نقط الخبر
إذا ما تنادوا للرحيل سعى بها أمامهم الحولى من ولد الذر (٣)
وقول ابن المعتز في قيام السقاة بين الندامى — وهو أجود ما قيل
في ذلك — :

(١) المنسر كجلس ومنبر : المنقار ، والشفا : زيادة المنقار الأعلى .

(٢) الصلى بفتح الصاد : النار .

(٣) الذر : صفار النمل ، والحولى : ما أتى عليه حول ، والمراد : الصغير جداً .

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه الكلام
وكان السقاة بين الندامى ألفات بين السطور قيام
شبه اصطفاة الشرب جلوساً بالسطور ، والسقاة بينهم بالآفات
فأحسن .

وقوله في وصف الحباب المؤلف من المزاج :

تكتب فيه أيدي المزاج لنا ميمات سطر بغير تعريق^(١)
لا شيء يُسلى همى سوى قدح تدعى عليه أوداج إبريق
ولعله مما ساعد على ذلك أن كثيراً من غلبان الموالي كانوا من كتاب
الدواوين ، وأن الجوارى الحسان على اختلاف عناصرهن كن يمارسن
الكتابة ، ويشاركن في الشؤون الثقافية بنصيب ملحوظ ، فكان ذلك من
منابع الإلهام الشعرى .

وإنك لو اجد أثر ذلك فيما يذكرونه^(٢) : من أن المأمون نظر إلى
جارية من جواريه اسمها ، مُنصف ، تخط خطأ حسناً ، وكان ذا شعف
بها فقال :

أراني منحت الود من ليس يعرف فما أنصفتني في المحبة « منصف » ،
وزادت لدينا حُظوة حين أطرقت وفي إصبعيها أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك ينال جسيمات المني وهو أعجف
وقوله :

كأنما قابل القرطاس إذ مشقت منها ثلاثة أقلام على قلم^(٣)

(١) التعريق : عدم في المبالغة في المزج .

(٢) ديوان المعاني — ٢ — ٨٤ — العقد الفريد ٢ — ٢٨٣ .

(٣) المشق : مد أحرف الكتابة .

يريد بالأقلام الثلاثة : أصابعها المحيطة بالقلم ، وهي المعنية بقول
أبي تمام في وصف القلم :

وقد رفدته الخنصران وسدّدت ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
ويقول القصّار في وصف جارية كاتبة ، اسمها دَعْلَم ، .

أفدى البنان وحسن الخط من علم إذا تَقَمَّعَ من بالحناء والكتَم^(١)
حتى إذا قابلت قرطاسها يدها ترى ثلاثه أقلام على قلم
وكتبت جارية لعلى بن الجهم في رقعة بعثت بها إليه^(٢) :

قلب يُمِلُّ على لسان ناطق ويد تُحِطُ رسالة من عاشق
مزج المدادَ بعبرة شهدت له من كل جارحة بقلب صادق
فيمينه تحت الوساد ، وخذّه ويساره فوق الفؤاد الخافق
فكتب إليها :

ما رقعة جاءتكَ مَثنَية كأنها خُدت على خد
نثر سوادٍ في بياض كما ذُرِّفت المسك في الورد
ساهمة الأسطر مصروقة عن جهة الهزل إلى الجِد
يا كاتِباً أسلني عَتْبُهُ إليه حسبي منك ما عندي

ويصف أحمد بن أبي صالح « ابن شيرازاد » جارية كاتبة فيقول^(٣) :
كان خطها أشكال صورتها ، وكان بيانها سحر مقلتها ، وكان سكينها
غُنْج^(٤) لحظها ، وكان مدادها سواد شعرها ، وكان قرطاسها أديم

(١) التقميع : تخضيب أطراف الأصابع ، والكتَم بفتح التاء : نبت يخلط بالحناء ويستعمل
خضاباً ، وإذا طبخ صار مداداً .

(٢) العقد الفريد - ٣ - ٢١ - ٤ - ٣٥٩ .

(٣) المدة - ٢ - ٢٥ - زهر الآدب - ٣ - ٩٣ .

(٤) الغنّج بالضم : اللال والقرل وقبل ملاحه العينين .

وجهما ، وكان قلبها بعض أناملها ، وكان مقطّها^(١) قلب عاشقها .
ويحكى عن بعضهم^(٢) : أنه دخل دار الديوان ، فنظر إلى غلام بيده قلم
كانه قضيب عقيان ، وعليه مكتوب :

وا بآي وا بآي من كف من يكتب بي

ويقول الصنوبري في كاتب جميل الصورة :

انظر إلى أثر المداد بخده كبنفسج الروض المشوب بورده
ما أخطأت نوناته من صدغه شيئا ولا ألفاته من قده^(٣)
ألفت أنامله على أقلامه شبا أراك فريدها كفرنده
وكانما أنقاسه من شمعه وكانما قرطاسه من خده^(٤)

ويقول أحمد بن يوسف : ما عبرات الغواني في خدودهن ، بأحسن من
عبرات الأقلام في خدود الكتّاب !

ويقول العسكري — يصف الصحيفة — :

بياض صحيفة تلتاح حسنا كمن السيف في كف المليلح^(٥)
كغيم رقّ في أطراف جو وماء ساح في قاع فسيح
ونحكي أرض كافور صريح بها نبت من المسك الذبيح^(٦)
كمثل الليل في صبح صديع ومثل الصّدغ في وجه صبيح^(٧)

(١) المقط بكسر الميم كما ضبطه الجوهري إلا أنه قال : وفيه مقطة .

(٢) العقد الفريد ٣ — ٢٧ .

(٣) شبه شعر الأصدغ المتلوية بالنونات .

(٤) الأنقاس : جمع نقس كمك وهو المداد .

(٥) تلتاح : تلوح ، والمليلح بضم الميم : المحاذر والمالوح بسيفه .

(٦) الذبيح : المفتوح .

(٧) الصديع : المشرق .

وبين سطورہ تجنم مصيب
ويقول في القلم والقرطاس :

يبدو لناظره بلون أصفر ومدامع سود وجسم مُنَحَل
فالدَّرج أبيض مثل خد واضح يثنيه أسود مثل طرف أكل^(٢)
ويقول منصور بن إسماعيل في الدواة :

وسوداء مقلتها مثلها وأجفانها من لجين صقيل
إذا ذرفت عبرة خلتها كغالية فوق خد أسيل

في هذه البيئة القارئة المثقفة ، أنفسح مجال جديد للشعراء يقاسون فيه
بين الأعضاء الجميلة ، والحروف المكتوبة ، وأدوات الكتابة ذاتها .

ولم يكتفوا بذلك فوصفوا الرسائل نفسها — في بهاء قراطيسها ، وصفاء
مدادها ، وملاحة خطوطها ؛ وجمال حروفها — وصفوا تشوبه نقحات ندية
عطرة من الغزل والنسيب ، حتى كأنها أجسام حية تروق وتروع بحسن
منظرها ودقة انسجامها ، ورقة بشرتها ، ولين مجسمتها !

وقد كثر ذلك بنوع خاص في العصر العباسي الثاني وما تلاه من عصور
وأوغل فيه الشعراء إغالا شديداً ، واتكثوا عليه في تشبيهاتهم الغزلية
وصور بيانهم كما سنفصله فيما يلي :

١ — الشطبة ، وهي الخط الذي يضرب به على الخطأ في الكلام .

ويشبه بها العذار كقول ابن عبد الظاهر :

بالصدغ أبدى شطبة من شكلها محوط
سألته عن أمرها فقال زاد اللفظ

(١) المعجم بفتح فسكون : النقط .

(٢) الدرج بفتح الدال وإسكان الراء وفتحها : ما يكتب فيه « الفرخ » .

قلت بدالى عارض مُشكّل منقط (١)
جئت شطبت فوقه وقلت هذا غلط

٢ — الهمزة :

وتشبه بها عطفة الصدغ كقول ابن حجة الحموى :
ألف القـد مدهالى بعزه وعليها من عطفة الصدغ همزه
وقول القاضى الفاضل — وهو من بداعة — :
فى خده فـخ لعطفة صدغه والحال حـبته وقلبي الطائر
٣ — الألف :

ويشبه بها القـد كقول الحموى المتقدم :
ألف القـد مدهالى بعزه
وقول النخبز أرزى :
أهيف يحكى بقـده الألفا يخسر من لم يكن به كلفا
أحسن من بهجة الخلافة والأمن م لمن قد يحاذر التلفا
لو أبصر الوجه منه منهزم يطلبه ألف فارس وقفا
وقول ابن الوردى :
قوامه أشبه شىء بالألف كمثلها تكتبه لا يختلف
وقول ابن الجبار :

رنت إلى بعين الظبي والتفتت بحمده وثنت من قدها ألفا
وقول ابن الدهان — يتحمر على ذهاب شبابه — :
وعهدى بالصبا زمنا وقدّى حكى ألف ابن مقلة ، فى الكتاب

(١) العارض : صفحة الحد . والمراد هنا : العذار .

فصرت الآن منحنياً كأنى أفتش في القراب على شباني
ويشبه بالآلف أيضاً العذار كقول ديك الجن الحمصى :
كان لاما أديرت فوق وجنته واختط كاتبها من تحتها ألفا
شبه شعر الأصداغ باللام ، والعذار بالآلف .
والشاهد في الشطر الثاني .
وقول المسكرى :

وكان دارة صدغه وعذاره ألف تقوّم تحت نون تعطف
شبه الآلف بالعذار ، والصدغ بالنون .
وقوله :

قدالتوى صدغه واختط عارضه كآه ألف من فوقها نون
٤ - اللام .

ويشبه بها شعر الأصداغ كما تقدم في قول ديك الجن .
كان لاما أديرت فوق وجنته
وقول بعضهم :

ذو حاجب ما إن رأيت كمنونه أبداً وصدغاً ما رأيت كلامه
والشاهد في الشطر الثاني .
وقول ابن الوردى :

قال من أهواه صف صدغى بما فيه توجيه وحبّه إلى
قلت إن الصدغ لام قد كوى نصّبها قلبي فهذى لام كى
والتورية في قوله : ، لام كى ، غير خافية .
ويشبه باللام كذلك العذار على كثرة - وهو الشعر النابت على
الحند - كقول الحمصرى :

يروح مُناجيه بهاروت لحظه
 ترى فيه لاما فردة فوق خده
 و قول ابن بُبانة :
 لاما العذار أطالت فيك تسهيدى
 كأنها لغرامى لاما توكيد
 و قول ابن رشيق :
 خطء العذار لها لاما بصفحته
 من أجلها يستغيث الناس باللام
 و قول الشاب الظريف :
 بأبى أفدى حبيبا
 تيم القلب غراما
 عذر العاذل فيه
 مذرأى العارض لاما
 وفى قوله : لاما ، تورية .
 و قول سعيد الدين بن عربى :
 لما تبدى عارضالى فى نمط
 و قيل نمل فوق عاج قد سقط
 و قال ابن وهبون الأندلسى :
 وكان للحسن سر فيه مكتم
 وشى به ناظرى من طول ما بحثنا
 لاما يدل على بلبال مبصره
 مازال يبعث وجدى كلما انبعثنا
 و قول ابن عيشون الأندلسى :
 و سنان ما إن يزال عارضه
 يعطف قلبى بعطفه اللام
 و قول ابن الجباز :
 ولى كاتب أضمرت فى القلب حبه
 مخافة حسادى عليه و عدالى
 له صنعة فى خط لاما عذاره
 ولكن سها إذ نقط اللام بالخال

وقول بدر الدين الدماميني :

لأما عذاريك هما أوقعا قلب المحب الصب في الحنين (١)
فجد له بالوصل واسمح به ففبك قد هام بلامين
وفي «لامين» تورية .

وقول بن حجلة المغربي :

ومستتر من سنا وجهه بشمس لها ذلك الصدغ في (٢)
كوى القلب مني بلام العذار فعرفني أنها لام كي
وفي «لام كي» تورية .

وقد خالف الشاعر أبو غالب هذا النهج المسلوك فقدم العذار ، محتجاً
لذلك بأنه يشبه اللام فقال :

صا صنع في ذم العذار بدائعاً فمن شاء فليقض الدليل كما أفضى
ألا إنه كاللام واللام شأنها إذا التصقت باللام صار إلى الخفض
هـ - الميم والالف .

وقع التشبيه بهما في شعر أبي تمام فقال : (٣)

يرمى الكسبية بالكتاب إليهم ويرون أحرفه الخمس كفاحاً (٤)
من نفسه دُهما ومن مياته زرداً ومن ألفاته أرماحاً
النفس : الخبر ، وأراد بدم النفس : الخيول السود .

وقد فسرهما المرحوم الأستاذ محمود مصطفى بالقيود وهو جائز ،
ولكن تفسيرها بالخيول هنا أنسب ، لأنه يصف عتاد جيش والخيول من

(١) الحين كين : الهلاك .

(٢) النى : النى . وهو ما كان شمسا فيفسخه الظل .

(٣) هبة الأيام — ٣٦ .

(٤) الخميس : الجيش لأنه خمسة أقسام : الطليعة والساقة والميمنة والميسرة — وما
المجنبتان — والقلب .

أهم معداته ، ويؤكد ذلك ذكره الزرد والرماح .
والعلاقة بين الميمات ، وحلقات الدروع ، وبين الألفات ، والرماح ظاهرة .
٦ - الواو .

وهي من أكثر الحروف دورانا في شعر الغزل .
والسر في ذلك أن الحسان في العهود القديمة كن يلوين ذوائبهن
المسترسلة على الخدود بشكل الواو ، ففتن الشعراء بهذه الصورة الأنيقة
وأغرموا بوصفها .

وقد أشار أبو نواس إلى هذا الصنع بقوله :
ألوى بصبري أصداع لوين له وغلّ صدرى ماتحوى غلائله
ومن ذلك قول محاسن الشواء :
أرسل فرعا ولوى هاجرى صدغا فأعيا بهما واصفه
خلت هذا حبة خلفه تسعى وهذا عقربا واقفه
ذا ألف ليست لوصل وذا واو ولكن ليست العاطفه
وقول العباسي :

تطمعني في الوصل أصداعه حين تريني أحرف العطف
وهو ينظر إلى قول البهاء زهير - وفيه من الرشاقة واللفظ
مافيه - :

عسى عطفة للوصل ياواو صدغه على فاني أعهد الواو تعطف
وقول أمين الدولة التلمساني :
نصبت على التميز إنسان مقلتي أشاهد قدأ منه نصبا على الظرف
أخشى فراقا بعدها وقساوة وقد جاءوا والصدغ للجمع والعطف
وقول برهان الدولة القيراطي :

ووردى خدى نرجسى لوا حظ مشايخ علم السحر عن لحظه رورا
و واوات صدغيه حكين عقاربا من المسك فوق الجملنار قدالتووا
ومن النثر قول ابن حبيب الحلبي^(١) : وصدغ معقرب ، لكنه لرؤية
السليم^(٢) باب مجرب ، بعيد من القطف ، كأنه واو العطف ، أو جيم بحكمة
العروج ، أو منجل صيغ من سبيج^(٣) .

وباقى ذكر لواوات الأصداغ في البلاغة لدى التكلم على مواضع وصل
الجملة ، وهو عطف بعضها على بعض بالواو أو إحدى أخواتها .

فمن ذلك أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع ، بأن تكون إحداها
خبرية والآخرى إنشائية ، فإن هذا من مواضع الفصل وهو ترك
العطف ، ولكن ترك العطف يوم خلاف المراد في مثل قولك : لا ،
وشفاك الله ! لمن قال لك : إنه مريض .

فإن القصد الدعاء للبخاطب ، ولكنه لو ترك الوصل بعدم العطف
لأوهم أنه دعاء عليه لاله ، فوصل بين الجملتين بالواو العاطفة لرفع التوهم ،
مع أن الأصل في ذلك الفصل لا الوصل .

ويسوق البلغاء في ذلك مثالا طريفا يعد غاية في أدب النفس والدرس
والأنس^(٤) وسلامة الذوق ؛ وهو أن المأمون^(٥) قال يوما ليجي بن أكنم :
هل تغديت اليوم ؟

فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين !

فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها !

(١) نسيم الصبا — ٤١ .

(٢) السليم : الملسوع .

(٣) السبيج كسبب : الخرز الأسود .

(٤) يقسم الأدب إلى هذه الأقسام الثلاثة .

(٥) في زهر الربيع للأستاذ الحلاوى : أنه الرشيد — ٢٢ — ٦٨ .

وذلك أنه لو قال : لا ، أيد الله أمير المؤمنين ! لكان أشبه بالدعاء عليه لا له .

ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاضرة بين « لا ، و » أيد الله أمير المؤمنين ، حذراً من وقوع الشبهة ^(١) .

وفي رواية : أن المأمون سأل البيهقي عن شيء فقال : لا ، وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين !

فقال : لله درك ! ما وضعت هذه الواو قط في موضع أحسن من موضعها في لفظك هذا !

ووصله وحمله ^(٢) .

وكان الصاحب بن عباد يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في حدود الملاح !

وكان الثعالبي يسمى مثل هذا : حشو اللوزينج !
والحق : أن الإشادة بقيمة هذه الواو والحث على استعمالها في مثل هذه المقامات ، يرجع إلى عهد بعيد ؛ فأول من نبه على ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق — رضي الله عنه —

فقد روي : أنه مر به رجل معه ثوب فقال له : أتبيعه ؟

فقال الرجل : لا ، رحمك الله !

وفي رواية : لا ، عافاك الله !

فقال الصديق : قد قومت ألسنتكم لو تستقيمون ^(٣) ! ألا قلت : لا ، ورحمك الله ^(٤) !

(١) ثمار القلوب — ٤٨٩ .

(٢) وفيات الأعيان — ٢ — ٣٠٤ .

(٣) في المستطرف ١ — ٤١ : لو تستقيمون لقومت ألسنتكم .

(٤) ثمار القلوب — ٤٨٩ .

وفي الرواية الأخرى : قل : لا ، وعافاك الله (١) .
ومما يتصل بالواو : أن القدماء كانوا يطلقون على ما بعد العشرين من
الشهر « الواوات » .

وكان أهل بغداد يقولون لرمضان بعد العشرين : وقع في الاثنين
وبعضهم يقول : وقع في الواوات .
وفي ذلك يقول ابن المعز :

قد قرب الله منه كل ما شئنا كأنني بهلال الفطر قد لمعا
نخذ لشهرك قبل العيد أعبته فإن شهرك في الواوات قدوقعا
٧ - واو عمرو .

يضرب بها المثل لما لا يحتاج إليه .

وأول من ضرب بها المثل أبو نواس حيث قال لأشجع السكلي :
أيها المدعي سُلَيْمًا سَفَاهَا لست منها ولا قلامة ظفر (٢)
إنما أنت من سليم كواو ألحقت في الهجاء ظلما بعمرو
وفي بعض الروايات :

إنما أنت ملهصق مثل واو ألصقت في الهجاء ظلما بعمرو
وتبعه الشعراء في ذلك فقال ابن بسام :

ياطلوع الرقيب ما بين ألف يا غريماً أتى على ميعاد
يا ركوداً في يوم صيف وغيم يا وجوه التجار يوم الكساد
خلّ عنا فإنما أنت فينا واو عمرو أو كالحديث المعاد
وأحسن ما سمع في ذلك قول أبي سعيد الرستمي للصاحب بن عباد :

(١) البيان والتبيين — ١ — ٢٩٦ .

(٢) يريد قبيلة سليم .

أفى الحق أن يعطى ثلاثون شاعراً ويحرم مادون الرضا شاعر مثلى^(١)
كما ألحقت واو بعمر و زيادة وضويق . بسم الله ، فى ألف الوصل
وقد جاءت فى وصف شوقى من قصيدة يصف بها البسفور :

فيا من يطلب المرأى البديعا ويعشقه شهيداً أو سميعا
رأيت محاسن الدنيا جميعا فهن الواو والبسفور عمرو
ومثل واو عمرو فى التمثيل بالزيادة التى لا يحتاج إليها : بغلة الشطرنج .
٨ — النون .

ويشبه بها شعر الأصدغ كقول ابن المعتز :
غلالة خده ورد جنى ونون الصدغ منقوط بخال
وقوله :

له طرة كجناح الغداف تلوح على غرة مقميره^(٢)
وفى عطفة الصدغ خال له كما استلب الصولجان السكره
والصولجان معقوف كالنون .
وقول العسكري :

لا والذى دار من صدغيك وانعطفاً وصار نونا إذا صيرته ألفا
وقوله :

إذا التوى الصدغ فوق وجنته رأيت تفاحه بها عضه
وأثر العضة مقوس كالنون .

وقول نصر المروى فى تفاحة معضوثة :

(١) هكذا ورد فى ثمار القلوب — ١٢٠ ، وفى طراز المجالس للخفاجى — ١٤٢ :
من الناس من يعطى المزيد من الغنى .
(٢) الطرة : شعر النامية ، والغداف : الغراب .

تفاحة قد عضها قر عداً ومسك موضع العضه
 فكأنما نونان قد كُتبا بالمسك في كرة من الفضة
 شبه في البيت الثاني أثر الأسنان العليا والسفلى بنونين بجامع التقويس .
 وقول شيخ الشيوخ الحموى :
 قلت وقد عقرب صدغا له عن مشقة الحاجب لم يُحجب
 قدّست يارب الجمال الذي ألف بين النون والعقرب
 وقوله أيضاً :

وبدردجى لم يفتقل كسميه ولكنّه مازال في القلب والطرف
 يلوح لعيني ماشقاً نون صدغه فأعبد خلاقي على ذلك الحرف
 وفي الحرف تورية لطيفة .
 أخذهما ابن الوردي بقافيتيهما وغالب ألفاظهما فقال :
 يابدر تيمّ نوره باهر منزله في القلب والطرف
 صدغك حرف النون في مشقه من يعبد الله على حرف ا
 ولعمري إنها سرقة فاحشة كما يقول الحموى (١) .

وقول ابن جابر الأندلسي :
 سلب القلب غزال قدّه قد حكي الباب لنا والعلى
 نون صدغيه إذا أبصرها كاتب ألقى إليه القلبا
 ويشبه بالنون الحاجب أيضاً ، وهو تشبيه فاش كثير كقول ابن حجلة
 المغربي :

يرنو إلى بعين نون حاجبها كالقوس تُعصى الرمايا وهي مرنان

والشطر الثاني مأخوذ من قول ابن الرومي :

تصمى المحب وتُلقى الدهر شاكية كالقوس تصمى الرمايا وهي مرنان

وقول ابن نباتة :

أغمزه بناظر ولم أفه بكلمه

يجبني بحاجب لكن بنون العظمه

وسرقه الصفدي فقال : (١)

إن قلت زرتي قال لا بحاجب ما أظلمه

فما ترى جوابه إلا بنون العظمه

ونون العظمه : هي نون المضارع التي للتكلم مع الغير ، لأنه يتكلم بها
المعظم نفسه .

وقول آخر :

لها حاجبان الحسنُ والسُّخنجُ فيهما كأنهما نونان من خط ماشق

وقول أمين الدولة التلمساني :

أضيف الدجى معنى إلى لون شعره فطال ولولا ذاك ماخص بالجر

وحاجبه نون الوقاية ماوقت على شرطها فعل الجفون من الكسر

٩ - الحرف المشدد .

ويشبه به المتعانتان كمقول ابن منناه الملك :

وليلة بقنا بعد مكبرى وسكره نبذت وسادى ثم وسدت يدي

وبقنا كجسم واحد من عناقنا وإلا كحرف في الكلام مشدد

وقد اعترض عليه : بأن العروضيين يعدون الحرف المشدد بحرفين ،

ولو قال : كحرف في النظام لسلم من النقد ؛ لأن الحرف المشدد في الخط

يعتبر حرفاً واحداً ووزن البيت لا يختل به (١).

١٠ - لا .

وتستعمل في القلة كقولهم : فلم يكن إلا كلا ولا حتى حدث كذا .
وكقول أبي نواس :

يا عاقر القلب منى هلا تذكرت خلاً

تركت منى قليلاً من القليل أقل

يكاد لا يتجزأ أقل في اللفظ من لا

وقد تستعمل مهموزة أو غير مهموزة في العناق كقول أبي جعفر
الإلبيري :

لقوامه الألف التي جاءت بحسن ما ألف (٢)

عانقته فكانني لام معانقة ألف

وقول بعضهم - يخاطب المحبوب - :

إذا اجتمعت لامي مع الألف التي حكيتك قواماً ما يصير فقال لا
وقول نور الدين أبي الحسن المايرقي :

وذى هيف راق العيون انثناؤه بقدر كريان من البان مورك

كتبت إليه هل تجود بزورة فوقّس «لا» خوف الرقيب المصدق

فأيقنت من «لا» بالعناق تفاؤلاً كما اعتنقت «لا» ثم لم تتفرق

ويقول المتقري (٣) : وهذا أحسن من قول ذي القرنين بن حمدان :

إني لأحسد «لا» في أحرف الصحف إذا رأيت اعتناق اللام والألف

(١) تزيين الأسواق - ١١٧ - ديوان الصباية - ١٧٣ .

(٢) ما ألف : ما عهد من قبل .

(٣) فتح الطيب - ٢ - ٢٩ .

وما أظهمها طال اعتناقهما إلا لما لقيا من لوعة الأسف
وفي رواية :

إلا لما لقيا من شدة الشغف (١)

وهو عندي أفضل ، لأنه ليس من الضروري أن يعتنق الأسيفان ،
ولكن فرط الشغف يحمل على ذلك دائما .

وهو كذلك أحسن من قول القيسراني :

أستشعر اليأس منها ثم تطمئني إشارة في اعتناق اللام والالف
ومن قول الحموي :

بالحب صيرت لاما قمتي أترى يوما تعانق من أعطافك الالف
لأن التكلف فيهما ظاهر .

وأشهر ما قيل في هذا المعنى قول أبي بكر بن خازن :

إني رأيتك في نومي تعانقني كما تعانق لام الكاتب الالف

وقد قالوا : إنه من المقلوب ، لأن الالف هي التي تعانق اللام .

ويجوز أن يحتج له بأن يقال : الالف لا تعانق اللام إلا واللام

معانقة لها (٢)

١١ - الشككتان .

وتأتیان فی وصف نحوول العاشقين مع المعانقة كقول أبي الحسين

التونسي :

ثم اعتنقنا فترانا معا في ظلمة الليل ونور العتاب

جسمين صارا في الهوى واحدا كشككتين اختلطا في كتاب

(١) ثمرات الأوراق - - ٢٧٤ .

(٢) ديوان المعاني - ١ - ٣٤٣ .

وقول آخر :

سقىا لعيش مضى والدهر يجمعنا ونحن نحكى عنقا شكل تنوين

وقول المتنبي :

كم وقفة سحرتك شوقاً بعد ما غرى الرقيب بنا ولج العاذل^(١)

دون التعاق ناهلين كشكلى نصيب أدقهما وضم الشاكل^(٢)

يقول : مع الشوق العارم الذى نحن فيه لم نقدر على المعانقة خشية الرقيب والعاذل ، ولكننا وقفنا فقط متقاربين ، فكنا من شدة نحولنا في هذه الحال كأننا شكلتنا نصب في دقتهما وتقاربهما .

وهو من مبالغات المتنبي المذمومة .

والفرق بين قول المتنبي وقول من قال :

كما تعانق لام الكاتب الألفا

أن الثانى قد أدى إليك شكلا مخصوصاً ، لا يتصور فى كل واحد من المذكورين ، على الانفراد بوجه وصورة لا تكون مع التفريق .

وأما المتنبي فأراك الشيتين فى مكان واحد وشد فى الفرق بينهما ، وذلك أنه لم يعرض لهيئة العناق ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة فى فرط النحول ، واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقاً ، والأول لم يعن بحديث الدقة والنحول ، وإنما عنى بأمر الهيئة التى تحصل فى العناق خاصة : من انعطاف أحد الشكين على صاحبه ، والتفاف الحبيب بمحبه كما قال الآخر :

لف الصبأ بقضيب قضيبا

وأجاد وأصاب الشبه أحسن إصابة ، لأن خطى اللام والألف فى

(١) سحرتك : ملائك أو ألهبتك ، وبرى : شجرتك : بمعنى حبستك عن الكلام ،

وبرى سحرتك .

(٢) الشاكل : الذى يرسم شكل الكتاب ، وهو قاعل أدق أو ضم على التنازع .

« لا ، ترى رأسيهما في جهتين ، وتراهما قد تماسا من الوسط ، وهذه هي حال المعتنقين على الأمر المعروف ، فأما قصد المتنبي فليس بصفة عناق على الحقيقة وإنما هو تضام وتلاصق ، وهو بنحو قوله :

ضممته ضمة عدنا بها أحدا فلو رأتنا عيون ما خشيناها
وذهب القاضي الجرجاني في بيت المتنبي : إلى أنه كأنه معنى مفرد غير مأخوذ من قوله :

كما تعانق لام الكاتب الألفا

ثم يقول : ولئن كان أخفاه كما يقولون فليس عليه من عتب ، لأن التعب في نقله ليس بأقل من التعب في ابتدائه .

ويقول عبد القاهر : ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول ، فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب مشكين ، ولكن من جهة أخرى وهي الإعراق في الوصف بالنحول ، وجمع ذلك للخلتين معا ، ثم إصابة مثال له ونظير من الخط فاعرف ذلك^(١) .

١٢ - بقيت حروف أخرى يقع بها تشبيه الأعضاء على قلة ، وهي :

(١) عطفة الرء ، ويشبه بها الشارب .

(٢) السين ، وتشبه بها الثنايا ، والطرة .

(٣) الشين ، وتشبه بها الطرة المضفورة .

(٤) الصاد ، وتشبه بها العين ، والقم .

(٥) العين ، وتشبه بها العين ، والصدغ .

(٦) الميم ، ويشبه بها القم .

(٧) النقطة ، ويشبه بها الخال .

وما تقدم من هذه التشبيهات تظهر في بعضه المناسبة واضحة معقولة :

(١) أسرار البلاغة — ١٦٣ — ١٦٤ .

كتشيبه الحاجب بالنون : والدين بالعين : واثقم بالميم : والقـد بالالف :
والصدغ بالواو : والخال بالنقطة : والثنايا بالسـين .

وبعضها لا نكاد نـتـبين وجه الشبه فيه : كتشيبه العين بالصاد : والطرة
المضفورة بالشين مثلاً .

وفيما يلي أمثلة عامة تنتظم هذه التشبيـهات الأخيرة وما سبقها : وبعضها
يحتوى على ضربين أو أكثر .

قال ابن عبد ربه :

وأزهر كالعيوق من كف زهراء لنا منها داء وبرء من الداء^(١)
ألا بأى صدغ حكى العين عطفه وشارب مسك قد حكى عطفه الراء
فما السحر ما يعزى إلى أرض بابل ولكن فتور العين من طرف حوراء
وكف أدارت مذهب اللون أصفرا بمذهبة فى راحة الكعب صفراء
وقال أبو جعفر الإلبيرى على لسان محبوب يعتذر عن ترك السلام :

لا تعتبئ على ترك السلام فقد جاءتك أحرفه خطا بلا قلم
فالسـين من طرقتى واللام مع ألف من عارضى وتلك الميم ميم فى
وقال بدر الدين بن لؤلؤ :

لك مبسم عذب اللى يفتـر عن برّد وسلسال الرضاب مرادى
وفم يحاكى الميم إلا أنه كم حوله عين تحوم كصاد
وقال ابن مطروح :

قالت لنا ألف العذار بخده فى ميم مبسمه شفاء الصادى
وقال آخر :

يا سين طرتها وصاد عيونها إني أعوذها بسورة طه

(١) الأزمـر : يريد به الكأس ، والعيوق : نجم أحمر مضى فى طرف المجرة .

وقال ابن نُباتة من أرجوزة :

لأحرف الحسن على خديه خطٌ وإن رأيت قدّه العالى فصِف
والعارض النوفى ما أنصفتّه وإما له من حرف نون قد عُرِف
بأتى بنقط الخال فى الإعجام وقال ابن نقادة :

صنم الجمال فصادّه من عينها والنون حاجبها بخال يُنْقَط
والميم فوها فالخروف تألّفت مكتوبة والصبر عنها يُكشَط
وقال ذو الوزارتين ابن الحكيم الرُّندى فى غرض كلفه سلطانُه
القول فيه (١) :

ألا واصل مواصلة العذار ودع عنك التخلُّق بالوقار
فضيب مائس من فوق دِعْص تعمّم بالدجى فوق النهار
ولاح بخده ألف ولام فصار معرّفاً بين الدرارى (٢)
رمانى قاسم والسين صاد بأشفار تنوب عن الشّفار (٣)
وقد قُسمت محاسن وجنتيه على ضدين من ماء ونار
فذاك الماء من دمعى عليه وتلك النار من فرط استعارى
ألِفَت الحب حتى صار طبعا فما أحتاج فيه إلى ادّكار

(١) نفع الطيب — ٣ س ٥ — ٩ .

(٢) يعنى بالألف واللام : العذار .

(٣) الأشفار : الأهداب جمع شفر بالضم والفتح .

فألى عن مذاهبيه ذهاب وفي هذاك أشعارى شعارى

وقال شمس الدين الضرير الأندلسى :

قد حقق الحسن نون حاجبه وخطّ في الصدغ وأوريمان

ومدّ من حسن قدّه ألفاً أوقف عيني وقوف حيران

وقال أيضاً :

ألف ابن مقلة في الكتاب كقدّه والنون مثل الصدغ في التحسين

والعين مثل العين لكن هذه شككت بحسن وقاحة ومجون

وعلى الجبين لشعره سين بدت حار ابن مقلة عند تلك السين

قل للذى قد خط تحت الصدغ من خيلانه نُقَطاً جلب فتون^(١)

يا للرجال وبأهلها من فتنة في وضع ذاك النقط تحت النون

وقد أخذ عليه قوله :

شككت بحسن وقاحة ومجون

فإن الوقاحة لا يصح وصفها بالحسن مهما بلغ صاحبها من الجمال ،
ولو قال : خلاعة ومجون لحف نصيبه من الملام .

وقال بعضهم :

كأن عذاره في الخد لام ومبسمه الشهي العذب صاد

وطرة شعره ليل بهيم فلا عجب إذا سرق الرقاد

وقد ولد الشاعر من تشبيه العذار باللام ، وتشبيه القم بالصاد : لفظة

« لص » ، وولد من معناهما ، ومن معنى تشبيه الطرة بالليل : ذكر سرقة النوم ، وهذا أغرب توليد سمع^(٢) .

(١) الخيلان بالكسر : جمع خال .

(٢) معاهد التنصيص — ٢ — ٧٧ .

وقول بعض الوعاظ - وقد رواه لسان الدين بن الخطيب^(١) - وهو من البدائع :

عانت لأمّ صدغها صادٌ لثمي فأرتها المرأة في الخد لصا^(٢)
فاستراحت لما رأت ثم قالت أكتاباً أرى ولم أر شخصاً^(٣)
قلت بالكشط يمحق قالت اكشطت بالشايا وتابع الكشط مصاً
ثم لما ذهبت أكشطت قالت كان لصاً فصار والله فصاً
قلت إن الفصوص تُطَبِّعُ باللثم م على خد كل من كان رخماً^(٤)
وقول شهاب الدين الخيمي :

إن صدغ الحبيب والفم والعاهي وصل بين المحاسن لما
رض منه ، واو ، وصاد ، ولام^(٥) تم حسناً وبالغذار التمام
فيه يُقضى افتراقنا والسلام غير أني أراه وصل وداع
وقول ابن حجلة المغربي :

حبيب تغالى قدّه حين سُمتِه وخطّ عذارى اعجم الخالٍ لأمّه
وقال قوامي رحمه ما يُقوّم ولم أدر أن اللام في الخط يُعجم
وقول ابن سناء الملك :

له فم يمنعه ضيقه أن يُخرج اللفظ بتقويم
ولفظه سكران من ريقه فهو لهذا غير مفهوم
ما فيه ميم ولكنه علامة الجزم على الميم

(١) نفح الطيب - ٣ - ٣٦٤ .

(٢) يريد باللام شعر الصدغ ، وبصاد اللثم : الفم .

(٣) الكتاب : الكتابة .

(٤) الرخس : الطرى الغض .

(٥) الواو للصدغ ، والصاد للفم ، والعارض - وهو الغدار - اللام .

ومن أجمع ما قيل في ذلك قصيدة طويلة لعلاء الدين الشاهيني :

كتب الجمال على صحيفة خده بيراع معناه البهيج ومثلا
فبدا بنون حاجبيه معرفا من فوق صادى مقلتيه وأقلا
ثم استمد قد أسفل صدغه ألفاً ألفت بها العذاب الأطولا
فأعجب له إذ هم ينقط نقطة من فوق حاجبه فجاءت أسفلا
فتحققت في حاء حمرة خده خلا فعم هواه قلبي المبتلى
قسما بفاء فتور جيم جفونه لأخالفن على هواه العذلا
وقد عد داود الأنطاكي هذه القصيدة من أبدع ما رأى (١).

والحق أنها متكلفة غارقة في التصفيع ، وقد تراكت فيها الحلى
والبهارج ، كما كثرت إلى الإضافات في قوله : حاء حمرة خده ، ودفور
جيم جفونه ، فزادتها ثقلا .

وإن كان فيها شيء طريف ، فهو محاولة الشاعر أن يرسم صورة تسودها
الوحدة والانسجام لوجه جميل قسيم وسيم ، تأنقت الطبيعة في إبداعه فجاء
تحفة من التحف !

وحسن منه أن يذكر : أن الجمال أراد أن ينقط نون الحاجب ، لأن
من حق النون أن تكون لها نقطة ، ولكن النقطة وقعت على الخد
فاستحالت خلا !

فهذا تعليل دقيق جميل لوجود الخال على الخد ، وإن شئت فقل
مغالطة رائعة ؟

ولا شك أن هذه التشبيهات تتفاوت تفاوتاً كبيراً ، بمقدار حظ قائلها
من القدرة على النظم ، ومبلغ نصيبهم من مواتاة الطبع وتوهج الخيال ،
ولكن قيمتها في دلالاتها على مبلغ ثقافة الشعراء العلمية وفطنتهم إلى

خصائص الحروف في استعمالها ، واستخدام صورها في البيان ، وتطويع الشعر لذلك .

وقد وقع هذا النوع من التشبيه أيضاً في الرسائل الإخوانية كثيراً ، ولا يقل طرافة عن سابقه .

فمن النثر : ما جاء في تضاعيف رسالة بعث بها القاضي الفاضل إلى موفق الدين خالد القيرواني — وقد وقف له على رسالة كتبها بالذهب — ...
فن ألفاتها ألّفت الهمزات غصونها حمائم ، ومن لامات بعدها يحسدها
المحب على عناق قدردها النواعم ، ومن صادات نفعَت غيلة القلوب
الصوادى ، والعيون الحوائم ، ومن واوات ذكرت ما فى واوات الأصداغ
من العطافات ، ومن ميات ذنت الأفواه من ثغرها لتناول جنى الرشفات ،
ومن سينات كأنها الثنايا فى تلك الثغور ، ومن دالات دلّت على الطاعة
لسكاتها بإحناء الظهور ، ومن جيمات كالمنامر^(١) تصيد القلوب التى تخفق
لروعات الاستحسان كالطيور ، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ،
ود خالد ، فيها خالد ، وتحيته المحامد ، ويده تضرب فى ذهب ذائب ،
والناس تضرب فى حديد بارد^(٢) .

وقد جمعت هذه الرسالة خصائص القاضي الفاضل فى كتابته ، وكتابة
عصره ، كما جمعت معظم التشبيهات الماثورة فى الحروف ، وتشبيه الهمزات
بالحمائم تشبيه جيد صائب ، فالمشابهة بينهما على طرافتها وغرابتها ودقة
التفطن إليها ، يشهد البصر بتمام المطابقة فيها ، فهو من التشبيه المنظور
القريب البعيد .

وما جاء من الشعر فى وصف كتاب قول المقرئ :

رأينا به روضاً تدبّج وشيه إذا جاد من تلك الأيادى غمام

(١) المنامر : المناقير جمع مفسر بالفتح والكسر .

(٢) ديوان الصباية — ٤٢ — ٤٣ .

به ألفات كالنصرون وقد علا عليها من الهدى المطلِّ حاتم
وقوله أيضاً في وصف كتاب - وقد وقع فيه النظم خلال كلام
ثرى - :

ولم تر عيناى من قبله كتابا حوى بعض ما قد حوى
كان المباسم مياته ولاماته الصدى لما التوى
وأعينه كعيون الحسان تغازلنا عند ذكرى الهوى
كتاب ذكرت بالفاظه عهود أزكت بالحنى واللوى
ويلاحظ أن التشبيهات قد وقعت مقلوبة بخلاف ما مر منها ، كما
يلاحظ أن الشعر بعيد عن التكافؤ ، رقيق النسيج ، سلس الحاشية .
وقول ابن حجلة المغربي في تقرير قصيدة مدح بها السلطان الناصر
حسن :

فكم ألف بها أمسى رشيق القامة النَّضْرَه
وكم شين بحاشية الكتاب م تخالها طوره
وعين أصبحت في العين م مثل العين والثَّقره
وقوله أيضاً - يقرظ كتاباً ورد عليه من بعض أصحابه في مفتح
رسالة - :

ووافاني كتاب منك عال حكمت ألفاظه السُّمَر الطَّوالا
وكم شاهدت من حَظٍّ ولكن مثالك ما رأيت له مثالا
لئن أمست به ألفات قطع فكم وصل به ضمن الوصلا
وكم ألف به للوصل لاحت كغصن البان لنا واعتدالا
تعانق لأمها طورا يميننا وآونة تعانقها شمالا (١)

(١) الضمير في تعانق الألف .

ظننت اللام فيه عذار خد وخلت النقط فوق الخد خالا
وأسمى طالع الطاءات فيه يُعلم لينه الغصن الكالا
والشاهد في البيت السادس حيث شبه اللام بالعذار ، والنقط بالخال .
وقول ابن الصلت الأندلسي :

ورد الكتاب فكان عند وروده عيدا ولكن هيج الأشواقا
نوناته قد عانقت صاداته كعناق مشتاق يخاف فراقا
فكأنما النونات فيه أهلة وكأنما صاداته أحداقا
والشاهد في البيت الأخير :

ومن الإخوانيات الطريفة : أن جمال الدين بن مطروح كتب إلى
بهاء الدين زهير ، يطلب منه درج فرخ ، ورق وكانت قد ضاقت به الحال :

أفلمت يا سيدي من الورق فجدد درج كمرضك اليقنق^(٢)
وإن أتى بالمداد مقترنا فرحبا بالحدود والحدق
فكتب إليه البهاء :

مولاي سيّرت ما رسمت به وهو يسير المداد والورق
وعزّ عندي تسيير ذاك وقد شبهته بالحدود والحدق
وقد ذكر ابن خلكان : أنهما كانا بالمشرق^(٣)

وهذا النمط من التشبيهات يكاد يكون معدوما في شعر المصريين .
وقد وقع منه التشبيه بالحروف في شعر شوقي كقوله في الحمزية
النبوية :

(١) ديوان البهاء زهير — ١٤١ .

(٢) اليقنق بفتحين : الشديد البياض .

(٣) وفیات الأعيان — ٢ — ٣٤٣ .

نظمت أسامى الرسل فهي صحيفة في اللوح واسم محمد طغراء
اسم الجلالة في بديع حروفه ألف هناك واسم طه الباء
وقوله :

في كل منطقة حواشي نورها نون وأنت النقطة الزهراء
وقوله من أندلسية :

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها في استواء ألفت الوزير في عرض طرس^(١)

وشبه البارودي بالحروف إجمالا في قوله :

غادر الندى بالجزيرة الفيحاء واحد الصبوح بنغمة الورقاء
والمح بطرفك مأوخته يد الصبأ فوق الغدير تجد حروف هجاء^(٢)
من كل حرف فيه معنى صبوة تتلو به الورقاء لحن غناء
ومن قول المؤلف^(٣) في وصف رسالة لصديق جاء فيها تشبيه أدوات
الكتابة ببعض سمات الحسن :

أتحف الخلل خله بكتاب نهل القلب من لماه وعلا
قد حكى طرسه محيا وضيئا وحكى خطه عذارا تدلى
وحكى نفسه سواد عيون لسواد القلوب سددن نبلا^(٤)

(١) السوارى : العمدة : الوزير : ابن مقلة .

(٢) الوحي : الكتابة .

(٣) ألحان الأصل — ٥٠ .

(٤) النقش بالكسر : الحبر .

الفصل الحادى عشر

التشبيهات العقم

الأصل فى العقم بضم فسكون : عدم قبول الحمل .

تقول : امرأة عقيم ، ورجل عقيم : لا يولد لها .

ومن المستعار : ريح عقيم : غير لاقح ، والدنيا عقيم : لاترد على صاحبها خيراً ، والملك عقيم : لا ينفع فيه نسب ، لأنه يقتل فى طلبه الأب والولد والأخ والعم ، وعقل عقيم : لا ينفع صاحبه ؛ وفى الحديث المرفوع العقل : عقلان ، فأما عقل صاحب الدنيا فعقيم ، وأما عقل صاحب الآخرة فشمس (١) .

ومن التشبيهات الممتازة نوع يسمى : التشبيهات العقم جمع عقيم .

وقد وصفها ابن رشيق بأنها : التى لم يسبق إليها ، ولا تعدى أحد بعدهم عليها (٢) .

وقد جعلوا اشتقاقها من الريح العقيم خاصة ، وهى التى لا تلحق شجرة ولا تنتج ثمرة (٣) .

وكان الأولى أن يكون اشتقاقها من الرحم العقيم ؛ لأنها الحقيقة والأصل ، وعقم الريح مستعار منها .

ومهما يكن فالمناسبة واضحة ، فهذه التشبيهات لاتعقب ولداً ولا تؤتى

(١) الأساس والقاموس مادة عقم .

(٢) العمدة — ١ — ٢٠٢ .

(٣) المصدر السابق — ١ — ٢٠٢ — خزانة الأدب للبغدادى — ١ — ١٢٤

مرة ؛ لعدم استطاعة محاكاتها ، فكأنها براء لاخلف لها ولا عقب ، فلما كانت كذلك ، وصفت بالعقم على التشبيه بالريح العقيم كما شاءوا ، أو الرحم العقيم أو المرأة العقيم ، أو الرجل العقيم إذا شئت .

ولا غرو في هذه التسمية ، فكثير من التشبيهات يصح وصفه بأنه : ولود ؛ كتشبيه الجاهل بالثور والجمار ، والجميل بالشمس والقمر ، والشجاع بالأسد ، والسخي بالغيث والبحر والريح ، والعزيم بالسيف والسييل ؛ ونحو ذلك ، لأن الناس كلهم الفصيح والأعجم والعالم والجاهل فيه سواء ؛ لآنا نجده في مغارس الطباع ، ومنابت الأفكار ، فهو مولود من عدة بطون ؛ وموصول النسب بكثير من الأرحام .

بل وجد أن بعض الكلمات كالأسد واليد ، تكثر فيهما الاستعارة في جميع اللغات (١) .

وهناك ضرب آخر كان مخترعا ، ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ عليه الشعراء آخرا عن أول ؛ نحو قولهم في صفة الخد كالورد ، وفي القد كالغصن ، وفي العين كعين المهابة من الوحش ، وفي العنق كعنق الظبي وكأبريق الفضة أو الذهب .

فهذا النوع وما ناسبه قد كان مخترعا ثم تساوى الناس فيه ، إلا أن يولد أحد منهم فيه زيادة ، أو يخص بقرينة فيستوجب بها الانفراد من بينهم .

ومثل ذلك تشبيه العزم بهبوب الريح ، والدكاء بشواظ النار (٢) .

فأمثال هذه التشبيهات لا توصف بالعقم ، لأنه يمكن الإتيان بأمثالها والخذوع على منوالها .

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب — ٩٩ .

(٢) العمدة — ١ — ٧٩ — ٨٠ .

ومن أوائل التشبيهات العقم قول امرئ القيس :

له أبطالا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفّل
شبه خاصرقي فرسه : بخاصرقي الظبي في الضمور ، وساقيه بساقى
النعامة في الانتصاب والطول ، وعدّوه بإرخاء الذئب - وهو نوع من العدو
يشبه خبيب الدواب - وتقريبه - وهو وضع الرجلين موضع اليدين في
العدو - بتقريب التتفل ، وهو ولد الثعلب .

فجمع أربع تشبيهات في بيت واحد .

وفيه يقول خلف الأحمر ^(١) : لم أر أجمع من بيت امرئ القيس :

له أبطالا ظبي

* * *

وقوله أيضاً :

له قصصريا غير وساقا نعامة كفحل الهجان القيصرى العضوض ^(٢)
ويقول فيه ابن قتيبة ^(٣) : وقد تبعه الناس في هذا الوصف وأخذوه
ولم يجتمع لهم ما اجتمع له في بيت واحد ، وكان أشدهم إخفاء لسرقة
الشاعر ابن المعتز في قوله :

له قصصريا رثم وساقا حمامة وسالفتا هيئق من الربد أربد ^(٤)

ومما جاء على نهج امرئ القيس ما نسب إلى يزيد بن معاوية :

لها حكم لقمان وصورة يوسف ونعمة داود وعفة مريم
ولى سقم أيوب وغربة يونس وأحزان يعقوب ووحشة آدم

(١) البيان والتبيين — ٣ — ٢٥٣ .

(٢) القصصيان : ضلعان تلجان الترقوتين ؛ والهجان من الإبل : الأبيض الكريم .

(٣) الشعر والشعراء — ٥٠ .

(٤) الهيئق : الظليم ، والربد : العير .

وقول أبي الحسن الموسمي في مدح الطائع العباسي .

وإذا أمير المؤمنين أضاف لي أملى نزلت على الجواد المفضل
رأى الرشيد وهيبة المنصور في حسن الأمين ونعمة المتوكل
وقول الشعالي :

لقاؤك يحكى قضاء الحوائج ووجهك للغم والهم فارح
وفيك لنا فتن أربع تسلى علينا سيوف الخوارج
لحفاظ الظباء ومشى القباج وطوق الحمام وحسن الدوارج^(١)
وقول العدار في الغضب — وكان يراه دائماً على مائدة أيوب بن جعفر —
وكان لا يغيب أكل الغضب :

له كيف إنسان وخلق عظاية وكالقرود والخنزير في المسخ والغضب^(٢)
يشير في الشطر الثاني إلى قوله — تعالى — : « قل هل أنبئكم بشر من
ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير
وعبد الطاغوت » .^(٣)

وقول ابن حمديس الصقلي في وصف الزرافة :

لها نخذا قسرم وأظلاف قرهب وناظرتا رنم وهامة أيل^(٤)
وقول شاعر في هجاء محمد بن أحمد بن الحسين بن حرب — وكان موكلًا
ببيع الغلات ببغداد بأمر المعتمد — :

ألا تعسا ونكسا لابن حرب وضرباً بالمقارع أى ضرب^(٥)

(١) القباج : الجبل ، والدوارج : ضرب من الطيور ، جميل المنظر ، ملون الريش .

(٢) العظاية بالفتح : دويبة تشبه سم أبرص .

(٣) هامش الحيوان — ٦ — ٧٨ الأستاذ عبد السلام هارون .

(٤) القرم : الفحل بترك « لالوكة » والقرهب . السور السن أو السكير الضخم ،

والأيل بضم الهزة وكسرهما وفتح الياء المشددة . التيس الجبل .

(٥) نكسا بالضم ويفتح ازدواجاً .

لقد مُلئتُ به بغداد جوراً وأفرغ بغضه في كل قلب
تبارك من حباه بوجه قرد ونسكة ضيغم وطباع كلب^(١)
وعيني فأرة ولسان ثور وخلقة قنفذ وجبين دب
ومن التشبيهات العقم قول النابغة :

تراهن خلف القوم خُزراً عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب
يصف النسور بضيق العيون وصغرها ، ويشبهها وهي جائمة بشيوخ
جلوس ، في ثياب خلط غز لها بوبر الأرانب .

ولم يسلم لهم بن رشيق بأن هذا التشبيه عقيم ، وعده من قول طرفة
يصف عقاباً :

وعجزاء دَفَّتْ بالجنح كأنها مع الصبح شيخ في بجاد مقنع^(٢)
وهو ينظر أيضاً إلى قول امرئ القيس :

كان ثبيراً في عرائن وبله كبير أناس في بجاد مزمل

* * *

ومنها قول النابغة المشهور :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
وفيه يقول الأصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كان زهير
يمدح السوق ، ولو ضرب أسنفل قدميه مائة مرة على أن يقول مثل
قول النابغة :

فإنك كالليل . . .

ماقاله ، ومالا يقوله مثل زهير فإن غيره أبعد منه^(٣) .

(١) النسكة : ريع الفم . والأسد يوصف بالبحر كالعقر .

(٢) تدف : تدنو من الأرض حين تنتفض .

(٣) ديوان الممانى ١ - ١٧ - ١٨ .

ويقول ابن قتيبة : وهو مما سبق إليه ولم ينازعه (١) .

* * *

ومنها قول زهير — شبه فيه المرأة بثلاثة أو صاف في بيت واحد — :
تنازعت المها شَبَّها ودُرَّ البحور وشا كهت فيها الظباء (٢)
فأما ما فوق المقعد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء (٣)
وأما المقلتان فمن مهاة وللدرد الملاحاة والصفاء
وقد أعجب النقاد بتقسيم زهير هذا حتى قال بعض الرواة (٤) : لو أن
زهيراً نظر في رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ما زاد على
ما قال (٥) .

وقد قلده الشعراء في هذا التقسيم فقال البحتري :

وفي القهوة أشكال من الساقى وألوان
حباب مثلها يضحك عنه وهو جذلان
وسكر مثلها أسكر طرف منه وسنان
وطعم الريق إذ جا دبه والصب هيمان
لنا من كفه راح ومن رياه ريحان

وقول ديك الجن :

وغرير يقضى بحكمين في الرا ح بجور ، وفي الهوى بمُحال
للتقار دفه وللخوط ما مُحمِّل م لنا وجيده للفضال (٦)

(١) الشعر والشعراء — ٨٠ .

(٢) شا كه : شابهه وشا كله .

(٣) الأدماء : الظبية المشربة بياضاً .

(٤) الشعر والشعراء — ٥٠ .

(٥) يشير إلى رسالة عمر في القضاء وهي من مفاخر الترميز الإسلامي الخالد .

(٦) النقا : القطعة من الرمل المنقادة المحدودة .

فعلت مقلناه بالصب ما تفعل م جدوى الأمير بالأموال
وقول سيف الدين المشد :

وغادة أعشق من أجلمها بدر الدجى والظبي والخيزران
لأن ذا يشبهها بهجة وذاك الحاظا وهذا بنان
وقول كشاجم :

البدر لا يغنيك عنها إذا غابت وتغنيك عن البدر
في فها مسك ومشمولة صرّف ومنظوم من الدر
فالمسك للنكهة والخمر للريقة م واللؤلؤ للثغر

وفي قول كشاجم يقول العسكري : قد جمع تقسيما صحيحا ، ولم
يترك مزيدا (١) .

* * *

ومنها قول عنتره في وصف ذباب الروض :

وخلا الذباب بها فليس بيارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزّ جايحك ذراعه بذراعه قدح المسكب على الزناد الأجزم
الأجزم : المقطوع اليدين ، والمسكب : المقبل على شيء .

وترتيب الكلام قدح المسكب الأجزم على الزناد .

شبه الذباب — إذا كان واقعا ثم حك إحدى يديه بالآخرى — برجل
مقطوع اليدين ، يقدح بعودين .

ومتى سقط الذباب يفعل ذلك ؛ لأنه أبدأ يحك إحدى يديه بالآخرى
كأنه يقدح بعودين مرّخ (٢) أو عفار أو عرجون ، أو غير ذلك مما
يقدح به .

(١) ديوان الماعنى — ١ — ٢٤٠ .

(٢) المرخ والعفار : يقع الميم والعين : شجر شديد الاحتراق .

وقد نوه النقاد بهذا التشبيه ، وبالغوا في الإشادة به إلى درجة الإسراف فقال الجاحظ : قالوا : لم يدع الأول للآخر معنى شريفا ولا لفظا بهيا إلا أخذه غير عنقرة . (١)

ويقول : ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيهه مصيب تام ؛ أو في معنى غريب عجيب ، أو في معنى شريف كريم ؛ أو في بديع مخترع ، إلا وكل من جاء من الشعراء بعده أو معه — إن هو لم يقدر على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره — فإنه لابدع أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، ويقول إنه خطر على بالي من غير سماع ، كما خطر على بال الأول هذا إذا قرعوه به ، إلا ما كان من عنقرة في صفة الذباب ؛ فإنه وصفه فأجاد وصفه ، فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرضوا له ، ولقد عرض له بعض المحذنين ممن كان يحسن القول ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه ، أنه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر .

ثم يقول : ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنقرة (٢) .
ويقول في موضع آخر : لو أن امرأ القيس عرض في هذا المعنى لعنقرة لافتضح (٣) .

ويقول ابن عمر البغدادي : وهذا من عجائب التشبيه ، يقال : إنه لم يقل أحد في معناه مثله (٤) .

ويقول العباسي : ولا يعرف للمتقدمين معنى شريف إلا نازعهم إياه

(١) البيان والتبيين — ٤٣ — ١٩٥ .

(٢) الحيوان — ٣ — ٩٦ « الساسي » .

(٣) المصدر السابق — ٣ — ٣٩ .

(٤) خزائن الأدب لبغدادي — ١ — ١٢٥ .

المتأخرون ، وطلبوا الشركة فيه إلا قول عنقرة وما زال الشعراء وجهابذة النقد يرون : أن قول عنقرة أوحده ، ويقيم فذ ، وأنه من المعاني العظمى التي لا توجد (١) .

ومع هذا فينبغي ألا تتابعهم على هذا الغلو ، وتلقى أقوالهم بالخذر ، فقد ظهر أن البيت معيب وأنه مبنى على أساس منهار ، والفضل في ذلك للتحقيق العلمي ؛ فقد ذكر المغفور له أحمد تيمور باشا نقلاً عن مجلة البيان لليازجى : أن صوت البعوض والذباب والنحل وأشباهاها ، يحدث من اهتزاز أجنحتها في الهواء ، على حد ما يكون من أجنحة الحمام .

وعلى هذا ففي قول عنقرة تناقض ظاهر ؛ لأنه لا يمكن أن يحك الذباب إحدى ذراعيه بالأخرى إلا وهو واقع ، ومتى كان واقعاً تكون أجنحته ساكنة فلا يمكن أن يصوت ، ويمكن عنقرة توهم أن صوته من حنجرتة فلم يتمتع عنده الجمع بين هاتين الحالتين .

انتهى بمعناه وأكثر لفظه . (٢)

وعنقرة معذور في ذلك ، فإن هذه من المسائل العلمية الدقيقة ، التي لا تدخل تحت ملاحظته ، ويكفى أنه مضى القرون على ذلك ، ولم يقب به إلى هذا الخطأ إلا في العصر الحديث .

وللغزالي رأى في الذباب وعمل ذراعيه لا يخلو من طرافة ، ولا ندري مبلغ صحته ؛ يقول : خلق الله العين طبقات لطيفة ، وجعل الأجفان غطاء ملاصقا لها بأهداب طويلة ؛ فانفتح الأجفان وانطباقها ، تتمسح به الحدقة من دقيق الهباء الذي يخالط الهواء ، ويخرج بشعاع البصر من بين الأهداب وهو كالشبكة عليها بحكمة باهرة ، ولما كان الذباب لا أجفان له تراه يمسح

(١) معاهد التنصيص - ٢ - ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) أوهام شعراء العرب - ٣٧ .

بيديه عينيه ثم يحكمهما ؛ لينزل ما تلبد بهما مما فضل مع الهواء ، وهذه حكمة بالغة^(١) .

وقد اندفع الشعراء وراء عنقرة ؛ يقلدونه في بيته تقليداً أعمى ، تأثراً بما ذاع له من حسن الصوت ونباهة الشأن .

فشبه بعضهم من يفرك يديه ندامة بفعل الذباب ، وزاده اللطم ؛ فقال :
فعلُ الأديب إذا خلال بهوميه فعل الذباب ، يرن عند فراغه
فتراه يفرك راحتيه ندامة منه ويتبعها بلطم دماغه
وقول السُّلّامي في وصف زِنبار :

إذا حكَّ أعلى رأسه فكأنما بسالفتيه من يديه جوامع^(٢)
وتعرض حازم في مقصورته لتشبيه عنقرة فقال :

ألقي ذراعاً فوق أخرى وحكى تكلف الأجذم في قطع السنا
كأنما النور الذي يفرعه مقتدحا لونه سقط ورى^(٣)
فقصر عنه التقصير البين ، وأخل بذكر الإكباب والحك — ولهما في
تشبيه عنقرة موقع بديع — هذا إلى التكلف البادى على قوله :
تكلف الأجذم في قطع السنا

ثم رام أن يزيد فيه فقال .

كأنما النور

ويرى العباسي — وما رآه هو الحق — : أن المعاني الشميرة البارعة
كتشبيه عنقرة هذا ، لا ينبغي أن يتعرض لأخذها متعرض إلا بالزيادة
البيّنة البديعة الموضع ، والعبارة الناصعة السملة ، حتى يتبين الفضل للثاني على

(١) طراز المجالس — ٢٤٨ .

(٢) السالفة : ناحية مقدم العنق ، والجوامع : الأغلال .

(٣) يفرعة : بملوه ، والسقط مثلث السين : ما يسقط من النار عند الانقراض .

الأول ، والشفوف للأخذ على المأخوذ منه ، وإلا كان فاضحا لنفسه ، وما سخره
للمعنى الذى تعرض لأخذه (١) .

وقد أحجم بعض الشعراء عن تقليد البيت الثانى الذى هو محل الشاهد
لحصر أخذه ، وقلدوا البيت الأول الذى يصف ترقيم الذباب ، فقال
ابن الرومى من قطعة رائعة :

إذا ارتفعت شمس الأصيل ونفـَّضت

على الأفق الغربى ورُسا مُزعزعا

وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة

من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا

وظلت عيون الروض تخفـَّل بالندى

كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا

فكانت أرائينُ الذباب هنالك

على شدوات الطير ضربا موقعا

وفى ذلك يقول الحصرى (٢) : وقول عنتره فى وصف الذباب أوحد

فرد ويقيم فذ ، وقد تعلق ابن الرومى بذيله وزاد معنى فى قوله :

إذا ارتفعت شمس الأصيل

وقال عبد المجيد بن عبدون :

ساروا ومسك الدياجى غير منهوب وطُرة الشرق عُفل غير تذهيب

على رُبالم يزل شادى الذباب بها يُلهى بآثق ملفوظ ومضروب

وقول سعيد البطليوسى :

(١) معاهد التنصيص — ٢ — ١٢٣ .

(٢) زهر الآداب — ٣ — ١٦٠ .

كان أهازيج الذباب أساقف لها من أزهير الرياض محاريب

* * *

ومن التشبيهات العقم قول عنزة أيضاً في صفة الغراب :
خرق الجناح كان لحبي رأسه جلمان بالأخبار مشَّ مواع
شبه لحبيه بالجللين ومما آلة الجز .

* * *

وقول الفر بن توكب :
كعاب عليها لؤلؤ وزبرجد ونظم كأجواز الجراد المفصل^(١)
قال العسكري : كأجواز الجراد غريب بديع ، لم يسبق إليه ولا أعرف
واحداً أخذه^(٢) .

* * *

وقول الحطيئة في الناقة :
ترى بين لحنيها إذا ما ترغمت لغاما كبيت العنكبوت الممدد
ترغمت : غضبت ، واللغام : الزبد .
يشبه الزبد الذي يخرج من فيها بفسيج العنكبوت .

* * *

وقال الراعي - يصف جمودة الرأس - :
جدلاً أسك كان فروة رأسه بُذرت فأنبت جانبها فثفل^(٣)

* * *

(١) الأجواز : الأوساط .

(٢) ديوان المعاني — ١ — ٢٥٥ .

(٣) الجدل كسكتف وعدل : الصاب ، والأسك : الصغير الأذنين .

وقول بشر بن أبي خازم - يصف عروق الارطى (١) وقد كشفها
ثور - :

يُثِيرُ وَيُيْدِي عَنْ عُرُوقِ كَانِهَا أَعْنَسَ خَرَّازَ تَخَطَّ وَتُنَشَّرُ

* * *

وقول الطرماح في الظليم :

مَجْتَابُ شِمْلَةٍ بُرْجِدٍ ، لَسْرَاتِهِ قَدْرُ وَأَسْلَمُ مَا سَوَاهُ الْبُرْجِدِ (٢)

* * *

وقول مضرس بن ربيعي في صفة رأس النعامة :

سَكَاةٌ عَارِيَةٌ الْإِخَادِعِ رَأْسُهَا مِثْلُ الْمَدَقِ وَأَنْفُهَا كَالْمِسْرَدِ (٣)

* * *

وقول ذى الرمة في وصف الليل :

وَلَيْلٌ كَجَلْبَابِ الْعُرُوسِ قَطَعَتْهُ بِأَرْبَعَةٍ وَالشَّخْصُ فِي الْعَيْنِ وَاحِدٌ
أَحْمٌ عِلَافِيٌّ وَأَبْيَضٌ صَارِمٌ وَأَعْيَسُ مَهْرِيٌّ وَأُرْوَعُ مَاجِدٌ
وَأَنْشَدَهُمَا الْغُرَنَاطِيُّ (٤) :

وليل كائنائه الرؤيى جيته . . .

والرؤيى : الطيلسان كما جاء في القاموس نقلا عن الصاغاني .

وفي اللسان . أراد ثوبا أخضر من ثيابهم شبه سواد الليل به .

وفي الأساس : الرؤيى : ضرب من الطيلاسة ، تصغير راي منسوب

إلى داري ، على غير قياس .

(١) الأرطى : نوع من الشجر .

(٢) السراة . الظهر ، والبرجد بالضم : كساء غليظ .

(٣) المدق بكسر الميم وفتح الدال وكهدهد : آلة المدق .

(٤) شرح مفصورة خازم - ١ - ٣٥ .

والأحم : الأسود ؛ يعنى به الرّجل ، وعلافي : منسوب إلى علاف
ككتاب : وهو رجل تنسب إليه الرّحال ؛ لأنه أول من عملها : والأعيس :
بعيره الأبيض ، والمهرى بفتح فسكون : منسوب إلى مَهْرَة بن حيدان حى
من اليمن ، والأروع : الماجد يكتفى به عن نفسه .

وجلباب العروس : أخضر اللون : والعرب تعبر عن السواد بالخضرة
قال تعالى : « مُدْهَمَّتَانِ » .

قيل في تفسيرها : خضر اوان من الرى سوداوان ؛ ويقال : إن العراق
إنما سمى سوادا ، بلون السعف الذى فى النخل ومائه .

ويقول الجاحظ^(١) : إنه لا يريد لون الجلباب ولكن يريد سبوغه .
وقد أخذ ابن المعتز ونقله إلى ما هو أظرف منه وهو قوله :
ليل كجلباب الشباب قطعه بفتيان صدق يملكون الأمانيا

* * *

وقول عدى بن الرّقاع :
تُرْجى أغنّ كأن إبرة رَوْقه قلم أصاب من الدواة مدادها
وقد سبقت قصته مع جرير .

* * *

وقول مجنون ليل^(٢) :
كان القلب ليلة قيل يُهدى بلى العامرية أو يُراح
قطاة عزّها شرك فباتت تعالجه وقد غلق الجناح
عزها : غلبها ، وغلق بالكسر : من الغلق بالفتح وهو الحبس .

(١) الميوان — ٣ — ٧٧ .

(٢) نسبها المسكرى لقيس لبنى فى ديوان المعانى — ١ — ٢٧٠ .

ويروى : تجاذبه بدل تعالجه .

والبيت تصوير رائع لقلب العاشق الواله في حالة التمزق والاضطراب
وفيه يقول المبرد : وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا
المقدار^(١) .

* * *

وقول بشار :

كأنما النقع يوماً فوق رؤوسهم سقف كواكبه البيض المبائر
وهذا المعنى كما يقول الجاحظ^(٢) : غلب عليه بشار كما غلب عنتره
على قوله :

وخلا الذباب ، البيتين ،

وقد أورد ابن قتيبة^(٣) البيت هكذا :

تبني سنا بكها من فوق رؤوسهم سقفاً كواكبه البيض المبائر
ونسبه إلى العتاني ، وقال : إنه أخذه من قول بشار المشهور :
كان مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليسل تهادى كواكبه

* * *

وقول ابن الرومي في خباز رُقاق - وقد أنشد هما أبو عمر والفيري^(٤) - :
ما أفس لا أنس خبازاً مررت به يدجو الرقاقة وشكّ الملح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر

(١) الكامل « شرح المصنف » - ٦ - ١٥٤ .

(٢) الحيوان - ٣ - ٣٩ « الساسي » .

(٣) الشعر والشعراء - ٤٧٩ .

(٤) المواهب الفتية - ٢ - ٩٣ .

إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرى فيه بالحجر

* * *

وقوله في أحذب^(١) :

قصرت أخادعه وأغاض قذاله فكأنه مترقب أن يصفعا
وكأنه قد ذاق أول صفعة وأحس ثانية لها فتجمعا
وابن الرومي في وصف خباز الرقاق، يجري على عادته في الاستقصاء
والاستيعاب والشمول ؛ فهو يحلو علينا صورة كاملة النواحي ، تامة
الأضواء والظلال ، متدرجة في اسقياء أجزائها مع الترتيب والتسقي ،
فن قطعة عجيب إلى تكويرها إلى تقويرها .

ثم زاد الصورة وضوحاً بما مثل لها في البيت الأخير من تمثيل حسي ،
فلو أن إنساناً رسم الخباز والرقاقة ، ما زادنا معرفة بهما أكثر من وصف
ابن الرومي لها .

فهذا تشبيه عجيب يوشك أن يكون قطعة من الشاشة البيضاء ، لما فيه
من الحياة النابضة النامية والحركات المختلفة .

وتشبيه الأحذب لا يقل عن سابقه طرافة ولا حيوية ولا دقة ، فهو
يصور الأحذب تصويراً شاملاً جامعا في قصر عنقه ، وقطامن مؤخر رأسه
ولم يكفه ذلك حتى التمس له علة من ترقب الصفع ، ومن يخش الصفع يصر
إلى هذه الحال الزرية !

ثم وصف مرة أخرى شكل بدنه في تقوسه وتقارب رأسه من رجليه
والتمس لذلك علة طريفة أيضاً ، وهي ترقب الصفعة الثانية بعد أن ذاق
حرارة الأولى !

وأحسب أن هذا وصف يرثي على الرسم والتصوير والنحت في وضوحه

(١) في معاهد التنصيص — ١ — ١٧١ : أنهما لعبد الله بن النطاح .

وبيانه ؛ لانه لا يقف عند رسم الأشكال ؛ بل يعمل وجودها على
هذه الصفة .

* * *

وقول سيف الدولة في قوس قزح :

قال أبو الحسن الإفريقي : أنشدني سيف الدولة لنفسه - وهو أحسن
ما قيل في وصفها - :

وساق صبيح للصباح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الفمض
يطوف بكاسات العُقار كأنهم فن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرّت أبدى الجنوب مطارفا

على الجو دُكنا والحواشي على الأرض^(١)
يطرّزها قوس السحاب بأحر على أخضر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وقد قفّى على آثاره كثير من الشعراء فأجادوا ، ولكنهم لم يلحقوا به .
قال العلوي الجمالي :

فشبّهت سرعة أيامهم بسرعة قوس يسمّى قزح
تلوّن معترضا في السماء فاستم ذلك حتى نزع

وقال الواواء الدمشقي :

أحسن يوم ترى قوس السماء به والشمس مُسفرة والبرق خلائس
كأنها قوس رام والبروق لها رَشَق السهام وعين الشمس بُرجاس
وقال ظاهر الدين الحريري من شعراء الحرّيدة :

(١) خمس ربيع الجنوب لأنها تجمع السحاب .

ألسـت ترى الجوى مُستعبراً يضاحكه برقه الخلب
وقد بات من قزح قوسه بعيداً وتحسبه يقرب
كطابق عقيق وفيروزج وبينهما آخره مذهب
وقال سعيد بن حميد القيرواني :

أما ترى القوس في الغمام وقد نَمَقَ فيه الهواء نُوءاً
حكى الطواويس وهي جاعلة أذناها للمياه أستاراً
أخضر في أحمر على يقنق على وشاح السحاب قد داراً
كأما المزن وهي راهبة شدت على الأفق منه زُئاراً
وقال عبد المحسن الصوري :

تأمل الجـو ترى والياً قد ولي العهد على السُحُب
سار وقوس الله تاج له ركضاً من الشرق إلى الغرب

وقوس قزح يشبهها ما يقل لبته ولا يدوم مكثه ، وقد سميت بذلك لتلونها من القزحة بالضم وهي الطريقة من صفرة وحمرة وخضرة ، أو لارتفاعها من قزح بمعنى ارتفع ، أو قزح اسم ملك موكل بالسحاب ، أو اسم ملك من ملوك العجم ، أضيفت قوس إلى أحدهما^(١) ، أو هو قزح بالعين أى قوس السحاب .

ويلاحظ مما تقدم أن سيف الدولة سماها : قوس السحاب ، والعلوى سماها : قوس قزح ، والوآواء سماها : قوس السماء ، والقيرواني سماها : قوس الغمام ، والصوري سماها : قوس الله .

وفي الحديث : « لا تقولوا : قوس قزح ولكن قولوا : قوس الله ، فإن قزح من أسماء الشياطين »^(٢) .

(١) القاموس المحيط مادة قزح .

(٢) المواهب الفتحية — ٢ — ٣٧

وفي رواية : أن ذلك لابن عباس^(١) .

ويحوز أن تكون سميت بهذا الاسم ، وقوس ، وأضيفت إلى الله — تعالى — لأنها من فعله وسائر القسي من يرى الناس وفعلهم^(٢) .

* * *

ومن التشبيهات العقم النثرية قوله — تعالى — والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم .

، والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

« وإذا غشيهم موج كالثُّلُجِ ... » .

« كأنهم جراد منتشر » .

« أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه كحجاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها » .

* * *

ومن الحديث : « الناس سوامية كأسنان المشط ؛ وإنما يتفاضلون بالعافية » .

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

ومن صور البيان العُقم — وإن لم يكن من التشبيهات — قول أبي نواس ، تذكره لصلته بما نحن فيه :

ودار ندائى عَطَّوْها وأدْجُوا	بها أثر منهم جديد ودارس
مُساوٍ من جرِّ الزَّفَاقِ على الثرى	وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبسنت بها صحبى وجددت عهدهم	وإني على أمثال تلك الحابس

(١) نهاية الأرب — ١ — ٩٠ .

(٢) غار القلوب — ١٩ .

تُدار علينا الراح في عسجدية حبشها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدريها بالقسي الفوارس^(١)
فيللراح ما زُرَّت عليه جيوبها والماء ما دارت عليه القلائس
أقنا بها يوماً ويوماً وثلاثاً ويوماً له يومُ الترحل خامس
يريد بالعسجدية : كشوساً مذهبة فيها صور منقوشة ، وهي صورة
كسرى ، وصورة المها والفوارس .

ومعنى البيت السادس : أن حد الحمر من هذه الصور التي في الكشوس
إلى الزاقي والنحور ، وأنها مزجت بالماء فاقتمى المزاج فيها إلى ما فوق
رموسها ، وقد يكون الحسيب هو الذي انتهى إلى ذلك الموضع لما مزجت
فأزبدت .

والمعنى الأول أبداع ، وفادته معرفة حدها صرفاً من حدها ممزوجة .
وفيها يقول الجاحظ نظرنا في الشعر القديم والحديث ، فوجدنا المعاني
تقلب ويؤخذ بعضها من بعض غير قول عنزة في الأوائل .

وخلال الذباب بها

وغير قول أبي نواس في المحدثين ، الآيات المتقدمة ،

وعن يموت بن المزرع : قال سمعت الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً
يفضل هذه الآيات التي لأبي نواس ، ولقد أنشدتها أبا شعيب القسلا فقال
والله يا أبا عثمان : إن هذا هو الشعر ولو نقر لطن !

فقلت له : ويحك ما تفارق عمل الجرار والخزف .

وقد علق على ذلك ابن الأثير بقوله : ولعمري إن الجاحظ عرف
فوصف ، وخبر فشكر ، والذي ذكره هو الحق^(٢) .

ولكن ابن الأثير يناقض نفسه في موضع آخر فيقول : أكثر

(١) تدريها : تخطلها .

(٢) المثل السائر - ١٢٥ .

العلماء من وصف هذا المعنى وقولهم فيه : إنه مبتدع ، ثم يقول : ويحكي عن الجاحظ أنه قال : مازال الشعراء يتناقلون المعاني قديما وحديثا إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بإبداعه ، وما أعلم أنا ما أقول لهم ولأبي نواس سوى أن أقول : قد تجاوز بهم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة : بدون هذا يباع الحمار ، وفصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة لا هذا المعنى ؛ فإنه لا كبير كلفة فيه ، لأن أبا نواس رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير لحكاها في شعره .

والذي عندي في هذا : أنه من المعاني المشاهدة فإن هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيرا ، وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا . بقدر القلائس التي على رموسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر (١) .

فنحن نرى أن ابن الأثير في هذا القول الأخير ، قد عدل عن موافقة الجاحظ في وصفها بالإبداع المتفرد بعد أن وافقه أولا .

وقد اختلف الناس في تفسير البيت الأخير ، فذهب بعضهم إلى أن الأيام سبعة : ثلاثة في المصراع الأول ، وأربعة ذكرت مطوية في المصراع الثاني .

والأكثر والصولي يذكرون : أن أبا نواس مر بالمدائن فعدل إلى ساباط ، فقال له بعض أصحابه : ندخل إيوان كسرى ، قال : فدخلنا فرأينا آثارا في مكان حسن تدل على اجتماع كان لقوم قبلنا ، فأقننا خمسة أيام نشرب هناك ، وسألنا أبا نواس صفة الحال فقال : : الأبيات ، .

ويقول ابن الأثير : ومراده من ذلك : أنهم أقاموا أربعة أيام .

ثم يعيبه بالتكرير والتطويل : فيقول : وياعجباله ! يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن (٢) .

(١) المثل السائر - ١٢٥ .

(٢) المصدر المتقدم - ٢٣٩ .

والمعيب : كلام ابن الأثير لا كلام الفواصي : فتكرير الأيام هنا مستملح ، لأنها أيام قصف وهو وطرب ، فليس كل يوم نصيب من اللذة ، وله وزنه في الدهر : وقيمته في العمر ، حتى لتستحق أن تذكر تفاريق لأجمل لمزية كل منها ، ولعله لو استطاع أن يأتى بها جميعاً على هذا الشاكلة لفعل . فهو كمثل قول الفرزدق :

أسقى خمسا وخمسا وثلاثا واثنتين

من عقار كدم الجو ف يحتر الكليتين^(١)

فالتطويل هنا غير موجود ، وقد أوقع ابن الأثير في هذا الوهم أنه جعل الأيام أربعة .

ومعنى هذا : أن المصراع الثانى يحتوى على يوم واحد هو اليوم الرابع . ولو عرف أنه يتضمن أربعة أيام ، وأن البيت كله يشتمل على سبعة أيام ، هى الأيام التى أقاموها فى التصف كما يدل عليه الفهم الصحيح ، لعدده من الدحة الدالة لا التطويل الممل ١ .

نعم يعد من التطويل والفضول قول ابن حيون :

أيامشبه البدر بدر السماء لسبع وخمس مضت واثنتين

ويا كامل الحسن فى نعتة شغلت فؤادى وأسهرت عيني

فأما مننت وإما قتلت فأنت القدر على الحاليتين

لأن قوله :

لسبع وخمس مضت واثنتين

ليس فى ذكرها تلذذ ولا استرواح ، وإنما هو العي والحصر .

وكذا قول ابن الرومى :

(١) يمر بفتح الحاء : لازم ومتعد .

بنت سبع وأربع وثلاث أسرت قلب حبها المشتاق
 فإنه يريد أنها بنت أربع عشرة سنة ؛ فإطال بدون فائدة .
 وقد ذكروا : أن أبانواس اهتدى إليه من قول امرئ القيس :
 فلما استطابوا صب في الصحن نصفه وجاءوا بماء غير طرّق ولا كدر (١)
 فجعل الماء والشراب قسمين ؛ فتسلق أبونواس عليه وأخفاه بما
 شغل به الكلام من ذكر الصور (٢) .

والحق أن السرقة غير واضحة ، ولا يحتاج الأمر هنا إليها : فالشاعر
 بسبيل وصف شيء مشاهد تكرر رؤية : كئوس ذهبية نقشت صورة
 كسرى فارس في قعرها ، وفوارس تختل بقميها وسهامها بقر الوحش في
 جوانبها ، وخر تبلغ من الكئوس إلى حد التراقي والنحور ، وما يمزج
 بها يغطي قلانس الفرسان .

والبيت بيان لحد الخمرة الصرّف من حدها بمزوجة ، وليس في وصف
 الكئوس على هذه الحال ما يعيا به إنسانا

وقد أخذ أبو العباس الناشيء فولد معنى زائدا (٣) : وذلك حيث يقول :
 ومدامة لا يبتغي من ربه أحد حياه بها لديه مزيدا
 في كأسها صور تظن لحسنها عُربا برزن من الخيام وغيدا (٤)
 وإذا المزاج أثارها فتقسّمت ذهبا ودرأ تومما وفريدا
 فكأنهن لبسن ذاك مجاسدا وجعلن ذا لنحورهن عقودا

(١) الطرق : المطرون الذي خوضته الإبل وبول فيه .

(٢) معاهد التنصيص — ٢ — ١٢٢ .

(٣) زهر الآداب — ٣ — ١٥٨ .

(٤) العرب بضمّتين : التحجيات إلى أزواجهن جمع عروب بالفتح .

الفصل الثاني عشر

تشبيه السخرية والتهكم

هناك لون من التشبيهات يقصد منه فوق الذم ، نوع من السخرية والتهكم ؛ يستمدان عناصرهما من الوصف بأشياء تبعث على الضحك في العادة . وليس من الضروري أن تكون هذه التشبيهات مقذعة ، أو جارحة للشرف ، أو قارضة للعرض ، وإن كانت لا تخلو من ذلك في الجملة ، وإنما المهم أن تشوبها روح الهزء ، وأن يكون الغرض الأول منها ؛ اللذع والتسكيت والتسكيت ، وأن ترمي إلى الهزل والتندر أكثر مما ترمي إلى السب والقذف وحت الآثلاث !

فن ذلك مثلا : أن نصيبا الشاعر خرج من عند هشام بن عبد الملك وعليه ثياب بيض ، فنظر إليه الفرزدق فقال :

كأنه لمّا بدا للناس أيزحارُ لفّ في قرطاس

فالغرض الأساسي من مثل هذا التشبيه التهزؤ بالموصوف ، والضحك منه ، وإن حوى ذمّاه بالسواد ، واختلاف الهيئة ، وعدم التناسب بالجمع بين النقيضين !

وأنت ترى حقا ؛ أن هذا الوصف يحملنا على السخرية والضحك من صاحبه ملء الأشداق ، ولسكننا مع هذا لانشعر بأنه مهمين أو حقير أو نذل أو ماقط ، ولا هو نفسه يحس ذلك وإن أحس الخجل ، لأن الأمر لا يتعدى تصويره في لونه ولباسه ، وما تفرّع عنهما من هيئة ، تصويراً يطاق الحقيقة وإن لم يفظن لها الناس ، وفظن لها الشاعر الأملح ، وليس في ذلك انتقاص لكرامته ، وقدح في مروءته ، ووضع من منزلته ؛ فالسواد بما

لا حيلة فيه ، والبياض في الثياب مما يحب ويستجاد ، ولكنه الشعر الذي قال فيه أبو تمام :

يرى حكمة ما فيه وهي فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ومن بديع ذلك قول رجل من أهل الكوفة في المغيرة بن شعبة —
وكان أعور آدم دميما — (١)

إذا راح في قبطية (٢) متأزرا فقل جعل يستن في لبن محض
فأقسم لو خرت من استك بيضة

لما انكسرت من قرب بعضك من بعض
قال ابن دريد لأبي حاتم : ما أظن أحدا سبقه إلى قوله : يستن في لبن
محض .

قال : بلى ، كان إبراهيم بن عربي واليا لليامة : فصعد المنبر يوم ما ، وعليه
ثياب بيض ، فبدا وجهه وكفاه ، فقال الفرزدق :

ترى منبر العبد اللئيم كأنه ثلاثة غربان عليه وقوع
فهذا يشبه ذلك وإن لم يكنه (٣) .

وهناك أسلوبان للسخرية لا يكاد يكون لهما ثالث ، وهما : أسلوب السخرية
المباشرة ، وأسلوب السخرية التي تلف وتدور ، والتي لا بد من أن تلقى العدو
في الميدان سافرة غير مقنعة ، تخيل للناس أنها تنحو سبيل الحياذ ، ثم تجيء
بعد ذلك فتنسف عدوها نسفا بالأساليب الدبلوماسية الناعمة الملمس .
وفي ذلك يقول جوفنسون : إن الفضح لا يكون ذا خطر إلا إذا حملته

(١) آدم : أسمر .

(٢) القبطية على غير قياس وقد تسكس : ثياب بيض تنسب إلى قبط مصر ، والجمع :
قباطى بضم القاف وفتحها .

(٣) أمالي القالي — ١ — ٤٨٤ .

مركبة من الكياسة والذكاء . والفرق بين الفضح الفج وبين الفضح المهذب هو كالفرق بين الرأس الذى تشمه هراوة ضخمة ، والرأس الذى يودى به سهم مسموم^(١) .

وليست طريقة السخرية سهلة ميسرة لكل أديب وشاعر ؛ لأن ذلك يرجع إلى مواهب رزقها أفراد قليلون فى الزمن المتطاوول .

ونحن نعرف مئات من الناس بل ألوف ، ولا نكاد نعر بينهم على واحد خفيف الظل ، طيب النفس ، لطيف الروح ، رقيق المزاج ، حلو النادرة .

وأحسب أنه قد تمر عصور ، وتتعاقب أجيال ، ولا يجود الزمان بمثل نجيب الريحاني مثلاً ؟

والإجماع منعقد على أن مجالس الأنس والظرف والانبساط والمفاكمة قد أجذبت بموت البايلى ، وإمام العبد ، وعبد العزيز البشرى ، وحافظ إبراهيم وغيرهم من زعماء النكسة ، ولا تزال أما كنهم شاغرة تنتظر من يملؤها .

وفن الهجاء نفسه لا يجيده كل شاعر ؛ لأن بعض النفوس لم تقوت موهبته ، وقد كان البحترى — وهو علم من أعلام الشعر ، وثانى المطبوعين على خياله بعد أبى نواس — فى حكم النقاد بكيئاً متخلفاً فى الهجاء ، لا يواتيه منه إلا الرذل السخيف المخشوب ، الذى ينال من قائله أكثر ممن قيل فيه ، على حين نرى جماعة من الشعراء على رأسهم الخطيب ، وبشار ، وابن الرومى كأنهم خلقوا له ؛ لكثرة ما تهرقوا فى فنونه ، ولجريانه على ألسنتهم بلا جهد ولا كلفة ، حتى لنخالهم عقارب شائلة الأذنان ، مسوقة إلى ضرب كل ما لامسته بحكم الفطرة .

وهذه النزعة التهكمية قديمة قدم الإنسان ؛ فهم يتخلل آحادنا اليومية

ومشاجر اننا في الحياة قبل أن تسجلها بطون الكتب ؛ زراها في هجاء زهير
لآل حصن حيث يقول :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
ولكن جريراً هو الذي أرسى قواعدها ، وثبت أركانها ، ووطأ نهجها
حتى عرف بها وعرفت به ، فقد كانت عادته في الهجاء أن يتلعب بالمهجور
ويعبت به ليملاه غيظاً وحنقاً .

وقد أوصى بذلك الشعراء فقال : إذا هجوت فأضحك^(١) .
وقد أضحكنا جرير كثيراً من هجائه ومن المهجور به معاً ، وإن صحب
هذا الضحك كثير من التقرؤز والاشتمزاز .

ومن الذي لا يضحك بكل فقه ، ومن كل قلبه حين يسمع قوله^(٢) :
تعرض التميم لي عمداً لأهجوها كما تعرض لاسم الحارثي الحجر^(٣)

* * *

كان وجوه السيد^(٤) حول ابن أختهم وجوه خنازير يراقبن خاريا

* * *

كان بنى طهية رمل سلبى حجارة خارى يرمى كلابا

* * *

إذا ضحكك شبت أنيابها العلاء خفافس سوداً في صراة^(٥) قليب

* * *

(١) العقد الفريد — ٣ — ٣٩٨ .

(٢) ديوانه — ٦٦ — ٨١ — ١٧٢ — ٣١٦ .

(٣) التميم : تميم عدى وكانت ترمى بالحسة .

(٤) السيد من بنى ضبة أخوال الفرزدق :

(٥) الصراة بالفتح : الماء المجمع المتغير .

ولو وضعت فِقَاحَ بَنِي نَمِيرٍ عَلَى خَيْبَتِ الْحَدِيدِ إِذَا لَذَابَا
فَصَبْرًا يَا قِيُوسَ بَنِي نَمِيرٍ فَإِنَّ الْحَرْبَ مَوْقِدَةُ شَهَابَا

* * *

إِذَا جَاءَ رُوحَ التَّغْلِيٍّ مِنْ أَسْتِهِ دَنَا قَبْضُ أَرْوَاحِ خَيْبَتِ مَا لَهَا

* * *

أَيْفُخِرُ عَبْدٌ أُمَّهُ تَغْلِيَّةٌ

قَدْ أَخْضَرَ مِنْ أَكْلِ الْخَنَانِيصِ (١) نَابَهَا

غَلِيظَةُ جِلْدِ الْمُنْخَرَيْنِ مُصَنَّةٌ عَلَى أَنْفِ خَنْزِيرٍ يَشُدُّ نَقَابَهَا

* * *

أُمْسَى الْفَرْزُوقُ يَا نَوَارَ (٢) كَمَا نَهَ قَرْدٌ يَحْتِ عَلَى الزَّنَاةِ قُرُودَا

* * *

وَهَلْ كَانَ الْفَرْزُوقُ غَيْرَ قَرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاغِقُ فَاسْتَدَارَا (٣)

عَلَى أَنَّهُ حِينَمَا كَانَ يَقْنَعُ بِالتَّحْكُمِ الْمُحْضِ ، وَالسَّخَرِيَّةِ الْخَالِصَةِ ، فَلَا يَخْلُطُهَا
بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَاذِيرِ الَّتِي كَانَ يَلْمِجُ بِهَا ، كَقَوْلِهِ لِلْفَرْزُوقِ :

زَعَمَ الْفَرْزُوقُ أَنَّ سَيَقْتُلُ مَرْبَعَا أَبْشَرَ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَامَرْبِعِ
وَقَوْلُهُ لِلرَّاعِي النَّمِيرِيِّ :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَا كَعْبَا بَلَغْتَ وَلَا كَلَابَا
وَمِثْلُ هَذَا الْمَجَاءِ الْخَالِي مِنَ الْفَحْشِ ، يَعْرِفُ عِنْدَ أَهْلِ الْبَدِيعِ بِالزَّاهَةِ .
وَمَعَ ذَلِكَ أَلَسْتُ تَرَى أَنَّ طَرِيقَةَ جَرِيرٍ فِي جَمَلَتِهَا ، هِيَ طَرِيقَةُ أَوْلَادِ
الْبَلَدِ فِي تَلَا حَيْبِهِمْ وَشَتَائِمِهِمْ وَسَبَابِهِمْ وَتَهْمُكِهِمْ .

(١) الخنانيص : صفار الخنازير جمع خنوص يكسر الحاء وتشديد النون المفتوحة .

(٢) النوار . زوج الفرزدق وبنت عمه .

(٣) استدار : تحول ، وبهذا البيت يشير جرير إلى نظرية درون من غير قصد .

إن الفائز منهم في ميدان اللدِّد والملاحاة ، ليس هو الذي يفحش في سبابه ، ولكن هو الذي يستطيع أن يحمل خصمه أضحوكة السامعين ، وموضع طهيم وتندرهم ! .

ومن الطرائف التهامية : أن إحدى السيدات الإنجليزيات ، شككت مرة شكوى عجزت عن تفسيرها ، فقالت : إن أظافري يعلوها القذر أيام إقامتي بلندن ! .

فأجابها الدكتور صمويل جونسون من فوره : قد يكون هذا راجعا إلى أنك تحكّين جلدك بتلك الأظافر .

ومن الواضح : أن قواعد اللياقة والسلوك تأبى أن يقول سيد لسيده : إنها قدره ، ولكن جونسون بطريقته البارة في تركيب الجمل ، قد تجنب نقد الناقدين ، فقال ما يريد أن يقول دون أن يفصح عنه .

وهو يظفر ببعض إعجابنا لقدرته على أن قال قولته تلك !

ومن هنا تبدو السخرية وكأنها وذج من القول السيئ المرخص به . وترى هذه السمة واضحة في بعض أهاجي الشعراء كقول جواس — يهجو بعض القبائل — :

كانُ خروء الطير فوق رؤوسهم إذا اجتمعت قيس معا وتميم
جعلهم أذلاء يسكتون إذا اجتمعت القبائل في الموسم ، كأنما على رؤوسهم
خروء الطير لا الطير فقط .

وقول يزيد بن قنافة الطائي — يهجو حاتم طي . — :

غداة أتى كالثور أخرج فائقى بجبهته أقتالَه وهو قائم
يصف حاتما على سبيل السخرية : بأنه خرج على أقرانه المقانلين له
مثل الثور الهائج إذا ضيق عليه ، فلما جاء وقت الدفاع ولى منهزما !
وقول حرث بن عتاب النهاني — يهجو بني ثعلل — :

ديافية^(١) 'قلف كأن خطيبهم سرّاة الضحا في سَلَحِه يتمطق
يصف خطيبهم إذا تكلم عنهم : بأنه يتأجلج في كلامه لعيه ؛ كأنه يتمطق
في خرثه .

وقول الأخطل يهجو :

والخبز كالعنبر الوردىَّ عندهم والقمح سبعون إردبا بدينار
وقول الحارث الخفاجي :

وتزيّنت لـتروعى بحماها فكأنما كسى الحمار 'خمارا
فخرجت أعثر في قوادم جبى لولا الحياء أطرتها إحضارا^(٢)
وقول أعرابي -- يهجو زوجه -- :

إذا سفّرت كانت لعينك 'سحنة وإن برّقت فالفقر في غاية الفقر
حديث كخلع الضرس أو تنف شارب ودلّ كهشم الأنف عيل به صبرى
وتفتّر عن ثلج عديم حديثها وعن جبلى طى . وعن هرمى مصر
وقول شاعر -- يهجو بخيلا -- :

نوالك دونه خرط القتاد وخبزك كالثريا في السباد
ولو أبصرت ضيفا في منام حرّمت المنام إلى التنادى
أرى عمر الرغيف يطول جدا لديك كأنه من قسوم عاد
وقول الناجم في الحية :

ولحية يحملها مائق مثل الشرايين إذا أشرعا
لو غاص في البحر بها غوصة صاد بها حيمانه أجمعا

(١) ديافية : أى أنباط منسوبون إلى دياف ؟ وهى أرض بالهام لهم ، وقلف : غير
مختوفين جمع ألقاف ، وسرّاة الضحا : وسطه . والساج : العذرة . والتعطى : التذوق بضم
لحدى الشفتين على الأخرى مع صوت بينهما .
(٢) الإحضار : ضرب من العدو .

وقول آخر :

ألم تر أن الله أعطاك لحية كأنك منها قاعد في جوالق
وقول آخر :

وله لحية تيس وله منقار نسر
وله نكبة ليث خالطت نكبة صقر^(١)

وقول الثعالبي :

لى صاحب لا يسمّى بين الورى إنسانا
لأنه التيس قرنا ولحية وُصّانا

وقول آخر — يهجو بقبح الحلقة — :

أما الرجال فجعلان ، ونسوتهم مثل القنافذ لا حسن ولا طيب
وقول ابن شهيد الأندلسي :

ويج الكتابة من شيخ هبنة يلقى العيون برأس محته رار^(٢)
ومتن الريح إن ناجيته أبدا كأنما مات في خيشومه فار
وقول المنفعل القرطبي — يهجو ميمون الفراء — :

لابن ميمون قريض زمهرير البرد فيه
فاذا يبت يتما نفقت سوق أبيه^(٣)

وقول بعض العرب :

نفسرجة ينفر من ظل الشجر فواده أنثى وضرمة ذكر^(٤)

(١) يوصف الليث والصقر بالبخر لقلّة ريقهما .

(٢) الهبنة : الأحق والقصير ؛ واسم « جمعا » والرار واليرير : الفاسد .

(٣) يريد أن البرد يهتد إذا نظم شمره فيحتاج الناس إلى شراء الفراء للتدفئة .

(٤) النفرة : الجبان .

وقول دعبل :

وإن له لَطَبًا خا وخبراً وأنواع الفواكه والشراب
ولكن دونه حبس وضرب وأبواب تُطابق دون باب
يزودون الذباب يمر منه كأمثال الملائكة الغضاب
وقول المشلامي :

يحلو بأفواه الأصابع صفعه حتى كان قذاله من مُكَّر
وقول الناجم :

يُنْقَصُ الأحرارَ من شأنهم وهو أخو القِيلة والنقص
كأنه البرغوث لم يُخْطِه في صغر الجنان والقرص
وقول أبي نواس في الهجاء بالبخل :

على خبز إسماعيل واقية البخل فقد حلَّ في دار الأمان من الآكل
وما خبزه إلا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى في حُزون ولا سهل
وما خبزه إلا كعنقاء مُغرب تصوَّر في بسط الملوكة وفي المُشَلِّ (١)
يحدث عنها الناس من غير رؤية سوى صورة ما قد تمر مع النقل
وما خبزه إلا كليب بن وائل ليالى يحمى عزُّه منبت البقل
ولإذ هو لا يَسْتَبُّ خصمان عنده ولا الصوت مرفوع بجد ولا هزل
فإن خبز إسماعيل حلَّ به الذى أصاب كلييا لم يكن ذاك عن ذل
ولكن قضاء ليس يُسْطاع دفعه بحيلة ذى مكر ولا فكر ذى عقل
وقول ابن المعتز :

(١) عنقاء مغرب: يقال : العنقاء المغرب، وعنقاء مغرب ومغربة على الوصفية ، وعنقاء .
مغرب على الإضافة .

ويبرز للرائين وجهها كأنه كساه أبوه من قشور الخنافس
وقول أبي الشمقمق :

الطريقَ الطريقَ جاءكم الاحق م رأس الاتان والقاذره
وابن عم الحمار في صورة الفيل م وغال الجاموس والبقرة
يمشى رويداً يريد خلعكم كشي خنزيرة إلى عذره
وقول أبي عثمان الخالدي :

ولي صاحب نحس على كل صاحب هو الداء أعيان يصيب دواء
أخف الوري عقلا وأقل طلعة وأغم إلا أن يقول خطاء
وقول صاحب :

زادت قرونك يا عمير م على مساويك الجليّة
وأقل قرن حزنه كمنارة الإسكندرية
وقول غرارة الخياط في هجاء أبي السميّ المغني :

كان أبا السميّ إذا تغنى يحاكي عاطساً في عين شمس
يلوك بلحيه طورا وطورا كأن بلحيه ضربان ضرس
وقول بعض الظرفاء في ثقیل :

أنت واقه ثقیل وثقیل وثقیل
أنت في المنظر بستا ن وفي المخبر فيل

وقول الأسعد بن بليطة في أسود :

يا رب زنجي لهُوت به الشمسُ عند سناه عمقوته
محدودب قد غاب كاهله في منسكبيه فلا ترى ليته^(١)

(١) البيت بالكسر : صفحة العنق

قد أحكم التجميد لمتنه فتراكت فكأنها توته
 وإذا سعى بالكأس تحسبه جعلا يدحرج فص ياقوته
 وكأنه والكأس في يده نجم رمى في الجو عفرته
 وفي البيت الرابع يقول ابن بسام^(١) . وهو مأخوذ من قول ابن
 زرقون الأندلسي في السكيت الشاعر :

تأملت السكيت وقد علاه من الآثواب ثوب ذو احمرار
 فقلت لصاحبي جعلا تمشني اعمرى في ثياب الجئلنار
 ورأي أنه مأخوذ من قول بعض أهل الكوفة المتقدم في المغيرة
 ابن شعبة :

إذا راح في قبطية متأزرا فقل جمل يستن في لبن محض
 ونحب أن يلاحظ : أن الهجاء في العصر العباسي قد تنوع وتلون؛ فشمع
 العيوب الجسمية ، وما يخالف آداب اللياقة والسلوك ، لانتشار الترف
 والرفاهية ، ورقى الذوق الجماعي والفردى ، وقد مر طرف من ذلك .
 ونحب أن نقول : إن ابن الرومي ورث طريقة جرير وأمعن فيها
 وأمدته الحضارة بما يشبع سفاوته الجسدية ونهجه إلى التشفي والانتقام ،
 فأتى في ذلك بالعجب العجيب !

فن ذلك قوله في ضرطة سليمان بن وهب^(٢) :

ما لقينا من ظرف ضرطة وهب تركت أهل دهرنا شعراء

(١) الذخيرة - ٢ - ٣٩٥ .

(٢) هو وهب بن سليمان بن وهب صاحب بريد الحضرة ، أفلتت منه ضرطة في مجلس
 الوزير عبد الله بن يحيى بن خاقان ، فطار خبرها وتفق بها الشعراء وصارت مثلاً في الشهرة ،
 حتى قالوا : أشهر من ضرطة ابن وهب وأفزع من ضرطة ابن وهب ، وعمل أحمد بن طاهر
 كتاباً في ذكرها والاعتذار عنها .

هي عندي كجود فضل بن يحيى غير أن ليس تنعش الفقراء
وقوله في ثقل بارد :

يا أبا القاسم الذي ليس يدري أرصاص كيانه أم حديد
أنت عندي كجاء بترك في الصيف م ثقل يملوه برد شديد
وقوله في صالحة أبي حفص الوراق :

يا صالحة لأبي حفص مرمدة كأن ساحتها مرآة فولاذ
ترن تحت الأكف الواقعات بها حتى ترن بها أكتاف بغداد
وقوله :

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
وأنت من بيت أهل سوء قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظام لكن أقفاهم طبول
مستعملان فاعلن فـول مستعملان فاعلن فـول
بيت كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

وقد انتهى فن السخرية في العصر العباسي الثاني إلى المعرى ، فنقد كل
شئ ، وسخر من كل شئ ، وأعانه على ذلك علم غزير ، واطلاع واسع ،
ولسان زليق ، وبيان طليق ، وأفق رحب ، وبصيرة نافذة ، وعاطفة حية ،
وزهد في الدنيا ، وتسام على الزمان ، واستهانة بالناس ؛ فترك نفسه على
سجيتهما ، وعلى ما خيَّلت يجد بالمجتمع ويهزل لا يرجوه ولا يخشاه !

وقد ورد للعرب أشعار تضمنت تشبيهات بما كانوا يلدؤونه من
الأطعمة والأشربة كمقول شاعر :

كان ثناياها وما ذقت طعمها لبنا نعمة سوطته بدقيق

اللبا بكسر ففتح : أول اللبن ، والتسويط : خلط الشيتين في الإناء ، ثم
ضربهما باليد حتى يختلطا .

شبه ريقها بلبن النعجة أول ولادتها وقد خلط بال دقيق .

وقول آخر :

رمقى بسهم الحب أما قذاده فتمر وأما نصله فسويق
القذاد : ريش السهم جمع قذة بالضم ، والسويق : ما يعمل من الخنطة
والشعير .

يريد أنها كانت تطعمه التمر والسويق ؛ فهو لذلك يحبها .

وقول آخر :

الأرب خوذ عينها من خزيرة وأنيابها الفُرس الحسان سويق
والخزيرة : لحم يقطع صغاراً ، ويغلى بماء ويدرّ عليه الدقيق .
شبه عينها بهذا اللون من الطعام .

وقيل : المقصود بذلك بنو مجاشع من تميم ، وقريش ، وكانت العرب
تغيرهما بأكل الخزيرة .

وقول آخر :

فما صحفة مآدومة بإهالة بأطيب من فيها ولا أقط رطب
والإهالة كل ما يؤتم به . والأقط : ما يتخذ من الخيض الغنمى .
يريد : أن ترشف فيها أطيب مذاقاً من طعم هذين الطعامين !
وقول آخر :

فإلك إذ ترى عرصات تُجمل بعاقبة فأنت إذن سعيد^(١)

(١) العرصات : الأمكنة الواسعة ، جمع عرصة كنمرة . وعاقبة : أى عقب معرفتها .

لها عينان من أقط ونمر وسائر خلقها بعد التريد
يريد بالاقط والتمر : ما اجتمع في عينيها من بياض وسواد ، وبالتريد
لين جسمها وغضارته !

وقد أدخل أبو تمام هذا اللون في باب الملح من ديوان الحماسة^(١) .
ومن أدباء المنثور الذين عرفوا بالتهكم : الجاحظ وأبو العيناء .
ولكن ليس في أدباء العربية جميعاً ، من يصح أن يوصف بأنه بلغ مبلغ
فولتير وأناطول فرانس .

وقد عرف الأول بين الغربيين بالكاتب الساخر^(٢) .

هذا ، وقد يختلط على الناس الفرق بين الفكاهة والمزل . وقد
فرق بينهما جورج ديهايل^(٣) : بأن المزل يرمى إلى إثارة الضحك ، كما
أن له أسلوباً خاصاً ، ولغة خاصة ، ومعجماً خاصاً ، بحيث يصعب أن يجاور
المأسى .

وهو يتميز من المزح الخالص الذي هو حالة نفسية عارضة ، يطول
أو يقصر دوامها ، وليست لها قدرة على الكشف عن حقائق النفس .
وروح الفكاهة نوع من التعبير في الضياء ، يمكننا أن نرى الشيء
في كافة مظاهره . ولقد يكون من بين تلك المظاهر تناقض ؛ بفضل تكسب
المظاهر دلالاتها .

إن في روح الفكاهة نوعاً من الخفر والتحفظ ، وتمثلك النفس ،
لا يعرفه المزل الصريح ، ولكنها — إن أصبحت مذهبا يصطنع —

(١) ديوان الحماسة — ٢ — ٤٠٤ .

(٢) أبو العلاء ناقد المجتمع — ١٥٣ .

(٣) دفاع عن الأدب — ٢٢٥ — ٢٢٦ .

انحرفت عن سبيلها ، وأخطأت هدفها ؛ إذ لا يجوز أن تظهر إلا تحت
ضغط الملابس .

والهزل عزيمة منعقدة منذ البدء على إثارة الضحك ، بينما الفكاهة
لا تضحك دائما ، وإن ضحكك فذاك لأنها لا تستطيع أن تتجنب
هذا الضحك .

وروح الفكاهة استعداد طبيعي في نفس صادقة ، لا تصدِّف أن تعرف
كل ما ترى ، وأن تقول كل ما تعرف .



فهرس لأمهات المسائل

الفصل الأول

محسنات التشبيه

٣٥ - ٤

وجوه البلاغة لا تحصر . ماتجب مراعاته في التشبيه إذا كان الغرض بيان الحال أو المقدار . مراعاة الأعرافية في وجه الشبه والسر النفسى في ذلك . تعليل تشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة في الآية الكريمة وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقا مراعاة أن يكون القدر المشترك أبعد من الزيادة والنقص في بيان المقدار . ماتجب مراعاته إذا كان الغرض تقرير المشبه أو بيان إمكانه أو تحسينه أو تقييده أو استطرافه أو كان التشبيه مقلوباً . صب الأمور المعنوية في قوالب المحسوسات تحقيقاً لوجود التشبيه . صحة وجه الشبه ودقته وشموله للطرفين . انتظام المعانى بتنسيق الأبيات الشعرية وحسن تجاوزها والتمثيل لذلك . التفريق بين ما به المشابهة وما به الامتياز . متى يسهل انتزاع الصور العقلية . استحسان قدامة اجتماع عدة تشبيهات ونقد ذلك . مجيء التشبيه على صور التشكيك وفأذته . التوطئة للتشبيه وقيمه البلاغية . اجتماع لونين من الشعر في التشبيه . تشبيه حالة الوجود بحالة العدم وعكس ذلك . مذهب قدامة والآمدى والخفاجى في المدح والذم بالصفات البدنية . ونقد ذلك . قيمة الألفاظ ذات الظلال والأشعة في التشبيه . عقد الصلة بين الأشياء المتباعدة في التشبيه والتمثيل لذلك .

الفصل الثاني

موقع الألفاظ حسنا وقبحا في التشبيه ٣٦ - ٦٠

اجتماع الإصابة والقبح في التشبيه . وصف الأنامل
المخضبة في شعر الجاهلين والمولدين والموازنة بينهما . تشبيهات
دقيقة غرض منها سوء اللفظ . التشبيهات بالأفعى وحسن
بعضها دون بعض . أثر العرف والعادة في استحسان التشبيه
واستقباحه . ما يجب مراعاته في تشبيهات المطعوم والمشروب
والتثيل لذلك . متى يجوز استعمال الألفاظ الكريمة في التشبيه .
أوصاف مختلفة لبيان حسن الألفاظ وقبحها في التشبيه
ونقد ذلك .

الفصل الثالث

اقتران التشبيه بالحلي البديعية ٦١ - ٨٧

قيمة الحلي الإضافية في التشبيه وشروط حسنها . التشبيه
مع التذليل والإيقال وأسلوب الحكيم والتثيل لذلك .
الاستطراد بطريق التشبيه والعادة المتبعة في ذلك . التشبيه مع
المذهب الكلامي والتثيل لذلك . اعتذار النابغة للنعمان ومجيئه
على صورة القياس مع تحليله ونقده . التشبيه مع التناسب
والتقسيم والتسليم ، مع التمثيل وبيان مر الصنعة في ذلك :
التشبيه مع حسن التعليل . إعجاب عميد القاهر بهذه الطريقة
والتنويه بجمالها . التشبيه مع التديج والمقابلة وصحة التفسير
والرجوع والمزاوجة إلخ . التخيير البديعي في التشبيه . اجتماع

التشبيه مع عدة محسنات . موازنة طريفة بين قول أبي تمام
وتميم بن مقبل في وصف القدود المهتزة

الفصل الرابع

التشبيهات المبتكرة ٧٨ - ١٢٢

تعذر رسم طريق الابتكار وعلة ذلك . أثر الحضارة
والثقافة في الابتكار . اختصاص الابتكار بقلة من الأدباء
وسر ذلك . محاولة ابن الأثير رسم طريق للابتكار وإخفاقه
فيه . نقد رأيه في أن أكثر المعاني قد طرقت وسبق إليها .
الابتكار عند ابن رشيق ومطابقته لأرسطو في بعض الآراء .
المعاني المبتكرة وغيرها عند ابن الأثير وتفصيل ذلك . النظرة
التي يعتمد عليها الأديب في الابتكار . معنى الابتكار الذي
نريده من المنشئ . أثر اختزان الصور والتشبع بالتجارب
في سهولة الابتكار . أول من شبه الزوجين بالشمس والقمر .
الابتكار عند أرسطو وبيان حدوده . مللعة الابتكار
وجوهرها وصعوبة رياضتها . طبيعة الابتكار الأدبي عند
سقراط وحاجتها إلى التعبير . المبتكرون من الشعراء وما قيل
فيهم . صور للتشبيهات المبتكرة في جميع العصور ونقدها .
ليس حتما على الشاعر الابتكار كالفلاسفة والعلماء . اعتراف
ابن رشيق بقلة الابتكار في عصره . تعصب ابن أفلاح للمحدثين
ورد ابن الأثير عليه . الابتكار بين الجاهليين والمحدثين .

الفصل الخامس

التشبيهات القيحية ١٢٣ - ١٨٤

ظهور العيب الطفيف في التشبيه بخاصة . مرجع القبح في التشبيه . صور للقبح في التشبيه في جميع العصور مع نقدها والموازنة بينها . مؤاخذات النقاد لامرئ القيس . نقد الأصمعي ، لنظر السقيم ، في شعر النابغة والرد عليه . أحسن ما قيل في فتور الطرف . اختلاف النقاد في معنى قول النابغة خطاطيف حجن المعازلة في التشبيه . معنى أخذ يد القميص في شعر الفرزدق . تشبيه الثور بالكوكب ونقده . تشبيه المحبوبة بالخيزرانة وما قيل في ذلك . التشبيهات الباردة والتمثيل لها . ضعف تشبيه المحبوبة بالآخت . التشبيه بالدلو والرشاء والمفتاح والسلم وتفصيل ذلك . عادة العرب في المدح والذم بالتشبيه . نقد بعض تشبيهات للبحرئى والمتنبي . رأى الخفاجي وابن الأثير والعلوى في قول المتنبي : العارض الهتن ورأى المؤلف . تشبيه المحبوبة بضرة الشمس وما قيل في ذلك ونقده . قبح تراكم التشبيهات . مثال للتشبيه البالغ غاية القبح ونقده .

الفصل السادس

أثر البيئة في التشبيه ١٨٥ - ٢٠٩

دلالة التشبيه على بيئته . معنى البيئة المرادة هنا . أثر البيئة في نشأة الآداب وإيجاد الفوارق بينها . سر نشأة أدب القصة

في شمال أوروبا . أثر البيئات الشرقية في تنوع آدابها ومظاهر
هذا الأدب . أمثال شعرية تمثل البيئات المختلفة في جميع
العصور . تشبيهات لانستملحها لبعده العهد بها . تشبيهات
حيوانية . من ضرب بهم المثل في أشياء . تشبيهات عصرية
منتزعة من البيئة .

الفصل السابع

جمال الجسد في التشبيه ٢١٠ - ٢٢٤

معنى الجمال والحسن والملاحة لغة واصطلاحاً وما بينهما من
فروق : الجمال غير محدود ، ويختلف باختلاف الأذواق .
اختصاص كل عضو بصفة . سحر المرأة وسلطانها على الرجل .
الشعراء العذريون والمرأة . سر هيام العربي بالمرأة . الأشياء
التي شبت بها المرأة الجميلة . كثرة التشبيهات الخاصة بالوجه
وسر ذلك . وصف أعضاء المرأة تفصيلاً . ضيق القم في
النساء والرجال . جمال المرأة أرفع أنواع الجمال . المرأة الجميلة
قديماً وحديثاً .

الفصل الثامن

الخطأ في التشبيه ٢٢٥ - ٢٣٨

الخطأ اللفظي ومواضعه . الخطأ المعنوي . خطأ المعاني
وصوابها وبيان ذلك . مرجع الخطأ في اللفظ والمعنى مع
التمثيل لذلك . سبب خطأ العرب في وصف النجوم . وصف
امرئ القيس للثريا وما قيل فيه .

تفصيل ما قيل في أحرر عاد . الخطأ بسبب المبالغة والتثيل
لذلك . ما يحتاج إليه التشبيه حتى يعصم من الخطأ . صفات
الخيال الجيدة . سبب ذهول الشاعر عن الصواب . التشبيه
الفاقد وما قيل فيه .

الفصل التاسع

أخطاء الشعراء في التشبيه ٢٣٩ - ٢٧٩

أراء العلماء في جواز اللحن على العربي وتفصيل ذلك .
رأى حمزة فتح الله وفارس الشدياق في وقوع اللحن من العربي
الصميم وشواهد ذلك . أمثال لما لحن فيه الشعراء . أثر
الاعاجم في شيوع اللحن . علوم العرب الستة . العلوم التي
يستشهد عليها بكلامهم . أمثلة لأخطاء العرب في التشبيه
جاهلية وإسلاما . أخطاء المولدين . مثال لما أخطأ فيه شوقي .

الفصل العاشر

أدوات الكتابة وحروف الهجاء في التشبيه ٢٨٠ - ٣١٢

هذا اللون من التشبيه يروج في عصور العلم والحضارة .
وجوده على قلة في العصر الجاهلي والإسلامي والتثيل لذلك .
وصف أعرابي أمي لرقم خمسة . كثرة هذه التشبيهات في
العصر العباسي ومن ذلك . وصف الجوارى الكائنات وما
يتصل بذلك . وصف الصحيفة والدواة والقلم والخبر .
الأشياء التي كثر بها التشبيه . الشطبة . الهمزة . الألف . اللام .

الواو وكثرة ورودها في شعر الغزل وسبب ذلك . واوات
الأصداغ في البلاغة . حشو اللوزينج . واو عمرو وما جاء فيها .
النون . الحرف المشدد . لا . الشككتان وما قيل فيهما . عطفة
الراء . السين . الشين . الصاد . العين . الميم . النقطة . أمثلة
تنتظم التشبيهات المتقدمة . نوع من التوليد الغريب . تشبيهات
الحروف في الرسائل الإخوانية .

الفصل الحادي عشر

التشبيهات العقم ٣١٣ - ٣٣٥

معنى التشبيه العقم وسبب هذه التسمية واشتقاقها . التشبيه
الولود . ورود بعض الكلمات في جميع اللغات . تشبيهات
زال عنها صفة الاختراع . أوائل التشبيهات العقم . أمثلة
للتشبيهات العقم في أغراض مختلفة . وصف الفرس . الضب .
الزرافة . النسور . وصف بديع البراءة . التقسيمات البديعة .
وصف عنزة لذباب الروض وإعجاب النقاد به . خطأ عنزة في
هذا الوصف وعدم تنبه القدامى له . تقليد الشعراء لعنزة في
وصف الذباب . لا يصح التعرض لتقليد المعاني المشهورة .
وصف ذى الرمة لليل وما قيل فيه . تشبيهات عقم
لابن الرومي وتحليلها . قوس قزح وما قيل فيه . التشبيهات
العقم في القرآن والحديث . وصف أيام قصف لأبي نواس
وتساوير الكهوس وتقليد الشعراء له ، مع شرح ذلك وإيراد
آراء النقاد فيها .

الفصل الثاني عشر

تشبيه السخرية والتهكم ٣٣٦ - ٣٥٠

بيان كنه هذا التشبيه وجوهره . الغرض الاساسى منه .
العناصر المؤلفة له . تشبيه عجيب فى قصير أسود . روح
الفكاهة والتندر وقلتها فى الناس . فن الهجاء مقصور على بعض
الشعراء . النزعة التهكمية فى الشعر الجاهلى . طريقة جرير
فى الهجاء وآثارها الموجهة . أمثلة من تشبيهات السخرية
والتهكم . براعة ابن الرومى فى الهجاء . تنوع الهجاء فى العصر .
العباسى وتناوله العيوب الجسمية وآداب اللياقة والسلوك
وسبب ذلك . سخرية أبى العلاء بالمجتمع . تشبيهات العرب
بما يلذونه من الطعام والشراب ودخول ذلك فى باب الملع .
الجاحظ وأبو العيناء والتهكم .



المراجع

التي ورد ذكرها في الأجزاء الثلاثة مرتبة على حسب ورودها

المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
الرازي	نهاية الإيجاز	قدامة ؟	نقد النثر
السكاكي	مفتاح العلوم	الجاحظ	البيان والتبيين
العلوي	الطراز	المقري	نفح الطيب
د عبد القاهر	أسرار البلاغة		ديوان أبي تمام
الجرجاني ،			ديوان البحتري
المولى عصام	شرح الفوائد الغيائية	القالى	الأمالي
المرشدي	حاشية عقود الجمان		ديوان المتنبى
السيوطي	شرح عقود الجمان	المرزباني	الموشح
المقري	مواهب الفتاح		ديوان العباس بن الأحنف
	حاشية الدسوقي على السعد	أحمد الشايب	الأمالوب
الشهاب الخفاجي	طراز المجالس		ديوان كشاجم
المحوي	خزانة الأدب	التنوخى	الأقصى القريب
	ديوان عمر بن أبي ربيعة	الحصري	زهر الآداب
	د ابن الرومي	ابن رشيق	العمدة
	الشوقيات	سامى النشار	مناهج البحث
ابن الأنثير	المثل السائر		ديوان الأعشى
، ،	كنز البلاغة	د طبع وزارة	د حافظ إبراهيم
ابن السبكي	عروس الأفراح	المعارف	
السيوطي	حسن المحاضرة		د السرى الرفاء

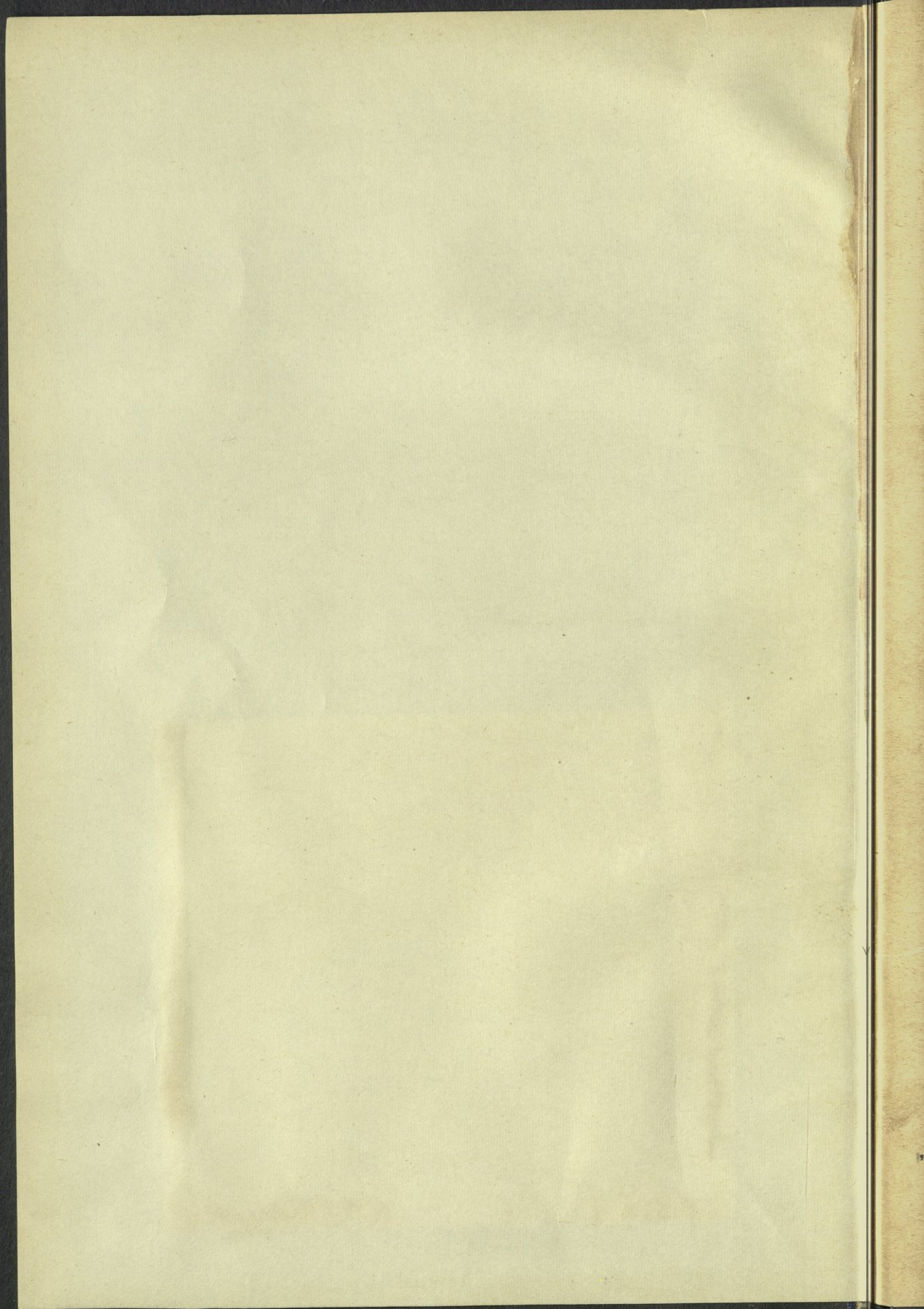
المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
المبرد	الكامل	أمين الخولى	فن القول
المرصفي	رغبة الآمل	عبد الحميد حسن	الفصول الفنية للأدب
ابن المعتز . ط	البديع	الفيروزا باذى	القاموس المحيط
الامتاذ حجاجي		الجوهري	الصحاح
قدامة	نقد الشعر	العسكري	الصناعتين
الصفدى	شرح لامية العجم		ديوان ابن هاني
اليازجي	العرف الطيب		» ابن المعتز
حامد عبد القادر	دراسات في علم النفس		» الشريف الرضى
	الأدبي		» ذى الرمة
	ديوان الأمير تميم	القزويني	الإيضاح
	» ابن سناء الملك	»	التلخيص
	» البارودي	البرقوقي	شرح التلخيص
	» أبي فراس	الحلي	حسن التوصل
	» ابن محمد يس	الوطواط ترجمه	حدائق السحر
حسن علوان	صريع الغواني	الدكتور الشواربي	
	ديوان زكى مبارك	الفيومي	المصباح المنير
	» ابن النيه	الجاحظ . ط -	الحيوان
	» ابن خفاجة	الساسى ،	
	» ابن نباتة		ديوان امرى القيس
العقاد	» دعاء الكروان		» جرير
البغدادى	خزانة الأدب		» الفرزدق
العسكري	ديوان المعاني		» البهاء زهير
مصطفى السقا	مختار الشعر الجاهلى		
البافلاني	إعجاز القرآن	ابن قتيبة	الشعر والشعراء

المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
النویری	نهاية الأرب	الدكتور شوقي	الفن ومذاهبه في الشعر
جمع الأستاذ	رسائل البلغاء	ضيف	فنون الأدب
کرد علی	الوساطة	تشارلتن وترجمة	بلاغة أرسطو
القاضي الجرجاني	الذخيرة	الدكتور زكي نجيب	الأمالي
ابن بسام	سلافة العصر	الدكتور سلامة	وفيات الأعيان
المدني	مطالع البدور	المرتضى	تزيين الأسواق
الغروي	الأغاني	ابن خلكان	زهة الألبا
الأصفهاني ط	سراج الملوك	الأنطاكي	شرح المعلقة
دار الكتب	فلسفة البلاغة	الأنباري	ثمار القلوب
الطرطوشي	الاتصاف	الزوزني	بلاغة العرب
جبر ضومط	أحسان الأصيل	الثعالبي	العقد الفريد
ابن المنير	سر الفصاحة	الدكتور أحمد	ديوان أبي نواس
علي الجندي	دفاع عن الأدب	ضيف	السنوبري
ابن سنان الخفاجي	يقيمة الدهر	ابن عبد ربه	مقامات الحريري
ديهاميل ترجمة	طوق الحمامة		ديوان الصفي الحلبي
الدكتور مندور	صرخة في واد	الزنجشري	أساس البلاغة
الثعالبي	ديون صالح بن		الكشاف
ابن حزم	عبد القدوس	أبو تمام	ديوان الحماسة
محمود غنيم	فؤاد الخطيب	العباسي	معاهد التنصيص
	محمد الأسمر	السكري	فوات الوفيات
الإمام علي	نهج البلاغة	أحمد الشايب	أصول النقد الأدبي

المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
ديوان نابغة بني شيخان	ديوان غنطرة	عبد الوهاب حمودة	التجديد في الأدب المصري
أوهام الشعراء	المواهب الفتحية	ابن حجلة المغربي	ديوان الصبابة
ثمرات الأوراق	نثر النظم وحل العقد	السراج	مصارع العشاق
إقامة الحجة	المجمل في فلسفة الفن	ابن يعيش	شرح المفصل
أمراء البيان	الغرائز	ابن جفي	الخصائص
مسابيل في فلسفة الفن	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مصطفى وعلى أمين	جريدة أخبار اليوم
المعاصرة	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	علي الجندي	فن الأسجاع
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	البناني	التجريد
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	جارية ترجمة	فلسفة الجمال
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	الدكتور عبد الحميد يونس	
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	القالي	ذيل الآمال
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	محمد بن قاسم	روض الأخبار
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	ابن قتيبة	عيون الأخبار
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	الأبشيهي	المستطرف
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	علي الجارم	علم النفس
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	ومصطفى أمين	ديوان حافظ
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	الطبعة الأهلية	د. محمود حسن إسماعيل
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	ابن أبي الإصبع	تحرير التعبير
مقدمة في علم النفس الاجتماعي	مقدمة في علم النفس الاجتماعي	أدب السكاك	ديوان صردر

المؤلف	الكتاب	المؤلف	الكتاب
الصولي	الأوراق	سيد نوفل	شعر الطبيعة
الدكتور بدوي طبانة	معروف الرصافي	كامل حجاج	خواطر الخيال
رشيد سليم خوري	ديوان القروي	أنطون غطاس	الرمزية والأدب العربي
علي أدهم	علي هاشم النقد والأدب	الزيات	دفاع عن البلاغة
الدكتور مندور	النقد المنهجي	٥٢/١١/١٣	الأهرام
المنهاج الخفاجي	شفاء الغليل	النفسي	مدارك التنزيل
القاضي الجرجاني	كنايات الأدباء	١٩٤٨/١	مجلة الكتاب
النهالي	الكنايات	ابن ظافر الأزدي	بدائع البدائع
أبو زيد القرشي	جمهرة أشعار العرب	١٩٤٤/١٢	المقتطف
السيد الخضر حسين	الخيال في الشعر العربي	زكي مبارك	مدامع العشاق
عبد السلام هارون	الميسر والأزلام	ابن تغري	النجوم الزاهرة
ترجمة نقولا الحداد	أسرار الحياة الزوجية	زكي مبارك	النثر الفني
الدكتور الخوفي	الغزل في الشعر الجاهلي	أحمد زكي	مبادئ علم النفس التعليمي
الدروبي	تعليقات على مسائل	الدكتور طه حسين	من حديث الشعر والنثر
السيوطي	في فلسفة الفن	عبد المتعال الصعيدي	بغية الإيضاح
الشنقيطي	المزهر	الجمحي	طبقات الشعر والشعراء
الأب لويس شيخو	الدرر اللوامع	٤٤ ص ٣٢٢	مجلة الكواكب
الجاحظ	شعراء النصرانية	عبد القاهر الجرجاني	دلائل الإعجاز
عبد السلام هارون	الحيوان	الأنبائي	التقرير
ابن منظور	لسان العرب	ابن عبد السلام	الإشارة إلى الإيجاز
حازم	المقصورة	الدكتور محمد فتحي	فلسفة السعادة
الدكتور المحاسني	أبو العلاء ناقد المجتمع	زكي مبارك	الموازنة بين الشعراء
	مجلة الربيع السنة الأولى	الفتح بن خاقان	قلائد العقيان
	العدد السادس	دكتور إبراهيم سلامة	تيارات أدبية
		البرقوقي	دولة النساء

مَطْبَعَةُ السَّالَةِ
٣ شارع حموده المكاول - عابدين



808
J 952aA

V. 3

~~DEC 3 1964~~

~~29 Jul 69~~

~~1 Jun 68~~

~~12 Mar 64~~

19 May 65



808:J952aA:v.3:c.1

الجندي، علي
فن التشبيه؛ بلاغة، ادب، نقد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030774

